السهل المفيد
فى
تفسير القرآن المجيد

الجزء الثاني

عبدالحي حسين محمد الفرماوي

الفاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـنِ الرَّحِيمِ

هذه : هى فاتحة الكتاب ، سورة الفاتحة .
وهى : مقدمة القرآن الكريم ، والسورة الأولى فيه .
وهى : تتكون من ثلاث فقرات .
الأولى : ثلاث آيات .. هى :

الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ * مَـلِكِ يَوْمِ الدِّينِ
[الآيات ٢ ، ٣ ، ٤]

وتشتمل هذه الآيات الثلاث على : حمد الله تعالى ، وتمجيده ، والثناء عليه .. بذكر أسمائه الحسنى ، المستلزمة لصفاته العليا سبحانه ، وعلى : ذكر المعاد، وهو يوم القيامة .

وهذه : هى عقيدة المسلم .. بإيجاز شديد .
الثانية : آية واحدة .. وهى:

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

[الآية ٥]

وتشتمل هذه الآية على : إرشاد عباد الله سبحانه وتعالى إلى .. سؤاله ، والتضرع إليه ، والاحتماء بجنابه، والتبرؤ من حولهم وقوتهم .

كما تشتمل على : إرشادهم إلى إخلاص العبادة لله ، وتوحيده ، وتنزيهه من أن تكون له شريك أو نظير أو مماثل .

وهذه : هى عبادة المسلم الحقة .. بإيجاز شديد ..

والفقرة الثالثة : آيتان .. هما

اهدِنَــــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ

[الآيتان ٦ ، ٧]

وتشتمل هاتان الآيتان – كذلك – على :

تعليم الناس سؤال المولى – عز وجل – الهداية إلى الصراط المستقيم ، وهو الدين القويم .

وتعليمهم – كذلك – طلب التثبيت عليه ، حتى يؤدى بهم هذا الطريق السليم المستقيم إلى النجاة فى المرور على الصراط يوم القيامة ، والوصول إلى جنات النعيم ، فى جوار (النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين) الذين كانوا محل القدوة لهم فى الدنيا ، ومثلهم العليا .

وهذا : هو منهج الحياة ، الصحيح ، السليم ، الواضح ، الذى يعتمد عليه فى الفلاح فى الدنيا وفى النجاة يوم القيامة .

* * *

ولهذه السورة منزلة كبيرة وفضل عظيم – يشير إلى ذلك ويوضحه ، أحاديث نبوية كثيرة .

من ذلك :

ما يرويه الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، أنه قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

قال الله عز وجل – أى فى الحديث القدسى – قسمت الصلاة – أى سورة الفاتحة – بينى وبين عبدى نصفين ، ولعبدى ما سأل .

فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين .

قال الله تعالى : حمدنى عبدى .

وإذا قال العبد : الرحمن الرحيم .

قال الله تعالى : أثنى على عبدى .

وإذا قال العبد : مالك يوم الدين .

قال الله تعالى : مجدنى عبدى – وقال مرة – فوض إلى عبدى .

وإذا قال العبد : إياك نعبد وإياك نستعين .

قال : هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل .

فإذا قال : إهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

قال : هذا لعبدى ، ولعبدى ما سأل .

(مسلم ، ك الصلاة ، باب وجوب قراءة الفاتحة فى كل ركعة ..الخ) .

* * *

التفســـــــــير

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

أيها الإخوة والأخوات ..

معنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : أستجير بجناب الله وعظمته من الشيطان الرجيم .. أن يضرنى : فى دينى ، أو دنياى ، أو يصدنى عن فعل ما أمرنى الله به ، أو يدفعنى إلى فعل ما نهانى الله عنه .

حيث إنه لا يكف الشيطان عن الإنسان ، ويبعد عنه أذاه .. إلا الله سبحانه وتعالى .

ولهذا : أمر الله تعالى المسلم بمصانعة شيطان الإنس ، ودفع أذاه .. بإسداء الجميل إليه ، ليرده طبعه الطيب وأصله الخير عما هو فيه من الأذى .

ولا يكون ذلك مع شيطان الجن .

إذ يقول عز وجل ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم [فصلت ٣٤-٣٦] .

* * *

وصيغة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هى الصيغة المختارة ، والأفضل ، أخذاً لها.. من قوله تعالى فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم [النحل٩٨] .

* * *

علماً بأن التعوذ .. بهذه الصيغة ، أو بغيرها : ليس من القرآن الكريم ، ولا آية منه .

* * *

ومع ذلك :

فقد ورد فى فضل التعوذ من الشيطان الرجيم – فوق أنه مأمور به – أحاديث كثيرة ، فى الدعوة إليه ، والتعود عليه ، والتعبد به .

من ذلك :

ما رواه الشيخان : أن رجلان تشاجرا وتسابا عند النبى صلى الله عليه وسلم ، فجعل أحدهما تحمر عيناه ، وتنفخ أوداجه – أى عروق رقبته – فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إنى لأعلم كلمة لو قالها : لذهب عنه الذى يجد .. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

(البخارى ، ك الأدب ، باب الحذر من الغضب) .

– وما رواه مسلم :

أن رجلاً أتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله .. إن الشيطان قد حال بينى وبين صلاتى ، يلبسها على .. !!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ذاك شيطان يقال له "خنزب" فإذا أحسسته : فتعوذ بالله منه ، واتفل عن يسارك ثلاثاً .

يقول الرجل : ففعلت ذلك .. فأذهبه الله عنى .

(مسلم ، ك السلام ، باب التعوذ من وسوسة الشيطان) .

وروت خولة بنت حكيم ، قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

من نزل منزلاً ، ثم قال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق : لم يضره شئ حتى يرتحل من منزله ذلك .

(مسلم .. ك الذكر والدعاء ، باب التعوذ من سوء القضاء. مالك فى الموطأ .. ك الاستئذان ، باب ما يؤمر بالكلام عند الضر. الترمذى .. ك الدعوات باب ما يقول إذا أنزل منزلاً) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ

هذه البسملة : مما أنزل الله تعالى فى القرآن الكريم ، على هذه الأمة خصوصاً .

حيث لم تكن : فى كتاب قبله ، ولا عند أمة غير هذه الأمة .

* * *

وقد تضمنت جميع علوم الشرع إجمالاً ؛ لأنها تدل على ذات الله تعالى ، وعلى صفاته العليا .

وهى : قسم من ربنا – عز وجل – أنزله عند رأس كل سورة .. يؤكد فيه لعباده : أن هذا الذى وضعت لكم يا عبادى فى هذه السورة .. حق ، كما أنى أفى لكم بجميع ما وعدتكم به فى هذه السورة ،من :لطفى عليكم ، وبرى بكم ، وإحسانى إليكم .

* * *

وقد ندب الشرع إلى ذكرها .. فى أول كل فعل وقول : كالأكل ، والشرب، والجماع ، وغير ذلك .

– قال تعالى وقال اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها [هود ٤١] .

– وقال تعالى اقرأ باسم ربك الذى خلق [العلق ١] .

– وقال صلى الله عليه وسلم :

لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتى بأهله ، فقال : باسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا ؛ فإن إن يقدر بينهما ولد فى ذلك : لم يضره شيطان أبداً

(البخارى ، ك التوحيد، باب السؤال بأسماء الله تعالى مسلم ، ك النكاح ، ما يستحب أن يقول عند الجماع) .

– وقال صلى الله عليه وسلم لعمر بن أبى سلمة : يا غلام: سم الله.وكل بيمينك ، وكل مما يليك .

– وشكا إليه صلى الله عليه وسلم أحد أصحابه من وجع يجده فى جسده ،فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ضع يدك على الذى تألم من جسدك .. وقل : باسم الله ، ثلاثاً ، وقل سبع مرات : أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر .

(مسلم ، ك السلام ، باب استحباب وضع يده على موضع الألم) .

هيا .. لنعطر بها – دائماً – شفا هنا ، وألسنتنا .

الحَمْدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ .

الْحَمْدُ للّه.

قال ابن عباس رضى الله عنه : (الحمد لله) كلمة كل شاكر.

قال الله لنوح عليه السلام فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين [المؤمنون ٢٨] .

وقال إبراهيم عليه السلام الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق [إبراهيم ٣٩] .

وحكى الله تعالى فى قصة داود وسليمان ، عليهما السلام ، قولهما الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين [النمل ١٥] .

وقال لنبيه عليه الصلاة والسلام وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً [الإسراء ١١١] .

ويقول أهل الجنة الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور [فاطر ٣٤] .

وأيضاً وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين [يونس ١٠] .

* * *

وقد أثنى الله تعالى بالحمد على نفسه ، وافتتح كتابه بحمده .

ولم يأذن فى ذلك لغيره ، بل نهاهم عن ذلك فى كتابه ، وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم .

يقول عز وجل فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى [النجم ٣٢] .

وفى الحديث الشريف: "احثوا فى وجوه المداحين التراب".

(مسلم ، ك الزهد والرقائق) .

* * *

رَبِّ الْعَالَمِينَ .

أى : مالكهم ؛ إذ كل من ملك شيئاً فهو ربه .

وهو اسم من أسماء الله تعالى : خاص به .

وأما كلمة رب :

فإذا دخلت عليها الألف واللام ، وصارت الرب خاصة بالله تعالى ، لا تطلق على غيره .

وأما إذا حذفت الألف واللام وأضيفت : صارت مشتركة بين الله تعالى وغيره .

فيقال : الله رب العالمين ، أو رب العباد .

ويقال : خالد رب الدار ، وعامر رب البيت .

والله عز وجل : رب كل الأرباب .

والعالمين:

كل موجود سوى الله سبحانه وتعالى .

قال فرعون وما رب العالمين * قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين [الشعراء ٢٣ ، ٢٤] .

ويصير المعنى :

أن الحمد والشكر : لله ، خالصاً ، دون ما عداه ، بسبب ما أنعم على عباده من النعم ، التى لا يحصيها العد ، ولا يحيط بعددها غيره أحد وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار [إبراهيم ٣٤] .

الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيمِ .

بعد أن وصف الله نفسه ، بــ رب العالمين وفيها ما فيها من .. الترهيب ، والتخويف : أتبع ذلك بوصف نفسه – تبارك وتعالى – نفسه ، بأنه الرحمن الرحيم لما فيها من الترغيب والتحبيب .

وذلك : ليجمع الله – سبحانه وتعالى – بين الرهبة منه ، والرغبة إليه ، فيكون ذلك أعون على طاعته ، وأمنع من معصيته .

كما فى قوله تعالى نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم * وأن عذابى هو العذاب الأليم [الحجر ٤٩ ، ٥٠] .

وكما فى قوله سبحانه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب [غافر ٣] .

وفى الحديث الشريف :

"لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة : ما طمع فى جنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة : ما قنط من جنته أحد" .

هذا ..

والرحمن : بجميع أنواع الرحمة .

وهو : المستحق وحده للعبادة .

وللعلم : هذا اسم مختص بالله تعالى ، لا يجوز أن يسمى به غيره .

يقول عز من قائل قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى [الإسراء ١١٠] .

وأما الرحيم فذلك بالمؤمنين .. فى الهداية لهم ، واللطف بهم .

وهذا : اسم لله تعالى .

ولكن يجوز أن يطلق على بعض المخلوقين ، كما فى قوله تعالى ، فى وصف محمد صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين رؤوف رحيم [التوبة ١٢٩] .

مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ .

مالك من المِلْك ، وهى : الملكية ، كما فى قوله تعالى إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون [مريم ٤٠] .

وقرئت ملك من المُلك ، كما فى قوله تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار [غافر ١٦] .

و يوم الدين : يوم الجزاء ، يوم الحساب ، يقول تعالى يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق [النور ٢٥] أى : جزاءهم العادل .

هذا ..

وتخصيص الملك بيوم الدين ، لا ينفى ملكه تعالى لغيره ؛ حيث تقدم الإخبار بأنه رب العالمين وذلك فى الدنيا والآخرة .

وإضافة الملك إلى يوم الدين : لأنه لا يدعى أحد فى هذا اليوم شيئاً ، بل لا يتكلم أحد إلا بإذنه .

يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً [النبأ ٣٨] .

ويقول تعالى وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً [طه ١٠٨].

كل ذلك فى يوم القيامة .

يوم يدينهم الله ، أى : يحاسبهم بأعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، إلا من عفا الله عنه .

نسأل الله العفو والعافية فى الدنيا والآخرة .

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

العبادة : كمال المحبة ، والخضوع ، والخوف ، والمراقبة ، والامتثال لشرع الله إجمالاً وتفصيلاً .

والاستعانة : الاحتماء بالله تعالى ، والتفويض إليه فى كل الأمور .

كما أنها : الاستعانة به فى الطاعة ، وغيرها من جميع الأمور والأحوال .

والمعنى : لا نعبد إلا إياك ، ولا نتوكل إلا عليك ، ولا نستعين إلا بك .

وهذا : هو كمال الطاعة ، ومنتهى العبودية لله تعالى .

حيث إن العبد – كما يقول الإمام ابن كثير – لما عرف حق مولاه ، سبحانه وتعالى ، وأثنى عليه بما هو أهله : كأنه اقترب – بفضل الله تعالى ، وحضر بين يدي الله عز وجل ، ولذا خاطبه خاضعاً خاشعاً ، قائلاً : إياك نعبد وإياك نستعين مستشعرا – فى ذات الوقت – حلاوة القرب ، ونعمة الطاعة .

* * *

اهْدِنَــــــا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ

هذا هو النصف الثانى من الدعاء ، وهو الذى فيه التصريح بالحاجات والمطالب إلى الله تعالى .

جاء بعد النصف الأول من الدعاء ، وهو الذى فيه الثناء على الله تعالى .

والصراط المستقيم هو دين الله وشرعه ، الذى لا يقبل من العباد غيره .

والمعنى : يا رب دلنا على الصراط المستقيم ، وأرشدنا إليه ، وثبتنا عليه ، وأرنا طريق هدايتك ، الموصلة إلى أنسك وقربك ورضاك .

وذلك : بأنس الرفقة والصحبة الصالحة ، الذين جمعوا بين العلم والعمل به، وهم الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً [النساء ٦٩] .

حيث إن الإنسان : قد يهتدى إلى الطريق ، ثم لا يسير عليه ، أو لا يثبت فيه ، ولا يدوم ملازماً له .

يا رب .. !!

نجنا من الرفقة السيئة ، والصحبة الضارة . .المذكورين فى قولك غير المغضوب عليهم وهم الذين عرفوا الحق ، ولكنهم رفضوه ، وعاندوه ؛ ففقدوا العمل ، وحرموا الطاعة ؛ ولذا غضب لله عليهم .

وكذلك : المذكورين فى قولك ولا الضالين وهم الذين فقدوا العلم ، وضلوا عن الحق ، وألفوا ضلالهم ، واستمروا فيه ، ودافعوا عنه ؛ فخاب سعيهم ، وبطل عملهم .

* * *

ختاماً ..

يستحب لمن يقرأ الفاتحة .. أن يقول بعدها: آمين .

ومعناه : "اللهم استجب لنا" .

عن أنس رضى الله عنه ، قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطيت آمين : فى الصلاة ، وعند الدعاء ، لم يعط لأحد قبلى ، إلا أن يكون موسى – عليه السلام – كان موسى يدعو ، وهارون يؤمن ، فاختموا الدعاء بـــ "آمين" فإن الله يستجيبه لكم.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه :

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا قال الإمام ولا الضالين فقولوا آمين فإن الملائكة فى السماء تقول آمين فمن وافق قوله قول الملائكة: غفر له ما تقدم من ذنبه".

=======

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأحباب فى الله ٠٠

ننتقل الآن إلى سورة أخرى من سور القرآن الكريم.

وهي سورة "النساء".

وهى سورة مدنية نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم فى العهد المدنى للدعوة الإسلامية.

و تهتم : ببناء الجماعة المسلمة، وإنشاء المجتمع المسلم، وحماية تلك الجماعة، وصيانة هذا المجتمع ٠٠ من الذوبان، أو الانحراف عن الطريق الصحيح.

كما تهتم بعملية تكييف ملامح المجتمع المسلم الجديد، وإبراز شخصيته الخاصة به.

والسورة : تبدأ بخطاب يعم المكلفين جميعاً من الناس، الموجودين ساعة نزول السورة، ومن سيوجد منهم إلى يوم القيامة.

حيث يقول ربنا تبارك وتعالى :

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُوا اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا }

[الآية ١]

يعنى ٠٠ يا بنى آدم اتقوا ربكم الذى خلقكم وفرعكم من أصل واحد، هو نفس آدم أبيكم، الذى خلقه الله من تراب، وخلق من هذه النفس زوجها حواء، ثم أنشأ ونشر وشعَّب من آدم وحواء معاً رجالاً كثيراً،ونساءً كثيرات.

ثم يكرر للاهتمام : الأمر بالتقوى .

فيقول سبحانه :

{... وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ...}

أى : واتقوا الله الذى تعظمونه ٠٠ فلا تخالفوا أوامره، بل أطيعوه، واجتهدوا فى مرضاته.

واتقوا الأرحام ٠٠ فلا تقطعوها، وتسيئوا إليها، بل صِلوها، وبروها، وأحسنوا إليها.

{إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}

يعنى ٠٠ حافظا لأعمالكم، ومراقبا لها ٠٠ فمجازيكم عليها.

فراقبوه، وأطيعوه ٠٠ ولا تعصوه.

*****

وبعد أن أمر الله تعالى بالتقوى، كما رأينا :
يذكر سبحانه أشياء مطلوب فيها تقوى الله عز وجل.
ويبدأ – جل شأنه – بذكر اليتامى وأمورهم ٠٠ لإظهار كمال عنايته واهتمامه بهم، وكذلك لملابستهم بالأرحام.

إذ يقول :

{ وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا }
[الآية ٢]

وهكذا ٠٠
يأمر تعالى : الأوصياء على اليتامى ٠٠ بدفع أموالهم إليهم، إذا بلغوا الحلم – أى سن الرشد – كاملا دون نقصان.
كما نهى سبحانه : الأوصياء على اليتامى من أخذ الجيد من المال لأنفسهم، وترك الرديء منه لليتامى.
وينهى ربنا – ثالثاً – بعدم خلط الأموال بعضها إلى بعض ٠٠ مما يؤدي إلى تضييعها من اليتامى، وأكلها منهم.
ثم يهدد ويخوف من يفعل ذلك بقوله إنه كان حوباً كبيراً أى : ذنباً عظيماً، يتنافى مع تقوى الله، ورضوانه.
هذه الآية الكريمة ٠٠ أيها الأحبة فى الله ٠٠
نزلت ٠٠ عندما طلب يتيم من عمه الوصى عليه شيئاً من ماله الذى له عنده، فرفض عمه طلبه.
ثم ٠٠ رفع الأمر إلى النبى صلى الله عليه وسلم ٠٠ فنزلت.
أتدرون ٠٠ ماذا حدث من عمه حينئذ ٠٠؟
قال : أطعنا الله ، وأطعنا الرسول، نعوذ بالله من الحَوْب الكبير ٠٠ ودفع لليتيم المال.
تقول الرواية : وأخذ اليتيم المال، وأنفق منه فى سبيل الله.
المهم ٠٠
أنه بعد نزول هذه الآية، وهذا الحكم : تحرج المسلمون من ولايتهم لليتامى، وخافوا من الوقوع فيما يغضب الله منهم بسبب ذلك ٠٠ بل إن أكثرهم واقع فيما كان التهديد من الله والتخويف منه.
حيث إن الواحد منهم ٠٠ حينما يكون وصياً على يتيمة عندها مال، وفيها جمال ٠٠ يتزوجها؛ رغبة فى مالها، وأملاً فى أن يرثها إذا ماتت ٠٠ حتى ولو اجتمع عنده منهن العشر زوجات.
ولأن هذا ٠٠ ظلم.
واقع على اليتامى من جهة، وعلى أموالهن من جهة أخرى.
فقد نهى الله عنه ٠٠
حيث قال :

{ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ }
[الآية ٣]

أى : إن تحرجتم من ولاية اليتامى؛ بسبب خوفكم من عدم العدل فى أموالهم ‧‧ فلا عليكم من خوف بشرط أن تعدلوا.

أما إن كان عدم العدل فيهن وفى أموالهن إذا تزوجتموهن : فلا تتزوجوهن؛ طلباً للعدل، ومرضاة لله، ولكم فى غيرهن من النساء الكثيرات.

وكأنى بسائل يسأل : كم يحل لى منهن كزوجات ؟

الجواب :

ثنتين إن شاء أحدكم ‧‧

أو : ثلاث.

أو : أرفع فقط.

ولا يزيد على ذلك، بشرط العدل بينهن.

ولكن ‧‧ ما الحكم إذا خاف عدم العدل بينهن ‧‧؟

يقول تعالى :

{فـــإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ }

وفى هذه الحالة : يكتفى بواحدة فقط من النساء الحرائر، أو من الجوارى – لو وجد ذلك – ما شاء مما ملكت يمينه منهن.

واختيار الواحدة، والاكتفاء بها : أقرب إلى العدل وعدم الظلم.

*****

وما دام الحديث قد تطرق إلى الزواج : فلابد من إيتاء النساء مهورهن.

حيث يقول ربنا العزيز الحكيم :

{ وَآتُواْ النَّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا }
[الآية ٤]

وهذا أمر ‧‧ بإعطاء النساء مهورهن ‧‧ من باب الفريضة الواجبة.

وهذا الأمر ‧‧ للأزواج.

وقال بعض العلماء : إنه لأولياء الأمور، الذين يأخذون المهور، أو بعضها لأنفسهم، كما يفعل فى بعض البلدان من بعض أهلها.

وفى هذه الحالة ·· فالأمر للأزواج، ولأولياء الأمور معاً ·· أن يعطوا الصداق للمرأة ·· فهو ملكها، خاص بها.

فإن أعطت منه شيئاً بطيب نفس منها ·· للزوج، أو لولى أمرها ·· فلا حرج فى ذلك، ولا إثم فيه.

* * *

وإن كان المولى قد أمر بإيتاء اليتامى أموالهم ·· كما رأينا منذ قليل، وكان هذا من تقوى الله ··

فإنه لا ينبغى إعطاؤها لهم إلا إذا كانوا عقلاء، راشدين، يحسنون التصرف فيها ·· وهو فى ذات الوقت من تقوى الله ··

يقول عز من قائل :

{ وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا }
[الآية ٥]

أى : يا أولياء اليتامى ·· لا تعطوا السفهاء غير العقلاء منهم هذه الأموال، ولا تمكنوهم من التصرف فيها؛ تصرفاً يضربها ويهلكها.

فإن هذه الأموال ليست للعبث بها، ولا لتضييعها؛ بل جعلها الله للناس قياماً ·· تقوم بها معايشهم، من التجارات فيها، وغير ذلك.

ولكن ·· ليس معنى ذلك : أن تمنعوا المال عن هؤلاء اليتامى غير العقلاء إلى درجة الإيذاء لهم ··

لا ·· وألف لا ··

بل أحسنوا إليهم يا أوصياءهم ·· بالإنفاق عليهم فى الملبس والمأكل والمشرب والمسكن ·· إلخ مما تتطلبه حياتهم.

مع الكلام الطيب لهم والمعاملة الحسنة معهم.

*****

وإذا كان المولى عز وجل ·· قد نهى عن إعطاء اليتامى غير العقلاء أموالهم – كما رأينا – أيها الأحبة فى الله ··

فليس المراد : المنع المطلق منهم.

وليس المراد كذلك : الإيتاء المطلق لهم.

بل لابد من إجراء اختبار لليتيم قبل إعطاء الوصى عليه ماله له.

يقول سبحانه :

{ وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيبًا }

[الآية ٦]

يعنى : اختبروا اليتامى – قبل سن البلوغ – فى عقولهم، وزنوا أحوالهم، ومعرفتهم بالتصرف ٠٠ فإن وجدتم منهم ٠٠ صلاحاً فى المعاملات، ورشداً فى التصرفات : فسلموا إليهم أموالهم التى لهم تحت أيديكم.

وهنا ينبغى أن نلاحظ أمرين :

الأول : أمر الأكل بالنسبة لكم من هذه الأموال.

وهذا يبينه الله تعالى فى قوله :

{.. وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ .. . }

يعنى : ولا تأكلوا منها مسرفين، ومبادرين كبرهم، أى : قائلين ننفق منها فيما نشتهى قبل أن يكبر اليتامى، فينزعوها من أيدينا، ويأخذوها نهائياً.

وكأن قائلاً يقول :

إن الضرورات قد تحكم بالأكل منها.

فما الحكم ٠٠؟

يقول تعالى :

{... وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ...}

والمعنى : أن الوصى على اليتيم ٠٠ إما أن يكون غنياً، أو فقيراً.

فإذا كان غنياً ٠٠ فليكن عفيفاً عن الأكل من مال اليتيم، بل يطلب الزيادة فى العفة بالحذر الدائم من ذلك.

وإن كان الوصى فقيراً ٠٠ فليأكل بقدر حاجته الضررية، وبالمعروف، اذى لا إسراف فيه، ولا ضرر منه.

* * *

وأما الأمر الثانى ٠٠ الذى تنبغى ملاحظته : فهو ضرورة الإشهاد عند دفع المال لليتيم، وتسليمه له.

يقول تعالى :

{... فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ...}

وذلك : لئلا يقع إنكار من بعضهم، لما تسلمه، أو لبعض ما تسلمه من وليه؛ فتكون المشاحنات والعداوات والبغضاء.

وبعد كل ذلك ..

يذكر الله تعالى الأوصياء على اليتامى .. برقابته عليهم، ومحاسبته لهم.

فيقول :

{.. وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيبًا ..}

أى : أن الله تعالى خير الرقباء والمحاسبن، لا يرضى بظلم، ولا نقصان فى الحقوق، ولا إساءة فى وصاية أو ولاية.

وعليه :

فلا تظلموا اليتامى حال وصايتكم عليهم، ولا تسيئوا إليهم، ولا تبخسوهم حقوقهم عند تسليمكم لها إليهم.

*****

هذا .. ولما كان اليتامى من أصناف المجتمع التى قد يقع عليها الظلم ..!!

وقد تم علاج ذلك .. ببيان أحكامه فى الآيات السابقة ..

ولما كان – كذلك – من أصناف المجتمع التى قد يقع – بل يقع – عليها الظلم .. هن النساء ..!!

فقد اهتم الإسلام بعلاج ذلك .. بوضع مبادئ وقواعد، لا ينبغى مخالفتها .. بل يأثم من يخالفها.

وذلك فى قوله تعالى :

{ لِّلرِّجَالِ نَصيِبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا }

[الآية ٧]

يعنى بذلك : أن الرجال والنساء سواء فى استحقاق الوراثة، ما داموا سواء فى سبب هذا الاستحقاق.

حتى وإن تفاوتوا فى نصيب كل منهم؛ بسبب الذكورة أو الأنوثة، أو بعلاقته بالميت من قرابة، أو زوجية، أو غير ذلك.

وهذا النصيب الذى للرجال أو النساء، يعد من المشرع.

{.. نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ..}

أى : نصيباً ومقدارا مقطوعاً مفروضاً لهم، واجب تسليمه وإعطاؤهن إياه.

وهذا المقدار : سوف يتضح بعد ثلاث آيات، أى : ابتداء من قوله تعالى يوصيكم الله فى أولادكم..

*****

ولكن ٠٠ هنا :

وبمناسبة الكلام عن الأنصبة، وما سيأتى من تقسيم التركة على الورثة.

فإن هناك بعض الأقارب الذين لا يرثون، وهم فى ذات الوقت : فقراء، أو مساكين، أو يتامى، وقد يحضرون حال قسمة التركة، ويحدث فى نفوسهم ما قد يحدث بسبب هذه الأموال التى لا نصيب لهم فيها.

فما العمل إذن ٠٠؟

لا ينساهم المشرع الحكيم ٠٠ بل يأمر الورثة بقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾
[الآية ٨]

أى : إذا حضر قسمة التركة على الورثة أولوا القربى ممن لا يرث، ولا نصيب له، واليتامى والمساكين الأجانب فأعطوهم شيئاً من المال المقسوم ٠٠ تطييباً لقلوبهم، وتصدقاً عليهم، دون منّ، ودون أذى.

بل قولوا لهم قولاً معروفاً مما تعورف عليه فى مثل هذه الأحوال ٠٠ كقول القائل : خذوا بارك الله فيكم ولكم ٠٠ إلى غير ذلك من طيب القول.

* * *

ثم يحذر ربنا – جلت حكمته – الأوصياء على اليتامى، من ظلمهم ٠٠

وذلك من خلال أمره عز وجل لهم ٠٠ أن يخشوا الله ويتقوه فى أمر اليتامى ٠٠ فيفعلون بهم ما يحبون أن يُفعل بذراريهم وأولادهم الضعفاء.

إذ يقول :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴾
[الآية ٩]

هذه الآية – أيها الأحبة – تؤدب الأولياء والأوصياء بالأدب الإيمانى، والتربية الربانية، المبنية على تقوى الله، والخشية منه ٠٠ فى معاملة من يلون أمرهم من اليتامى ٠٠ معاملة حسنة كريمة كما يعاملون أولادهم.

* * *

ثم عاد الكلام إلى الأكل من أموال اليتامى، الذى تبين حكمه سابقاً ٠٠
ولكن هذه المرة بالتخويف من أكله ظلماً.
حيث يقول ربنا العزيز الحكيم :

{ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا }
[الآية ١٠]

يعنى : إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً : إنما يملئون بطونهم ناراً ؛ لأنهم أكلوا ما يجر إلى النار بأكلهم حقوقهم.
وفوق ذلك : يدخلون نارًا يعذبون فيها.

*****

أيها الأحبة فى الله ٠٠
هل تذكرون قوله تعالى للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر ٠٠٠ ؟
الذى تحدثنا إليه منذ قليل ٠٠
أعتقد أن الجواب ٠٠ بنعم.
إذاً ٠٠ اعلموا – أعزكم الله – أن هذه الآية ذكرت المواريث إجمالاً.
وبقى تفصيل هذه المواريث ٠٠ من حيث : الأنصبة، والوارثين، وغير ذلك.
وإليكم بداية هذا التفصيل:

{ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا }
[الآية ١١]

أحبتى فى الله ٠٠
الوارثون : ثلاثة أقسام :

الأولاد والآباء.
ثم الأزواج.

ثالثاً : الكلالة.

والآية السابقة تتحدث عن القسم الأول .
وسيأتى الكلام عن الباقى – بإذن الله – قريباً.

ومعنى الآية السابقة بالنسبة للأولاد :
يأمركم الله، ويعهد إليكم ٠٠ بالعدل فى الأولاد، ذكوراً وإناثاً فى أصل الميراث، فلا تحرم البنت، أو الصغير، أو غير المحبوب منهم.

ومن العدل : التفاوت بين الصنفين فى النصيب والمقدار ٠٠ حيث جعل الله – تعالى – للذكر مثل حظ الأنثيين.
وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة، والكلفة، ومعاناة التجارة، والتكسب، وتحمل المشاق ٠٠
ولذلك ناسب أن يُعْطَى ضِعْفَىْ ما تأخذه الأنثى.

فإن كان الأولاد الورثة ٠٠ إناثاً فقط : اثنتين، أو ثلاثاً فصاعداً : فلهن الثلثان من تركة الميت.
وإن كانت واحدة : فلها نصف التركة.

لاحظوا أيها الأحبة ٠٠
أن الله عز وجل ٠٠ قدم الأولاد فى شأن الميراث، وبدأ بهم قبل غيرهم؛ لأنهم أقرب إلى الميت وأكثرهم بقاءً بعد المورِّث.

*****

تعالوا بنا – الآن – إلى أحكام الآباء فى الميراث.
يقول جل جلاله :

{..وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ ...}

معنى الآية :
أن الميت إذا كان له أبوان ٠٠ وله معهم أولاد – أو أولاد أولاد – ذكوراً أو إناثاً : فلكل واحد من أبويه السدس، والباقى للأولاد ، للذكر منهم مثل حظ الأنثيين.
وأما إن كان له أبوان ٠٠ وله معهم بنت واحدة : فلكل واحد من أبويه السدس، وللبنت النصف، والباقى للأب يرثه تعصيباً؛ لقول النبى صلى الله عليه وسلم: ألحقوا الفروض بأهلها، وما تبقى فلأوْلى رجل ذكر وأولى رجل ذكر – فى حالة عدم وجود الابن ، أو ابن الابن – هو الأب.

وإذا كان له أبوان فقط دون أولاد، أو أبوان مع زوج دون أولاد : فللأم الثلث فى الأولى، أو ثلث ما يبقى بعد نصيب الزوج، والباقى فى الحالتين – وهو الثلثان – للأب.
وإذا كان للميت أبوان ٠٠ وله معهم إخوة ، ذكوراً أو إناثاً : فللأم السدس؛ حيث حجبها الإخوة من الثلث إلى السدس لصالحم عند عدم وجود الأب، وللأب الباقى؛ ولا شيء للإخوة؛ حيث حجبوا بالأب، عند وجوده.
ويلاحظ جيداً : أن كل هذه الأنصبة من الميراث التى سبق ذكرها تفصيلاً، بالنسبة للأولاد، أو الآباء، لا ينبغى أن يتم توزيعها، إلا بعد تنفيذ وصية الميت، ودفع الدين الذى عليه.

يقول عز وجل :

{.. مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ .. }

هذا ٠٠ وقد أجمع العلماء على أن قضاء الدين : مقدم على تنفيذ الوصية.
ولكنها ٠٠ قدمت فى الذكر والتلاوة – كما نراها – ليسارعوا فى إخراجها، وتنفيذها مع الدين؛ حيث إن إخراج ما نصت عليه الوصية مما يشق على النفس، بخلاف الدين.
ولذلك : كان التقديم للاهتمام بشأنها، والحث على الإسراع بتنفيذها.

*****

أيها الأحباب ٠٠
قسم الله المواريث، وزرع الأنصبة، وفق حكمة لا يعلمها إلا الله.

ولذا يقول جلت حكمته :

{.. آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً .. }

أى : أنفع لكم فى الدنيا والآخرة .
حيث إن البعض : يظن أن ابنه أنفع له ٠٠ فيعطيه الميراث، فكيون الأب أنفع.
وبالعكس.
وإنما العالم بذلك : هو الله وحده.

* * *

وفى هذا التنبيه – أيها الأحبة فى الله – توبيخ من خالف أحكام الله فى الميراث ٠٠ وحصر ميراثه فى أبيه فقط، أو فى ابنه فقط، أو فى بعض الورثة فقط، وحرم الباقين ٠٠ وهو لا يعلم من الأنفع له.
ولو ترك الأمر على ما هو عليه ٠٠ ليأخذ كل ما فرض الله له : لكان أولى، وأجدر بنوال مرضاة الله.

وعلى كل :
فهذه الأحكام المذكورة، والأنصبة المحددة : لا تخضع للمزاج، أو الهوى.
بل جعلها سبحانه :

{.. فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ .. }

أى : كل ذلك على سبيل الفرض والإلزام الذى لا تجوز مخالفته، بل يعاقب من لا ينفذه.

{.. إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيما حَكِيمًا.. }

أى : لم يزل عليماً بمصالح خلقه، حكيماً فيما يقضى ويفرض عليهم، ويقدر لهم.
فما أجهل من رفض هذه الأحكام ..!!
وما أحمق من عاندها ..!!
وما أكثرهم فى عصرنا ..!!
هدانا الله وإياهم.

*****

وبعد هذا ..
يبدأ المولى عز وجل : فى الحديث عن القسم الثانى من الورثة، وهم: الأزواج والزوجات.
فيقول سبحانه :

{ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ }
[الآية ١٢]

يعنى : ولكم – أيها الرجال – نصف ما تركت زوجاتكم إذا مُتن عن غير ولد، وارث منكم، أو من غيركم، من بطنها، أو من صلب أولادها، أو أولاد أولادها وإن سفل، ذكراً كان أو أنثى، واحداً أو أكثر.
والباقى : لورثتهن .. من ذوى الفروض، والعصبات، أو غيرهم .. فإن لم يكن لها وارث غير الزوج: فالباقى لبيت مال المسلمين.
ولكم كذلك – أيها الرجال – ربع ما تركت زوجاتكم إذا متن عن ولد، بالتفصيل الذى ذكرناه.
والباقى: لباقى الورثة.
وكل ذلك ..

من بعد وصية يوصين بها أو دين.
وقد تقدم ٠٠ أن الدين مقدم على الوصية، وبعده الوصية، ثم الميراث.
وهذا أمر مجمع عليه من بين علماء الأمة.

* * *

ثم يقول ربنا جل جلاله:

{.. وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ .. }

وهكذا ٠٠ يخاطب ربنا الرجال قائلاً :
ولزوجاتكم – أيها الرجال – ربع ما تركتم، إذا متم عن غير ولد وارث، على النحو الذى تم توضيحه منذ قليل.
والباقى : لورثتكم ٠٠ من ذوى الفروض، والعصبات، أو غيرهم، فإن لم يكن لكم وارث غير الزوجة : فالباقى لبيت مال المسلمين.
ولهن كذلك – أيها الرجال – ثُمُنَ ما تركتم، إذا متم عن ولد وارث، حسب البيان السابق.
والباقى: لباقى الورثة.
وكل ذلك ٠٠

{... من بعد وصية توصون بها أو دين ...}

*****

ثم يكون الحديث بعد ذلك – أيها الأحبة فى الله – فى القسم الثالث من الورثة، حسب ما تذكر هذه الآية الكريمة.
وهو : الكلالة.

حيث يقول سبحانه وتعالى :

{..وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ .. }

الكلالة : من الكلال، وهو الضعف والإعياء، وذهاب القوة.
والمراد بها : من لا والد له ولا ولد.

وحكمه فى الميراث ٠٠ على النحو التالى :
إذا مات : وله أخ أو أخت من أم ٠٠ فلكل واحد منهما – أى الأخ والأخت – السدس فى التركة.
وذلك : لأنهم يستحقون الميراث، بقرابة الأم، والأم لا ترث أكثر من الثلث، فيقسم بينهما على التساوى.
وأما إذا مات : وله أخ أو أخت من أب : لكان الإرث بالتعصيب فى حالة وجود الذكور.
وإذا مات : وله أكثر من أخ، أو أكثر من أخت، أو منهما من أم ٠٠ فالجميع سواء فى الثلث، وهو نصيب الأم، فيقسم بينهم على التساوى، للذكر مثل ما للأنثى.
كل ذلك ٠٠
من بعد وصية يوصى بها أو دين.
وأن لا يكون ضاراً لورثته فى هذه الوصية.

* * *

ولاحظوا أيها المسلمون ٠٠
أن كل ما ذكر من أحكام فى هاتين الآيتين، بالنسبة لأصناف الورثة كلهم.
التزموا بها.

{.. وَصِيَّةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ .. }

يوصيكم الله بالمحافظة عليها، وتنفيذ ما فيها، وعدم الإخلال بأحكامها.
والله عز وجل : عليم إذا شرَّع وحكم وقدر، عليم – فى ذات الوقت – بمن حرَّف، أو بدل، أو ظلم حكيم لا يعاجل الظالم بالعقوبة.
فلا يغتر من ٠٠ حرَّف، أو بدل، أو ظلم.

*****

ثم يعقب ربنا – تبارك وتعالى – على هذا التقسيم والتوزيع الإلهى للموارث ٠٠ قائلاً :

{ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }
[الآية ١٣]

يعنى : هذه الفرائض والمقادير التى بينها المولى سبحانه، وجعلها الورثة بحسب قربهم من الميت، واحتياجهم إليه، وفقدهم له عند عدمه ٠٠ هى حدود الله.
فلا تعتدوها، ولا تجاوزوها ٠٠ بالتغيير فيها، أو الإهمال لها، أو الإنكار لصلاحيتها.

على كل حال : هى أحكام الله شرعها لكم، وأنزلها على رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد بلغها – عليه الصلاة والسلام – لكم.

{.. وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ..}

أى : من يطع الله ٠٠ فلم يزد ولم ينقص، بأية حيلة أو وسيلة فى هذه المقادير لبعض الورثة ٠٠ بل ترك الأمر على حكم الله، وفريضته وقسمته ٠٠ فإن الله يجازيه على ذلك ٠٠ بأن يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم.

{ وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ }
[الآية ١٤]

نعوذ بالله تعالى من ذلك .
أى : يكون جزاؤه ذلك؛ لكونه غيَّر ما حكم الله به، وعاند الله فى حكمه.
وهذا التغيير، وهذا العناد ٠٠ لا يصدر من المرء، إلا بسبب عدم الرضا بحكم الله، والاعتراض على شرعه.
ولهذا ٠٠ يجازيه رب العزة بالإهانة فى العذاب المقيم.
فليحذر الذين يخالفون شرع الله تعالى.
يقول الحبيب صلى الله عليه وسلم :
من قطع ميراثاً فرضه الله ورسوله : قطع الله ميراثه فى الجنه .

*****

ونقول أيها الأحبة فى الله تعالى ٠٠
بعد أن بين الله عز وجل لنا أحكام المواريث على النحو الرائع الذى رأيناه٠٠
يبين لنا – تبارك وتعالى – بعض الأحكام المتعلقة بالرجال والنساء، مما يتعلق بالتشريعات الاجتماعية التى تقوم وتبنى عليها الدولة.
حيث يقول رب العزة :

{ وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً }
[الآية ١٥]

هذه الآية الكريمة تتحدث عن عقوبة المرأة التى تزنى.

وكان هذا الحكم ٠٠ قبل أن تنزل سورة النور وفيها قوله تعالى الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ٠٠٠ [الآية : ٢] .

وهذا الحكم ٠٠ هو

أن يطلب الحاكم أو القاضى أو ولى الأمر لإثبات واقعة الزنا أربعة من الشهود.

فإن شهدوا عليها بذلك : حسبت المرأة فى البيت حتى وفاتها.

وكان هذا حكماً مؤقتاً ٠٠ بدليل قوله تعالى أو يجعل الله لهن سبيلاً أى : حتى يأتى حكم آخر.

وكان هذا الحكم الآخر هو ما جاء بعد ذلك فى سورة النور.

هذا ٠٠

وبالنسبة للرجال.

فيقول سبحانه وتعالى :

{ وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا }
[الآية ١٦]

يعنى : أما من يفعل الفاحشة من الرجال سواء الزنا مع النساء، أو اللواط بين الرجلين.

فالحكم هنا ٠٠ أن يتم إيذاؤهما بالشتم والتعيير أو الضرب والتقريع.

فإن تابا عن فعلهما هذا وأصلحا بالإحسان فى تصرفاتهما، التى تدل على صدق التوبة منهما : فأعرضوا عنهما ، وأوقفوا التوبيخ والضرب عنهما ٠٠ لأن التائب عن الذنب كمن لا ذنب له؛ حيث إن الله كان تواباً رحيماً.

ويلاحظ جيداً ٠٠ أن هذا الحكم كان قبل نزول حد الزنا فى سورة النور، كما سبقت الإشارة.

*****

وبمناسبة ذكر توبة الزانى، أو اللائط : يخبر ربنا – عز وجل – عن المستحقين لقبول التوبة.

فيقول عز من قائل :

{ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً }
[الآية ١٧]

أى : يقبل الله توبة الذين يذنبون ويرتكبون ما لا يليق بهم من الخطيئة ٠٠ ثم يندمون على ذلك، ويقلعون عن العود إليه، ويتوبون إلى الله تعالى فوراً، ويقلعون عن العود إليه، ويتوبون إلى الله تعالى فوراً، قبل أن يأتيهم الموت والدخول فى حالة الغرغرة وسكرات الموت.

هؤلاء : يتوب الله عليهم، ويصفح عنهم، ويغفر لهم ٠٠ حيث كان الله عليماً بعزمهم على التوبة، وصدقهم فيها، حكيماً بفتح باب التوبة والمغفرة لهم.

* * *

وحيث ذكر ربنا – تبارك وتعالى – المستحقين لقبول التوبة : فإنه يعقب عليه ببيان من لا يستحقونها، ولا يسعدون بها.
إذّ يقول جل وعلا :

{ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا }
[الآية ١٨]

أى : لا يقبل الله تعالى توبة من العصاة ٠٠ الذين يعملون السيئات ولا يتوبون منها ويقلعون عنها حتى يأتيهم الموت.
ولا يقبل كذلك إيماناً من الكفار، الذين يصرون على الكفر، ولا يتوبون منه، ولا يقلعون عنه حتى يأتيهم الموت.
وذلك : لأن العصاة لم يتوبوا، والكفار لم يؤمنوا إلا عند معاينة ملك الموت، ومعرفتهم بسوء النهاية، فيقول الواحد منهم إنى تبت الآن.
هؤلاء وهؤلاء : أعددنا لهم يوم القيامة عذاباً شديداً أليماً موجعاً.

*****

هذا ٠٠ وبعد أن نفَّر المولى عز وجل من عادات أهل الجاهلية بخصوص اليتامى وأموالهم، ونهى عنها.
ينفِّر الآن – كذلك – من عادات أهل الجاهلية بخصوص النساء وأموالهن، وينهى عنها.
وذلك كله من الأمور الاجتماعية ٠٠ التى لا ينبغى أن تكون فى الدولة الإسلامية.
حيث يقول تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاء كَرْهًا وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا }
[الآية ١٩]

وهذا : نهى من الله تعالى أن يحدث فى الدولة الإسلامية ما كان يحدث للمرأة فى الجاهلية ٠٠ إذ كانوا إذا مات زوجها : يرثها أولياؤه ٠٠ وإن شاءوا تزوجها بعضهم، أو زوجوها من أرادوا، أو لا يزوجونها أصلاً ٠٠ حيث إنهم كانوا أحق بها من نفسها، ومن أهلها.

{.. وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ..}

وهذا : نهى من الله تعالى كذلك للرجال ٠٠ عن حبس النساء، والتضييق عليهن، وإكراههن على المعيشة ٠٠ رغبة فى الوصول بالمرأة ودفعها بذلك إلى طلب الخلع، والتنازل عن حقوقها أو بعضها.

إلا فى حالة أن يكون سوء العشرة من جهة الزوجة ٠٠ فيباح فى هذه الحالة : طلب الخلع.

ثم بعد ذلك : يخاطب ربنا تبارك وتعالى الرجال الذين يسيئون فى العشرة والحياة الزوجية إلى نسائهم ٠٠ فيقول سبحانه وتعالى :

{.. وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ..}

أى : عاشروا نساءكم، وعاملوهن بما لا ينكره الشرع ولا المروءة ٠٠ من الإحسان فى النفقة والطيب من القول، وبسط الوجه، والمؤانسة.

فإن كرهتموهن ٠٠ لسوء خلق، أو قبح وجه، أو غير ذلك : فلا تفارقوهن، واصبروا عليهن ٠٠ فلعل الله يدخر لكم فيما تكرهونه وتصبرون عليه خيراً كثيراً عما تتوقعونه فيما تحبون.

*****

ثم يبين ربنا – عز وجل – حكماً آخر من أحكام الإسلام فى الأحوال الشخصية ٠٠
فيقول سبحانه وتعالى :

{ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً }
[الآية ٢٠]

يعنى : إن أراد الواحد منكم يا معشر المسلمين تطليق امرأة والزواج بأخرى ٠٠ وقد أعطيتم من أردتم طلاقها مالاً كثيراً عى سبيل المهر والصداق لها : فلا تأخذوا وتستردوا منها شيئاً من هذا المال ٠٠ حيث لا يحل لكم ذلك ٠٠ ولو فعلتم ذلك وأخذتم منه شيئاً : كان هذا ذنباً واضحاً، وإثماً فاحشاً.

{ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا }
[الآية ٢١]

أى : لا يليق بكم أن تأخذوا منهن شيئاً ٠٠ إذ كيف وبأى وجه تأخذونه وقد حدث بينكم ما حدث من الخلوة والجماع وغير ذلك مما يكون بين الزوجين ٠٠؟

كما أنه كيف يأخذ الواحد منكم ما أعطاه لامرأته من المهر ٠٠ وقد أخذ الله لهن عليكم عهداً وميثاقاً شديداً، مقتضاه : الإمساك بمعروف، أو التسريح لهن بإحسان ٠٠؟

يا ألله ٠٠!! منتهى الشفقة بالمرأة المسلمة، والحفاظ عى حقوقها.

*****

ونأتي الآن – أيها الإخوة والأخوات – إلى حكم جديد من أحكام الإسلام ٠٠ يتعلق بالنساء أيضاً.

حيث يقول ربنا تبارك وتعالى :

{ وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاء سَبِيلاً }

[الآية ٢٢]

وهذا شروع من المولى سبحانه ٠٠ فى بيان من يحرم نكاحهن من النساء.

وفى هذه الآية : تحريم ونهى عن نكاح زوجة الأب وإن علا ٠٠ أى الأب والجد ووالد الجد ٠٠ إلخ.

وسواء أكان الأب من النسب، أو من الرضاع : فالحكم واحد.

وأما ما سبق وحدث قبل هذا التشريع وهذا الحكم : فإنكم لا تؤاخذون به.

والسبب فى ذلك ٠٠

{.. إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاء سَبِيلاً .. }

أى : أن زواج الأبناء لزوجات الآباء – كما كان فى الجاهلية – كان أمراً قبيحاً، وممقوتاً من الله تعالى ٠٠ حيث لم يرخص به أبداً لأمة من الأمم.

وقد اجتمعت فيه مراتب القبح الثلاث ٠٠ وقد أشار إليها المولى سبحانه فى الآية.

حيث إن قوله فاحشة يشير إلى مرتبة القبح العقلى، وقوله ومقتاً القبح الشرعى، وقولهوساء سبيلاً القبح الواقعى ٠٠ وما اجتمعت فيه هذه المراتب : فقد بلغ أقصى درجات القبح.

*****

وبعد أن بين الله تعالى حرمة نكاح نساء الآباء، وقبحه، ونفّر منه، ونهى عنه ٠٠

يذكر سبحانه وتعالى النساء المحرمات الباقيات فيقول عز وجل :

{ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا }

[الآية ٢٣]

وهؤلاء سبع من النسب : يحرم على الرجل الزواج بهن .
وهن :

١- الأمهات ٠٠ والجدات من قبل الأم أو الأب.
٢- البنات ٠٠ وبنات الابن وبنات البنت.
٣- الأخوات ٠٠ شقيقات، أو لأم، أو لأب.
٤- العمات ٠٠ شقيقات للأب، أو لأم، أو لأب.
٥- الخالات ٠٠ شقيقات للأم، أو لأم، أو لأب.
٦- بنات الأخ ٠٠ الشقيق، أو لأم، أو لأب.
٧- بنات الأخت ٠٠ الشقيقة، أو لأم، أو لأب.

أيضاً : يحرم على الرجل الزواج من سبع من النساء للسبب وهن :

{..وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ
إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ .. }

وهؤلاء المذكورات فى الآية : ست من النساء فقط يحرم على الرجل الزواج بهن للسبب .
بقيت واحدة : يأتى ذكرها فى الآية التالية.
وهؤلاء الأصناف الستة من النساء المحرمات للسبب ٠٠ هن:
١ ، ٢ - أمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة.

ويقول الحبيب صلى الله عليه وسلم يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب.
٣ - وأمهات نسائكم دخلتم بهن، أو عقدتم عليهن فقط؛ حيث إن العقد على البنات يحرم الأمهات، وليس العكس.
٤- وربائبكم اللاتى فى حجوركم ٠٠ الآية .
أى : بنت المرأة من غير زوجها، إذا كانت فى حضانته، وقد دخل بأمها، أو عقد عليها ولا تزال فى ذمته.
فإن لم يكن قد دخل بأمها، أو عقد فقط وطلقها قبل الدخول : فلا حرج عليه أن يتزوجها.
٥- زوجة الابن.

٦- والأختين ·· حيث يحرم أن يجمع الرجل بين الأختين إلا ما قد سلف، وحدث قبل تشريع هذا التحريم ·· فقد عفا الله عنه.

* * *

أيها الأحبة ··
لاحظوا الكرم الإلهى العميم ··
إذّ يذكر المولى عفوه العام ورحمته الشاملة ·· بعد عفوه الخاص.
حيث يقول بعد أن بين عفوه عما سلف من الجمع بين الأختين الذى كان يحدث من البعض فى الجاهلية :

{.. إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا }

أى : غفر الله لكم فى كل ما كنتم تفعلونه قبل أن يُنزل لكم هذا التشريع.
ورحمكم – كذلك – بهذا الشرع، الذى لم يحرم عليكم إلا ما فى تحريمه رحمة بكم، وحكمة بالغة ·· تستفيدون بها فى دنياكم وآخرتكم.

*****

وبقيت واحدة : يحرم على الرجل الزواج منها للسبب أيضاً.
وهى المذكورة فى قوله عز وجل :

{ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا }
[الآية ٢٤]

أى : وحرم عليكم أيضاً المحصنات من النساء، وهن ذوات الأزواج، بسبب أنهن أحصنّ فروجهن بالزواج.
ولا يحل لكم أن تنكحوهن إلا بعد مفارقة أزواجهن لهن.
غير أنه : يحل لكم من ذوات الأزواج ·· النساء،اللاتى ملكتموهن بالسبى، وأزواجهن فى دار الحرب، وذلك بعد استبراء أرحامهن.
هذا ··
وبعد أن ذكر الله تعالى – أيها الأحبة فى الله – المحرمات من النسب، أو السبب ··
قال عز وجل :

{.. كِتَابَ اللّهِ عَلَيْكُمْ ..}

أى : هذا ٠٠ ما كتبه الله عليكم وفرضه؛ فالزموا فرضه، ولا تخرجوا عن حدوده، واتبعوا ما شرعه لكم، وفرضه عليكم.

وأما ما عدا هذه المذكورات من النساء المحرمات للنسب، أو للسبب : فهذا حكمه:

{.. وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ .. }

يعنى : أنه حلال لكم أن تتزوجوا من النساء الباقيات غير الأصناف التى ذكرت ما شيءتم من الزوجات إلى الأربع، بشرط أن تدفعوا إليهن من أموالكم مهورهن، وأن تقصدوا بهذا الزواج الإحصان والعفاف، وليس السفاح وهو الزنى.

ويلاحظ : أن ذكر الأموال هنا ٠٠ للتدليل على أن النكاح لا يكون إلا بمهر، وأن يكون الزواج للإحصان؛ لئلا تضيعوا أموالكم فيما لا يحل، فتكون الخسارة لكم فى دينكم ودنياكم.

وعلى ذلك :

{.. فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً .. }

أى : نكحتموه منهن فآتوهن مهورهن مقابل ذلك النكاح والاستمتاع.

وذلك : كقوله تعالى: {فكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ...} [النساء : ٢١] .

وقوله تعالى: {وآتوا النساء صدقاتهن نحلة} [النساء : ٤] .

وقوله تعالى: {ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيموهن شيئاً} [البقرة : ٢٢٩].

ومعنى هذا : أن هذه المهور ٠٠ فريضة، فرضها الله عليكم عند الزواج من النساء.

ثم يقول ربنا تبارك وتعالى بعد ذلك :

{٠٠ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ٠٠ }

أى : أنه بعد أن استقر أمر هذه الفريضة ٠٠ لا إثم عليكم فيما تراضيتم به فيما بينكم بخصوص هذا المهر .

كأن تتنازل المرأة عن بعض مهرها، أو عن كله لزوجها.

أو أن يزيد الزوج فى المهر لزوجته، عما اتفقنا عليه أولاً.

{٠٠ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا }

أى : عليماً بما خلق، عليماً بما شرع لخلقه، حكيماً فيما خلق، حكيماً فيما شرع وفرض.

ومن ذلك : ما شرعه من عند النكاح، الذى به تحفظ الأنساب، ويبقى النسل، وتسعد المرأة والرجل، وما فرضه من المهور والإحصان، إعزازاً للمرأة، وصيانة وطهرا للمجتمع.

*****

أيها الأحبة فى الله ٠٠
بعد أن بين ربنا عز وجل للرجال ما حرم عليهم من النساء ٠٠
وكذلك بعد أن بين ما أحل للمستطيع منهم أن يتزوجهن من السناء الحرائر٠٠
بقى فريق من الرجال ٠٠ لا يستطيع لعدم قدرته المالية أن يتزوج من هؤلاء النساء الحرائر ٠٠
فماذا يفعل هذا الفريق، وهو يرغب فى النكاح، وإحصان نفسه ٠٠؟
يقول تعالى لهؤلاء :

{ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[الآية ٢٥]

أى : له فى هذه الحالة ٠٠ أن يتزوج من الإماء المؤمنات اللائى يملكهن المؤمنون.
ولأن موضوع الإيمان هذا : لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى وحده ٠٠
فقد قال سبحانه :

{٠٠ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ٠٠}

أى : فلينكح بعضكم من بعض الفتيات المؤمنات، اللاتى يعلم الله وحده إيمانهن؛ حيث إن هذا الإيمان هو أشرف وجوه التناسب بينكم، ولا ينبغى أن يكون الرق بالنسبة لهن – مع وجود الإيمان – منفراً لكم عن الزواج منهن.
ومع هذا ٠٠
فهناك أمور هامة ينبغى مراعاتها فى هذا الزواج.
نراها فى قول ربنا عز وجل، حيث يقول :

{.. فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ .. }

وهنا نرى – أيها الإخوة – أن الله عز وجل قد اشترط على من لم يستطع الزواج من النساء الحرائر، ورغب فى الزواج من الإماء المؤمنات عدة شروط :

أولها : أن يكون هذا النكاح بموافقة أهلها وإذنهم، والأهل هنا : هو سيدها ومالكها فانكحوهن بإذن أهلهن.

ثانيها : أن يدفع مهرها، على الوجه المتعارف عليه بينهم، والذى به تطيب النفوس، من غير مماطلة، أو تسويف، أو نقصان وآتوهن أجورهن بالمعروف.

ثالثهما : أن يكون زواجاً شرعياً، بهدف الإحصان والعفاف، وليس بغرض الزنا، جهراً أو سراً محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخذان.

وبهذا : فرض الله فى نكاح الإماء ٠٠ مثلما فرض فى نكاح الحرائر من الإحصان والعفة، لكل من الزوجين.

كما رفع الإسلام : شأن الفتيات المؤمنات، وساوى بينهن وبين الحرائر، وجعل التفاضل بالإيمان، إذ رُبّ أمة أكمل إيماناً من حرة، فتكون عند الله أفضل منها إن أكرمكم عند الله أتقاكم [الحجرات : ١٣].

ومع ذلك :

فإذا زنت الأمة بعد هذا الإحصان، وبعد هذا التكريم : فعليها العقاب.

يقول عز من قائل :

{.. فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ... }

يعنى : أن الإماء إذا زنين بعد إحصانهن بالزواج ٠٠ فعليهن نصف ما على المحصنات الحرائر من العذاب، وهو العقاب، وهو الحد الشرعى للزنى.

وإذا كان عقاب الحرة التى لم تتزوج هو الجلد مائة جلد ة ٠٠ لقوله تعالى الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة [النور : ٢] ٠٠

فإن حد الأمة : هو النصف من ذلك ٠٠ أى : خمسين جلدة.

ثم يعود ربنا سبحانه وتعالى إلى موضوع الزواج من الإماء : فيبين لنا عطفاً منه تبارك وتعالى علينا٠٠

أن هذه الإباحة للزواج من الإماء بالشروط المذكورة : هى لمن خاف على نفسه الوقوع فى الزنا، وشق عليه الصبر عن الجماع، وخاف مضرة هذه المجاهدة لفداء غريزته.

حيث يقول :

{.. ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ .. }

يعنى : أن نكاح الإماء ٠٠ رخصة لمن خاف الإثم أو الضرر، الذى تؤدى إليه غلبة الشهوة، ومغالبتها.

ومع إباحة هذه الرخصة أيها المسلمون الكرام : فإن عدم الأخذ بها أفضل.

حيث يقول ربنا تقدست أسماؤه :

{.. وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ .. }

أى : وصبركم عن نكاح الإماء ٠٠ خير لكم من نكاحهن.

وهذا : حث وتشجيع على عدم استعمال هذه الرخصة إلا فى أضيق الحدود.

والسبب فى ذلك : ما فيه من تربية قوة الإرادة، وتغليب العقل على عاطفة الهوى، وعدم تعريض والولد للرق، وخوف فساد أخلاقه ٠٠ إلى غير ذلك من أوجه الضرر.

ورحم الله عمر بن الخطاب رضى الله عنه ٠٠ حيث قال : إذا نكح العبد الحرة ٠٠ فقد اعتق نصفه، وإذا نكح الحر للأمة ٠٠ فقد أرقَّ نصفه.

{.. وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .. }

نعم ٠٠
والله غفور ٠٠ لمن صدرت منه الهفوات، وتاب عن الزلات.
وهو سبحانه رحيم ٠٠ يرفع عن عباده ما فيه مشقة عليهم، ولا يؤاخذهم بعقوبة على ما لا يستطيعونه.

*****

أيها الأحباب فى الله ٠٠
بعد هذا البيان الدقيق، والتفصيل الوافى، فى أمور التشريع ٠٠
يبين ربنا عز وجل : أن له إرادة، وللكفار والفساق إرادة تعارضها تماماً.
فإرادته تعالى : أن يبين ما فيه سعادتنا فى الدنيا والآخرة، من الحلال والحرام، على نحو ما تم ذكره وبيانه، منذ قليل، وأن يدلنا – كذلك – على الطرائق الحميدة، التى اتبعها من قبلنا من الأنبياء، والمرسلين، والشهداء، والصالحين، وأن يطهرنا من ذنوبنا بتوبته علينا، وأن يظهر لنا حكمته فى شرعه وقدره وأقواله وأفعاله، سبحانه وتعالى.
أما إرادة الكفار والفساق، ممن يتبعون الشهوات : فهى أن تنحرف انحرافاً كبيراً عن الصراط المستقيم.
كل هذا ٠٠ فى قوله تعالى :

{ يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا * يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا }
[الآيات ٢٦ – ٢٨]

والمعنى :
يريد الله ليبين لكم ما هو خفى عليكم ٠٠ من مصالحكم، وأفضل أعمالكم بما شرعه لكم من الأحكام، فى هذه السورة، وغيرها.
ويهديكم سنن الذين من قبلكم من الأنبياء والصالحين؛ لتهتدوا بها فى دينكم، وحياتكم، اقتداءً بهم، وبسلوكهم، وسيرتهم.
ويتوب عليكم أى : يوفقكم للتوبة من ذنوبكم وأخطائكم، وضعفكم.
والله عليم حكيم عليم بمصالح عباده، حكيم فيما شرع لهم.
هذا ٠٠
والله يريد أن يتوب عليكم أى : فى الوقت الذى يريد الله سبحانه وتعالى أن يزكى نفوسكم بما شرع لكم، وأن يطهركم بما أمركم به ونهاكم عنه ٠٠

ويريد الذين يتبعون الشهوات من الفساق، والفجرة والكفار.

أن تميلوا ميلاً عظيماً أى : أن تميلوا عن الحق إلى الباطل، وعن الهوى إلى الضلال، وتنحرفوا عما أنتم فيه انحرافاً لا تقوم لكم بعده قائمة.

يا أيها الناس ٠٠ يا أهل الدنيا كلها ٠٠

يريد الله أن يخفف عنكم فى شرائعه، وأوامره، ونواهيه، ولم يجعل عليكم فى الدين من حرج أو مشقة، ومن ذلك : ما أباح لكم من الرخص، التى تقتضيها ضرورات حياتكم.

وخلق الإنسان ضعيفاً لا يصبر عن الشهوات، ولا على مشاق الطاعات، ولهذا خفف – سبحانه – عليه بما يناسب ضعفه.

وقد رحم الله عز وجل عباده ٠٠ حيث لم يحرم عليهم إلا ما فى إباحته ضرر كبير، ومفاسد شديدة لهم.

أحبتى فى الله ٠٠

عرفنا – فيما سبق – بيان المولى سبحانه ٠٠

لكيفية معاملة اليتامى وإيتاء أموالهم إليهم عند الرشد.

وكذلك : عدم دفع الأموال إلى السفهاء.

ووجوب دفع المهور إلى النساء، والإنكار على من يأخذها منهن بوجه من الوجوه.

وأيضاً : وجوب إعطاء شيء من أموال اليتامى إلى أقاربهم عند حضورهم قسمة هذا المال.

ولما كان هذا : فى الأموال ٠٠

فإن الله عز وجل : يذكر قاعدة عامة للتعامل فى الأموال بين الناس، تطهيراً للأنفس فى جمع المال، المحبوب لها.

وذلك فى قوله تبارك وتعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا }

[الآية ٢٩]

وبهذا : ينهى الله عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم البعض بالباطل، أى : الحرام.

وهو الذى يأتى من جميع المكاسب غير الشرعية ٠٠ كالنهب، والسرقة، والغضب، والرشوة، والربا، والقمار ٠٠ إلى غير ذلك من كل ما يشبهه.

ويدخل فى ذلك الحرام أيضاً : سائر صنوف الحِيَل، حتى وإن ظهرت فى صورة الحكم الشرعى، فإنه مما لا يخفى على الله نية صاحبها ٠٠ فى أنه يريد أن يحتال.

* * *

ولما كان أكل أموال الناس بينهم بالباطل : فيه نوع هلاك ٠٠

فقد عقب عليه وقرن به – سبحانه وتعالى – النهى عن هلاك آخر أكبر وأعظم.

حيث قال :

{.. وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ .. }

يقول الإمام النسفى عليه رحمة الله : هذا النهى يدخل فيه معان خمسة ٠٠ كلها محرم:

الأول : ولا تقتلوا من كان من جنسكم من المؤمنين؛ لأن المؤمنين كنفس واحدة.
الثانى : لا يقتلن أحدكم نفسه، أى : لا ينتحر.
الثالث : لا تقتلوا أنفسكم بظلم بعضكم بعضاً فى موضوع الأموال؛ حيث إن ظالم غيره ٠٠ كمهلك نفسه.
الرابع : لا تتبعوا أهواء أنفسكم ؛ فتقتلوها.
الخامس : لا ترتكبوا ما يوجب القتل.

ويلاحظ : أن الآية الكريمة تحمل كل هذه المعانى.
ثم يقول ربنا جل شأنه :

{.. إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا .. }

يعنى : إن الله بكم يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ٠٠ كان بكم رحيماً؛ ولذلك : نبهكم على ما فيه صيانة أموالكم، وبقاء أبدانكم.
وبعد ذلك ٠٠ يقول ربنا تبارك وتعالى :

{ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرًا }
[الآية ٣٠]

أى : ومن يرتكب فعل هذا المحرم المذكور.
قيل : من قتل النفس؛ لأنه أقرب مذكور.
وقيل : من قتل النفس، وأكل الأموال بالباطل؛ لأنهما مذكوران فى آية واحدة.
وقيل : من كل ما نهى الله عنه من أول السورة ٠٠ إلى هنا.

نعم ٠٠
كل من يفعل ذلك عدواناً على الغير وظلماً للنفس وللغير : فسوف نصليه ناراً أى : ندخله ناراً مخصوصة، شديدة العذاب.
وكان ذلك على الله يسيراً أى : أن إدخاله النار، وتعذيبه فيها ٠٠ سهل على الله تعالى.
وفى هذا : تهديد شديد، ووعيد أكيد ٠٠
فليحذر منه ٠٠ كل عاقل لبيب.

*****

أحبابنا فى الله تعالى ٠٠
كما وضع الله عز وجل وبين قاعدة عامة ٠٠ للتعامل بين الناس فى الأموال ٠٠
يضع سبحانه وتعالى كذلك : قاعدة هامة ٠٠ بالنسبة للذنوب والخطايا، التى يرتكبها الإنسان.
وذلك فى قوله تبارك وتعالى :

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا ﴾
[الآية ٣١]

يعنى : إذا اجتنبتم ارتكاب الكبائر من الذنوب، وابتعدتم عنها، وفعلتم الطاعات؛ امتثالاً وطاعة لله تعالى فيما نهاكم عنه وأمركم به ٠٠ كفَّر الله عنكم، وغفر لكم ما وقعتم فيه – بحكم بشريتكم – من صغائر الذنوب والخطايا.
وكذلك : يدخلكم الجنة ٠٠
وذلك : لقوله تعالى إن الحسنات يذهبن السيئات [هود : ١١٤] .
وقوله تعالى إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً [الفرقان : ٧٠] .

* * *

هذا ٠٠
وبعد أن نهى الله عباده فى الآية المتقدمة ٠٠ عن أكل الأموال بالباطل، وعن قتل النفس ٠٠
وبعد أن أمرهم – عن طريق الترغيب – بعدم ارتكاب الكبائر ٠٠
ينهاهم عز وجل عما يسهل عليهم تركه.

*****

حيث يقول :

﴿ وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾
[الآية ٣٢]

وفى هذا : دعوة للتسليم بقدر الله تعالى وحكمته، والرضا بعدله ومشيئته؛ حيث فضل البعض على البعض والله فضل بعضكم على بعض [النحل : ٧١].

كما أن فيه نهيا عن التمنى، المؤدى إلى الحسد، بصفة عامة.

ويدخل فيه : نهى الرجال أن يتمنوا ما خص الله به النساء، وكذلك : نهى النساء أن يتمنين ما خص الله به الرجال ٠٠ ومن ذلك : ما خص الله به النساء فى الإرث، وما خص به الرجال فيه.

حتى وإن كان سبب نزول الآية – كما أخرجه الإمام أحمد فى مسنده – من أن أم سلمة رضى الله عنها، قالت : يا رسول الله ٠٠ يغزو الرجال ولا نغزو، ولنا نصف الميراث .

فأنزل الله هذه الآية.

أقول : حتى وإن كان سبب النزول فى أمنيات خاصة ٠٠ فإن العبرة، كما يقول العلماء، بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، مما يساعد على دخول ما ذكرناه فى معنى الآية الكريمة.

ولذلك : يبين الله تعالى ٠٠ أن كلاً من الرجال والنساء مجزى على عمله ونيته بما يستحقه للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن.

وأيضاً : يأمر الجميع، بدلاً من هذا التمنى، أن يتوجهوا إليه وحده، وأن يسألوه من فضله.

حيث يقول :

{.. وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}

أى : اسألوه يعطكم، فإنه واسع الفضل، وتفضيله بعلم، وعطاؤه بعلم ٠٠ فلا تعترضوا على الله تعالى فى فعل أو في حكم.

*****

وبمناسبة الكلام السابق ٠٠ عن عدم أكل أموال الناس بالباطل، وعدم تمنى ما فضل الله به بعض الناس على بعض، وعدم تمنى النساء ما للرجال، والعكس : تأتى قاعدة أخرى.

توضحها هذه الآية الكريمة التالية :

{ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا }

[الآية ٣٣]

أى : لكل من مات من الرجال أو النساء ٠٠ جعلنا موالى – أى : ورثة – يعطون تركته بطريق الميراث، من : بنى عم، وإخوة، وسائر العصبات، يرثون ما تركه الوالدن والأقربون، كل حسب نصيبه المفروض فى شرع الله تعالى.

كذلك :

{.. وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ .. }

قال ابن عباس رضى الله عنه : هذه نزلت فى الذين آخى بينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار، لما قدم المهاجرون المدينة، وكانوا يتوارثون بهذه المؤاخاة، دون النسب والرحم.
فلما نزلت ولكل جعلنا موالى ٠٠ نسختها.

وقيل : نسختها آية الأنفال وأولوا الأرحام بعضهم أولياء بعض [الآية:٧٥].
ثم يقول تعالى :

{.. إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا .. }

فهو : عالم الغيب والشهادة.
وهذا يفيد : أنه عالم بكم، شهيد على عقودكم ٠٠ فوفوا بها، وقوموا بالتزاماتها.
وذلك : أبلغ وعد ووعيد، منه عز وجل.
فإذا كان الله شهيداً على عقودنا : فإنه سبحانه ٠٠ يأجر على الوفاء، ويعاقب على الغدر.

*****

أيها المسلمون الكرام ٠٠
سعد بن الربيع، أحد الصحابة الأخيار، الذين شهدوا بيعة العقبة، وكان أحد نقباء الأنصار فيها.
هذا الصحابى ٠٠ دب الخلاف – ذات يوم – بينه وبين زوجته السيدة حبيبة بنت زيد، فلما تعالت وترفعت عليه : لطمها بيده على وجهها، فغضبت منه، وذهبت إلى أبيها، وهنا : أخذها أبوها، وذهب بها إلى رسول الله صلى الله عيه وسلم وقال له : إن سعدا لطم كريمتى ٠٠ فقال النبى صلى الله عليه وسلم: لتقتص من زوجها، وهمت حبيبة مع أبيها لتنصرف وتقتص من زوجها ٠٠ بناءً على حكم النبى صلى الله عليه وسلم.
وهنا ٠٠ قال النبى صلى الله عليه وسلم : انتظروا ٠٠ فهذا جبريل أتانى.
ونزل جبريل فى هذه اللحظة : بحكم الله تعالى، فى قوله تبارك وتعالى :

{ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا }
[الآية ٣٤]

وهنا ٠٠ قال النبى صلى الله عليه وسلم لهما : أردنا أمراً وأراد الله أمراً، وما أراد الله خير.
وبهذا ٠٠

قررت هذه الآية الكريمة : أن الرجل هو القيِّم على المرأة، فهو رئيسها، والحاكم عليها، والمسئول عنها ٠٠ إذا احتاجت : فهو راعيها، وإذا اعوجت : فهو مؤدبها.

وذلك لسببين :

الأول : لفضل الرجل على المرأة بما فضل الله بعضهم على بعض فى الخصائص والصفات، التى هى نتيجة اختلاف الجسم والوظيفة، مما يترتب عليها اختلاف الأحكام والتكاليف، لكل منهما.

الثانى : بسبب الإنفاق وبما أنفقوا من أموالهم إذّ عليه دفع المهر، وواجب النفقة.

وهذا ٠٠ هو شرع الله ، وحكمه.

والنساء أمام شرع الله هذا صنفان:

الصنف الأول : يقول عنهن رب العزة:

{.. فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ .. }

وعلى ذلك ٠٠

فالصالحات من الزوجات قانتات أى : راضيات بحكم الله، مطيعات لأزواجهن فى غير معصية، قائمات بما عليهن لهم.

وفى الوقت ذاته ٠٠

حافظات للغيب أى : حافظات لغيبة أزواجهن، فهن يحفظن ما يجب عليهن حفظه فى حال غيبتهم، من : الفروج، والبيوت، والأموال، ويدخل فى ذلك: حفظهن لأسرار أزواجهن فى غيبتهم.

كل ذلك :

بما حفظ الله أى : بسبب حفظ الله لهن، وتوفيقه لهن لهذه المحافظة، حيث صبَّرهنّ وأعانهنّ عليها.

وهذا الصنف من النساء ٠٠

يقول عنهن الحبيب صلى الله عليه وسلم : إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها : ادخلى الجنة من أى الأبواب شئت.

وأما الصنف الثانى بالنسبة لشرع الله وحكمه ٠٠ فى موضوع القوامة.

فيقول عنهن رب العزة:

{.. وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ...}

أى : والنساء اللاتى تظنون أنهن يترفعن على أزواجهم تكبراً عليهم، ويُسِئْنَ العشرة – بسبب ذلك – معهم، وتريدون إصلاح حالهن ٠٠

فلكم لإصلاح هذا الوضع من الوسائل ٠٠ ثلاث :

(الأولى) الوعظ فعظوهن بعتاب رقيق، وكلام شفيق، من نحو : لى عليك حق، فاتق الله فيه، واحذرى غضبه وعقوبته ٠٠ إلى غير ذلك، مما يعرف الزوج أنه يؤثر فى زوجته، ويساعد فى إصلاح حالها.

فإن لم تثمر هذه الوسيلة، وعلم يقيناً نشوزها عليه.

فله حينئذ أن يستعمل الوسيلة ٠٠

(الثانية) وهى : الهجر فاهجروهن فى المضاجع أى : لا تدخلوهن تحت الغطاء معكم، وهو كناية عن الجماع، أو هو أن يوليها ظهره فى المضجع، إذ لم يأمر الله تعالى بهجرانهن عن المضاجع. بل قال : فى المضاجع ٠٠ وعلى هذا: فالهجران ٠٠ يكون فى البيت، وفى الفراش.

فإن لم تثمر هذه الوسيلة، فقد تأكد من نشوزها عليه.

وأنه حينئذ : أن يستعمل الوسيلة٠٠

(الثالثة) وهى : الضرب واضربوهن ضرباً غير مبرح، أى : ضرباً رقيقاً لا يكسر عظماً، ولا يعيب عضواً، ولا يترك أثراً.

وإلى هنا ٠٠

يقول رب العزة :

{.. فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً ..}

أى : فإن أطعنكم، وعدلن عن عوجهن وترفعهن – عند أية وسيلة من هذه الوسائل الثلاث، أو بعد هذه الوسائل الثلاث – فقد تحقق المراد، وليس لكم عليهن استعمال أى لون من الإيذاء ٠٠ إذا فلا تبغوا عليهن سبيلاً لتتعرضوا لهن بالأذى.

{.. إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ..}

نعم ٠٠

أيها المؤمنون : إن علت أيديكم عليهن – بعد صلاح حالهن – فاعلموا أن قدرة الله عليكم ٠٠ أعظم من قدرتكم عليهن.

وعلى ذلك : فاجتنبوا ظلمهن، واحذروه أن يعاقبكم إن ظلمتموهن.

*****

هذا ٠٠

وبعد أن عالج المولى سبحانه جانباً من الخلافات الزوجية ٠٠ كان السبب فيه من جانب المرأة ٠٠

يعالج الرءوف الرحيم؛ جانباً آخر : يكون الخلاف منهما معاً ٠٠

حيث يقول عز وجل :

{ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا }

[الآية ٣٥]

والخطاب هنا : لأولياء أمور المسلمين، وقضاتهم.

والمعنى : إن علمتم أيها الولاة والقضاة نزاعاً وخلافا بين الزوجين، ولم تعرفوا من المتسبب فى هذا الشقاق.

فابعثوا إليهما ٠٠ أى : الزوجين.

حكماً من أهله وحكماً من أهلها للإصلاح بينهما، حيث إن الأقارب أعرف ببواطن الأمور، وأحفظ للأسرار، وأكثر حرصاً على الإصلاح، ونفوس الزوجين أسكن إليهم.

بشرط : أن يكونا ٠٠ أى الحكمين، صالحين، عاقلين، حكيمين، عدلين.

كما أنهما ٠٠

إن يريدا إصلاحاً لذات البين، وكانت نيتهما صادقة فى الإصلاح.

يوفق الله بينهما أى : يوفق الله بين هذين الزوجين، ببركة هذين الحكمين، وصدق نيتهما، وإخلاصهما فى مسعاهما.

وبذلك : يزول عن هذين الزوجين الشقاق والخلاف، ويؤلف الله بين قلبيهما، ويبدلهما بهذا النزاع ٠٠ ألفة ومودة ومحبة.

ثم يقول الحكيم الخبير :

إن الله كان عليماً خبيراً أى : عليماً بإرادة الحكمين، وما فى نيتهما، خبيراً بالظالم والمظلوم من الزوجين.

وفى هذا : وعد للمخلص من الحكمين بالخير على إخلاصه، ووعد للمظلوم من الزوجين على صبره على الآخر، وتنازله عن حقه.

كما فيه : من الوعيد لغير المخلص من الحكمين بالعقاب على عدم صدقه فى الإصلاح، وعدم صفاء نيته، ووعيد – كذلك – للظالم من الزوجين على ظلمه للآخر، مستغلاً براعة عرضه لحجته، وضعف الطرف الآخر فى مواجهته.

*****

أيها الأحبة فى الله ٠٠

بعد أن بين ربنا عز وجل ٠٠ الأحكام المتعلقة بالمال، والنفس، والمرأة ٠٠

وكذلك : بعد أن بين الأحكام المتعلقة بالزوجين، وخلافاتهما ٠٠

يبدأ فى بيان الأحكام المتعلقة بالوالدين والأقارب ونحوهما، مصدراً ذلك بما يتعلق بحقوق الله تعالى ، التى هى آكد الحقوق وأهمها، وأعظمها.

حيث يقول تبارك وتعالى :

{ وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا }

[الآية ٣٦]

يأمر ربنا سبحانه وتعالى عباده ٠٠ بعبادته وحده، لا شريك له، فهو : الخالق، الرازق، المنعم، المتفضل على خلقه.

لذا : فهو المستحق أن يوحدوه.

واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً

هذا : هو الأمر الأول، والواجب الأهم، وهو : معرفة الله، وتوحيده، وطاعته، وعدم الشرك به – فى شأن ألوهيته وربوبيته – بشراً، أو حجراً، أو كوناً، أو طبيعة، أو مجتمعاً، أو غير ذلك.

يقول صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل : أتدرى ما حق الله على العباد ٠٠؟.

قال : الله ورسوله أعلم.

قال : أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً.

ثم قال : أتدرى ما حق العباد على الله ٠٠ إذا فعلوا ذلك ٠٠؟ أن لا يعذبهم.

قالوا : وعلامات العبودية الصادقة ٠٠ أربعة : الوفاء بالعهود، والرضى بالموجود، والحفظ للحدود، والصبر على المفقود.

وبالوالدين إحساناً أى : وأحسنوا بهما ولهما إحساناً، ليس فوقه إحسان، فى القول والفعل، والبر بهما، ولين الجانب معهما، والإنفاق عليهما عند الاحتياج.

وبذى القربى أى : أحسنوا بكل من كان بينكم وبينه صلة قرابة، من : أخ، أو أخت، أو عم، أو خال، أو خالة، أو غير ذلك.

واليتامى والمساكين يعنى : وأحسنوا باليتامى والمساكين.

والجار ذى القربى أى : وأحسنوا بالجار، الذى قرب منكم جواره، أو بالجار الذى قرب منكم نسباً.

والجار الجنب أى : وأحسنوا بالجار، الذى بعد جواره، أو الجار الأجنبى عنكم قرابة.

والصاحب بالجنب أى : وأحسنوا بالصاحب، الذى يرافقكم فى سفر، أو يشارككم فى تجارة، أو طلب علم، وتدخل فى ذلك : الزوجة، بالطريق الأولى.

وابن السبيل أى : وأحسنوا إلى الغريب، أو الضيف.

وما ملكت أيمانكم أى : وأحسنوا إلى عبيدكم وإمائكم، ويدخل فى ذلك : الأمر بالإحسان إلى خدمكم، وعمالكم.

وبطبيعة الحال : سيوجد فى الناس من لا يعير هذه الأوامر اهتماماً، أنفة وغروراً.

وهذا يطرده الرحمن الرحيم ٠٠ من رحاب محبته.

يقول سبحانه :

{.. إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا .. }

أى : لا يحب ربنا عز وجل :

المتكبر ٠٠ الذى يأنف عن قرابته، ويبتعد عنهم، ويتنصل منهم، ولا يلتفت إليهم بمودته، وعطفه وإحسانه.

وكذلك ٠٠ المتكبر على جيرانه، وأصحابه، وخدمه، وعماله.
كما لا يحب ربنا عز وجل :
المتفاخر ٠٠ الذى يعدد مناقبه، وأمجاده، ومواهبه، و٠٠٠و٠٠٠٠ إلخ كبراً، وتيها، وغروراً على غيره من الناس.
وذلك : لأن المختال الفخور ٠٠ يرى نفسه خير من الناس، فهو فى نفسه كبير، وهو عند الله حقير، وعند الناس بغيض ٠٠ إذ يفخر على الناس بما أعطاه الله من نعمه، وهو قليل الشكر لله على ذلك.

*****

وقد وصف ربنا عز وجل ٠٠ هؤلاء بالبخل، وأكثر منه.
حيث قال عنهم :

{ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا }
[الآية ٣٧]

هؤلاء : يجحدون نعم الله عليهم، ولا يظهرونها، لا فى العطاء، ولا فى الشكر عليها.
بل : يبخلون بما فى أيديهم، وبما في أيدى الناس، فيأمرونهم بأن يبخلوا به كرهاً منهم للسخاء .

ولذا قيل : البخيل ٠٠ الذى يأكل بنفسه، ولا يؤكل غيره.
والشحيح ٠٠ الذى لا يأكل بنفسه، ولا يؤكل غيره.
والسخى ٠٠ الذى يأكل نفسه، ويؤكل غيره.
والجواد ٠٠ الذى لا يأكل ، بل يؤكل غيره؛ إيثاراً.
فهم بخلاء أشحاء، يكرهون الجود والسخاء.

وفوق ذلك : فهم يكتمون ويخفون ما أنعم الله عليهم به من المال، وسعة الحال، والصحة، و٠٠٠٠٠ وغير ذلك.
هذا ٠٠
ولأن هذه الأوصاف المذكورة ٠٠ من : البخل، وأمر الناس بالبخل، والكتمان لفضل الله تنطبق أكثر ما تنطبق على اليهود الذين كانوا يقولون للأنصار – في المدينة – لا تنفقوا أموالكم على محمد – صلى الله عليه وسلم – فإنا نخشى عليكم الفقر ٠٠ وهذا كفر منهم ٠٠
كما تنطبق على من شايعهم وتشبه بهم ٠٠ وهذا يؤدى إلى الكفر ٠٠
فقد قال الحكيم العليم :

{.. وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ..}

أى : هيأنا وأعددنا للكافرين عذاباً يؤلمهم ويهينهم فى الآخرة.

*****

ثم يصف الله تعالى هؤلاء الكافرين، بقوله سبحانه :

{ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَـاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قِرِينًا }
[الآية ٣٨]

وهذا : خلق من أخلاقهم، إضافة إلى ما سبق بيانه عنهم، فهم ·· إذا أنفقوا أموالهم، كان ذلك رياءً للناس، حيث إنهم يريدون بهذا الإنفاق ·· السمعة، والمدح من الناس لهم بالكرم، ولا يريدون بذلك وجه الله.
كما أنهم – وهذا هو السبب الحقيقى لبخلهم وريائهم – لا يؤمنون بالله، ولا يؤمنون باليوم الآخر.
ثم يبين رب العزة ·· ما حملهم على هذا الصنيع.
حيث يقول :

{.. وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قِرِينًا ..}

إذاً : هو الشيطان ، الذي سوّل لهم، وزين لهم أفعالهم، وأملى لهم، وحسن القبائح فى عيونهم وعقولهم.
ومن كان الشيطان صاحبه ·· فقد ساء صاحباً وقريناً.

* * *

وبعد هذا البيان ··
يقول عنهم رب العزة سبحانه :

{ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِم عَلِيمًا }
[الآية ٣٩]

أى : ماذا يضيرهم ·· لو آمنوا بالله واليوم الآخر، بدل هذا الكفر، الذى وقعوا فيه ··؟
ماذا يضيرهم ·· لو سلكوا الطريق الحميدة، وعدلوا إلى الإخلاص، بدل هذا الرياء، الذى خدعهم به الشيطان ··؟
ماذا يضيرهم ·· لو جعلوا رجاءهم نوال موعود الله تعالى، لمن يحسن عمله، فى الدار الآخرة، وأنفقوا مما رزقهم الله فى الوجوه التى يحبها ربنا ويرضاها ··؟

خاصة ٠٠

وأنه – عز وجل – عليم بنياتهم الصالحة والفاسدة، ومطلع عليهم، وعالم بكل أحوالهم.

وفى هذا ما فيه : من التهديد، والوعيد، إن لم يؤمنوا، وإن لم ينفقوا.

****

هذا ٠٠

وبعد أن أمر ربنا سبحانه وتعالى : بعبادته وحده، وبالإحسان للوالدين ومن ذكر معهم ٠٠

وبعد أن ذم البخل، والأوصاف المذكورة معه ٠٠

وبعد أن وبخَّ من لم يؤمن، ولم ينفق فى طاعة الله ٠٠

وكان ذلك كله : يستلزم ذكر الجزاء على الحسنات والسيئات ٠٠

لذا ٠٠ أخبر تعالى بصفة عدله فى الجزاء ٠٠ قائلاً :

{ إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا }
[الآية ٤٠]

أى : لا يظلم الله أحداً من خلقه يوم القيامة مثقال ذرة، ولا أصغر من ذلك، بل يوفيها له، كما يضاعفها ويزيد عليها الثواب ٠٠ إن كانت حسنة، وفوق ذلك : يؤته من فضله أجراً عظيماً، وهو الجنة.

* * *

ولأن هذا الجزاء ٠٠ يكون فى يوم القيامة.

يبين ربنا عز وجل ٠٠ بعضاً من هول يوم القيامة ٠٠

حيث يقول :

{ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـؤُلاء شَهِيدًا }
[الآية ٤١]

أى : كيف يصنع هؤلاء الكافرون، فى يوم الجزاء، إذا جئنا من كل أمة بشهيد، وهو نبيهم، يشهد عليهم بما فعلوه ٠٠؟

وكيف يصنع هؤلاء الكافرون، فى يوم الجزاء، إذا جئنا بك يا محمد شهيداً على أمتك، من آمن منهم بالإيمان، ومن كفر بالكفر، ومن نافق بالنفاق ٠٠؟

أو شهيداً على الأنبياء بأنهم بلغوا أقوالهم ، وعلى أممهم ، بل على جميع الأمم، من استجاب منهم لنبيه، ومن كفر.

حقاً ..

هذا يوم رهيب، هوله شديد، وأمره عصيب.

* * *

{ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا }
[الآية ٤٢]

فى هذا اليوم : يتمنى الذين كفروا بالله، وعصوا الرسول صلى الله عليه وسلم، ونبذوا تعاليمه، ورفضوها .. لو أن الأرض انشقت وبلعتهم؛ من هول ما يرون، من : أهوال الموقف، وما يحل بهم من الخزى والفضيحة، والتوبيخ.

يومئذ : لا يقدرون على كتمان أى شيء مما فعلوه؛ لأن جوارحهم تشهد عليهم بكل ما فعلوه ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون * وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين [فصلت : ١٩-٢٣].

*****

أيها الأحبة فى الله ..

بعد الأمر الإلهى بالعبادة ..

وبعد التذكير بمشهد من مشاهد يوم القيامة ..

يأتى النهى عن الصلاة فى حال السكر؛ لأن الصلاة جزء من العبادة، ومن الطبيعى : أن العبادة التى تحقق المراد .. هى العبادة الواعية الخاشعة.

ولذلك يقول رب العزة :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا }
[الآية ٤٣]

وسبب هذا النهى ..

ما روي : أن عبد الرحمن بن عوف .. صنع طعاما، ودعا أناساً من الصحابة إليه، فطعموا، وشربوا، قبل أن ينزل تحريم الخمر.

وحضرت صلاة المغرب: فتقدم بعض القوم، فصلى بهم المغرب، وقرأ قل يا أيها الكافرون فأخطأ فيها – بسبب السكر – ولم يقمها.

فأنزل الله هذه الآية.

فكانوا – بعدها – قد يشربون فى أوقات الصلوات، فإذا صلوا العشاء شربوها، فلا يصبحون إلا وقد ذهب عنهم السكر، وعلموا ما يقولون.

ثم نزل تحريمها على الإطلاق – بعد ذلك – فى سورة المائدة.

ومعنى الآية : لا تصلوا وأنتم فى حالة سكر، حتى تعلموا ما تقولون، فتفهموا ما تقرءون، فتخشعوا لله فى صلاتكم.

وإذا كان هذا نهى عن قربان الصلاة فى هذه الحالة ..

فقد تبعه فى الآية نهى آخر عن قربان موضع الصلاة بسبب آخر.

يقول تعالى :

{.. وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ .. }

أى : ولا تقربوا المساجد، وأنتم جنباً إلا عابرى سبيل، إلا مارين منها، لعدم وجود مكان تعبرون منه سواها، أى : للضرورة فقط، من غير مكث وبقاء فيها، وأنتم فى حال الجنابة.

ثم يذكر ربنا عز وجل حالات أخرى من حالات الضرورة.

فيقول :

{..وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا .. }

وهذا – أيها الكرام – من باب التيسير فى العبادة.

ومعنى الآية :

وإن كنتم مرضى بمرض يضر الإنسان استعمال الماء معه.

أو على سفر أى : مسافرين، وأصابتكم جنابة، أو حدث أصغر.

أو جاء أحد منكم من الغائط وهو المكان المعد لقضاء الحاجة، وقد قضيتم حاجتكم.

أو لامستم النساء وهو كناية عن الجماع.

أى : إن كنتم فى حالة من هذه الحالات الثلاث : وأردتم الصلاة.

فلم تجدوا ماءً تتطهرون به، من الحدث الأكبر أو الأصغر، لعدمه، أو بعده، أو لمانع منه، إضافة إلى حالة المرض.

فتيمموا أى : فاقصدوا بعد دخول وقت الصلاة.

صعيداً طيباً أى : تراباً طهوراً.

واضربوا بأيدكم عليه ضربتين، بنية "التيمم".

فامسحوا بوجوهكم بواحدة وأيديكم مع المرفقين بالضربة الأخرى.
إن الله كان عفواً بهذه الرخصة، وهذا التيسير.
غفوراً عن الخطأ، والتقصير.

*****

وبعد وضوح هذه الأحكام الميسرة فى شريعتنا الإسلامية :
يوضح الله الرؤيا للمتقين، بطبائع أهل الكتاب، ومواقفهم، كى لا نغتر بهم، بل يحذر فيها من موالاتهم.
فيقول عز من قائل :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ }
[الآية ٤٤]

وهذا : تعجيب للمؤمنين من أحبار اليهود، وهم الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، أى : التوراة.
حيث إنهم يفضلون الضلالة على الهدى، ويعرضون عما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم.
كما أنهم : يودون لو أنكم تكفرون بما أنزل عليكم أيها المؤمنون، وتتركون ما أنتم عليه من الهدى، والعلم النافع، ويبذلون لتحقيق ذلك كل الوسائل.
ونظرة إلى واقع أهل الكتاب الحالى نرى أن خصائصهم السيئة هذه مستمرة ومستقرة.
ولكن ٠٠ من نعم الله على المسلمين أنه يعلم أعداءهم، ويكفيهم شرورهم، لو أنهم تمسكوا بدينهم، معرفة وتطبيقاً.
حيث يقول :

{ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا }
[الآية ٤٥]

أى : أن الله أعلم بأعدائكم، ومدى عداوتهم لكم ٠٠ فاحذورهم، ولا توادوهم، ولا تستنصحونهم فى أموركم.
وكفى بالله ولياً فى الدفع عنكم، ورد كيدهم إلى نحورهم.
وكفى بالله نصيراً فثقوا بولايته لكم، واعتمدوا عليه وحده، والتزموا بشرعه، ينصركم عليهم، وكفى به لكم نصيراً.

*****

وإليكم أيها المسلمون بعض أفعالهم وطباعهم.

{ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً }

[الآية ٤٦]

أى : من اليهود ‥ فريق.
يحرفون الكلم أى : يغيرون الوصف الذى أنزل الله فى التوراة لمحمد صلى الله عليه وسلم.
عن مواضعه التى وضع عليها، ونزل فى التوراة بها.
ويقولون للنبى صلى الله عليه وسلم، إذا أمرهم بشيء :
سمعنا قولك وعصينا أمرك.
ثم يدعون عليه، مستهزئين به، قائلين :
واسمع غير مسمع أى : اسمع لا سمعت ‥ وهى كلمة تحتمل أمرين :

الأول : اسمع حال كونك لا تسمع أصلاً لصمم أو موت.
الثانى : اسمع منا لا سمعت مكروهاً.

وكانوا يظهرون المعنى الثانى، ويضمرون الأول.
و كانوا يقولون له صلى الله عليه وسلم أيضاً :
راعنا وهى كلمة سب بلغتهم العبرانية أو السريانية.
وهى كلمة – أيضاً – تحتمل أمرين :
الأول : بمعنى ‥ السب فى لغتهم.
والثانى : بمعنى ‥ ارقبنا وانتظرنا بكلمك.
وكانوا يظهرون المعنى الثانى، ويضمرون الأول.
مع أن هذا المعنى الذى كانوا يقصدونه منهى عنه، فى قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا [البقرة : ١٠٤].
و مع ذلك ‥ لو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم.
ولكن طبيعتهم فاسدة، وأخلاقهم رديئة، وعقيدتهم كافرة.
لعنهم الله بكفرهم أى : طردهم من رحمته بسبب كفرهم.
فلا يؤمنون إلا قليلاً .

****

هذا ‥

وبعد أن ذكر الله للمسلمين ٠٠ ألواناً من مكر اليهود، وسوء طبعهم، وشدة عداوتهم ٠٠
يتوجه ربنا عز وجل بالخطاب لليهود أنفسهم ٠٠ آمرًا لهم بالإيمان، مهددًا لهم بشديد العقاب.
حيث يقول :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً }
[الآية ٤٧]

أى : آمنوا أيها اليهود بالقرآن المصدق للتوراة، فيما جاءت به من أصول الدين.
من قبل أن نعاقبكم على كفركم ومكركم، بواحدة من أمرين، أو بالأمرين معاً :
الأول : أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أى : نمحو ما فى الوجوه ٠٠ من العين، والأنف، والفم، وغير ذلك، فتصير كالقفا، لا يعرف لهم أمام من خلف، أو نحول ما فى الأمام بعد طمسه إلى الخلف، وما فى الخلف إلى الأمام.
الثانى : أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت أو نمسخهم قردة وخنازير كما مسخنا أصحاب السبت، الذين خالفوا أوامرنا.
وهذا ٠٠ تهديد لهم من الله تعالى ، بوقوع العذاب عليهم، وما يريده الله تعالى لا راد له.
وكان أمر الله أى : قدره ، وإرادته مفعولاً أى : واقع لا محالة.

*****

ولما كان اليهود – أيها الأحبة الكرام – يفعلون ما يفعلون من التحريف، والكذب على الله، وغير ذلك، ويطمعون فى مغفرة الله لهم، كما فى قوله تعالى فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا [الأعراف : ١٦٩] ٠٠!!
فقد هددهم الله سبحانه وتعالى، مبيناً أنه لن يغفر لهم مع كفرهم وشركهم.
حيث قال :

{ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا }
[الآية ٤٨]

والمعنى : أن الله لا يغفر لمن مات على الشرك أبداً، أما ما دون الشرك : فالله يغفر جميع الخطايا والذنوب، لمن يشاء من عباده.
و لهذا من يشرك الله فقد كذب كذباً شنيعاً، وافترى إثماً عظيماً يستحق به عذاباً أليماً.
والعجيب ٠٠ أن اليهود لما نزلت هذه الآية.
قالوا : لسنا مشركين، بل نحن أبناء الله وأحباؤه [المائدة : ١٨].

وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى [البقرة : ١١١].
وقالوا : إن آباءنا كانوا أنبياء، فسيشفعون لنا.
والأعجب ٠٠ أن اليهود ما يزالون يعيشون فى أوهامهم هذه إلى اليوم، حيث يدعون أنهم "شعب الله المختار".
ولذلك ٠٠ يتندر الله بهم، ويعجب من أقوالهم.
حيث يقول عنهم :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاء وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً }
[الآية ٤٩]

أى : أرأيت هؤلاء الذين يمدحون أنفسهم، وهم اليهود ٠٠ إنه لأمر عجيب ٠٠!!
على كل حال : ليست العبرة بتزكيتهم لأنفسهم، بل العبرة بتزكية الله لمن يشاء من عباده الصالحين، الذين يوفيهم أجورهم كاملة ولا يظلمون فتيلاً ولا ينقصون منها أدنى شيء، ولو كان مثل ما فى شق النواة؛ لأنه سبحانه العالم بمن هم أهل تزكيته وثوابه.

{ انظُرْ كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا }
[الآية ٥٠]

انظر أيها المؤمن، وتعجب من حالهم ٠٠ وكيف أنهم يفترون على الله الكذب بكل أنواعه، ومنه تزكيتهم لأنفسهم.
وكفى به أى : بهذا الكذب.
إثماً مبيناً ذنباً شنيعاً واضحاً، يستحق أشد العقوبات.

*****

ثم يذكر رب العزة جرماً آخر من جرائمهم ٠٠ يعرضه أمام المؤمنين، ويلفت أنظارهم إليه؛ ليزداد حذرهم من اليهود.
حيث يقول تبارك وتعالى :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً }
[الآية ٥١]

هؤلاء اليهود .. الذين أوتوا حظاً من الكتاب : يرتكبون جرمين شنيعين :

الأول : أنه بالرغم من نزول التوراة إليهم، فهم يؤمنون بالجبت أى : بما عبد من دون الله، كالأصنام، والكواكب، وغير ذلك، كما يؤمنون بالطّاغوت، وهو الشيطان، أو كل من تجاوز حدود الله وشرعه.

الثانى : يقولون للكافرين .. أنتم أهدى سبيلاً، وأقوم طريقاً من محمد – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه، بالرغم من علمهم أن الأمر على خلاف ذلك.

على كل حال :

{ أُولَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا }
[الآية ٥٢]

أى : هؤلاء الموصوفون بكل ما سبق، وهم اليهود، هم الذين لعنهم الله أى : أبعدهم من رحمته.
ومن يلعن الله فلن تجد نصيراً يعتد به، وتنفع للنهاية نصرته.

*****

وبعد هذا الحكم الإلهى العادل عليهم ..
ينكر عليهم رب العزة حالهم، ودوافعهم لهذه التصرفات الكافرة الخسيسة منهم.
حيث يقول :

{ أُولَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا }
[الآية ٥٣]

أى : ما الذى يدفعهم إلى ارتكاب هذه الجرائم التى يرتكبونها ..؟
أهو ما يملكون ..؟
إنهم لا يملكون شيئاً يعتد به، ويدفعهم لما يفعلون..!!
إنهم لو كانوا يملكون شيئاً ذا أهمية .. لما أعطوا أحداً شيئاً، ولو كان تافها، مثل النقير، وهى النقطة فى ظهر النواة؛ لفرط بخلهم.
إذاً ليس الغنى، والسخاء .. هو الذى يدفعهم إلى ذلك، فليس إذاً .. إلا خسة طبعهم، وفساد أخلاقهم.
هل هناك شيء آخر يدفعهم إلى ارتكاب هذه الجرائم ..؟

{ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا }
[الآية ٥٤]

أهو الحسد الذى دفعهم لعدم الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله رزقه النبوة، وهو من العرب، وليس من بنى إسرائيل ..؟

فلم يحسدون ..؟

ولم يكفرون ..؟

ليس هذا .. هو السبب الوحيد.

إنما هى طبيعتهم الفاسدة.

{.. فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا }

أى : أنزل الله مع ذرية إبراهيم وهم أسباط بنى إسرائيل التوارة، وجعل فيهم الحكمة.

وأتاهم ملكاً عظيماً مثل : يوسف، وداود، وسليمان، عليهم السلام.

فماذا فعلوا ..؟

{ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا }

[الآية ٥٥]

أى : فمن اليهود .. من آمن بما ذكر بالكتاب، الذى أنزل على الأنبياء من آل إبراهيم عليه السلام.

ومنهم : من كفر به، وصد الناس عنه، ومنعهم من اتباعه، والاهتداء بهديه، مع علمه بصحته.

وهذه هى طبيعتهم.

فليس مستغرباً كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم.

على أية حال : سنعذبهم على هذا فى جهنم.

{.. وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا }

أى : وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم، وعنادهم، ومخالفتهم كتب الله ورسله.

*****

أخى المؤمن ..

اقرأ معى هذا القرار الإلهى العادل الخالد، الذى يختم به هذا الموضوع.

حيث يقول تبارك وتعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا }
[الآية ٥٦]

نعم ..
إن الذين كفروا بآياتنا بعد إرسال الرسل، وإنزال الكتب، ووضوح الدلائل .. يستحقون ما يحدث لهم.
ماذا يحدث لهم ..؟
سوف نصليهم ناراً سندخلهم ناراً يحترقون فيها.
كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها أى : كلما احترقت جلودهم بالنار، أعدناها لهم من جديد.
ليذوقوا العذاب أى : لتحترق من جديد وهكذا ، كلما احترقت عادت، فيزداد عذابهم، جزاء استمرار كفرهم، وعنادهم، وتكذيبهم.
إن الله كان عزيزاً حكيماً لا يعجزه شيء.
أما الصنف الآخر من الناس ؛ فيقول عنهم رب العزة :

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِـلاًّ ظَلِيلاً }
[الآية ٥٧]

نعم ..
إن الذين آمنوا بالله، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر .. إلخ.
وعملوا الصالحات لإصلاح البلاد، وإسعاد العباد، طاعة لله.
ماذا يحدث لهم ..؟
سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة، وندخلهم ظلاً ظليلاً فى الجنة.

*****

أيها الأحبة فى الله ..
لما كان اليهود يعرفون الحق الذى عليه محمد صلى الله عليه وسلم، ويعرفون أوصافه .. من التوراة .. وكان ذلك : أمانة عندهم.
ولكنهم .. خانوها، فلم يؤمنوا بها أولاً، ثم أنكروها وكتموها عندما سألهم عنها أهل مكة، كما سبق ذكره ..!!
وكانت هذه : أمانة خاصة ..
أمر الله عموم المكلفين بأداء الأمانات بصفة عامة.
فقال عز من قائل :

{ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا }
[الآية ٥٨]

قال العلماء : لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، دعا عثمان بن طلحة، وأخذ منه مفتاح الكعبة، فقال له عثمان : هاكَ أمانة الله، ففتح النبى صلى الله عليه وسلم الكعبة، وصلى، ثم خرج ٠٠ فطاف بالبيت.

ثم نزل عليه جبريل بهذه الآية.

فرد النبى صلى الله عليه وسلم المفتاح إلى طلحة، وقال : لقد أنزل الله فى شأنك قرآناً، وتلا عليه الآية.

فقال عثمان : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأسلم، فكان المفتاح معه إلى إن مات، فدفعه إلى أخيه شيبة، فالمفتاح فى أولادهم إلى يوم القيامة.

هذا ٠٠ وإن كان سبب الآية خاصاً إلا أن معناها عام، فى جميع الأمانات ٠٠ مع الله : كفعل المأمورات، وترك المنهيات، أو مع نفسه: لحفظه لكل ما أنعم الله عليه به فلا يستعمله إلا فيما يرضى الله عنه، أو مع الناس : فى حفظ أماناتهم، ورعاية عهودهم ٠٠ حيث يقول صلى الله عليه وسلم : أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك .

ثم يقول رب العزة :

{.. وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ .. }

أى : إذا حكمتم بين الناس ٠٠ فاحكموا بحكم الله، بلا هوى، ولا ظلم، بل بإنصاف وعدل.

ويدخل فيه : العدل ٠٠ فى الأحكام، والأقوال، والأفعال، والأخلاق، وكل ما يدخل العدل فيه ويحتاج إليه.

ثم بين ربنا – ترغيباً لنا – حسن العدل، ومنزلة أداء الأمانة.

حيث يقول :

{..إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا }

أى : نعم الشيء الذى يعظكم ربه ربكم ٠٠ من العدل، وأداء الأمانة ٠٠ فاتبعوه، وحافظوا عليه، ولا تتهاونوا فى الالتزام به.

إن الله كان سميعاً لأقوالكم بصيراً بأعمالكم، وسيجازيكم عليها خيراً، أو شراً على حسب اختياركم لها.

*****

هذا ٠٠

ولما أمر الله الولاة ٠٠ بالعدل فى الحكومات، قائلاً : وإذ حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ٠٠

أمر الناس بطاعة هؤلاء الولاة.

لكن ٠٠ لا على الإطلاق.

بل : ضمن طاعة الله ورسوله.
حيث قال :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً }
[الآية ٥٩]

والأمر للمؤمنين ..
أطيعوا الله بالعمل بكتابه.
وأطيعوا الرسول بطاعة شخصه فى حياته، والعمل بسنته بعد وفاته صلى الله عليه وسلم.
وأولى الأمر منكم وهم الأمراء، وذلك فيما يأمرون به من طاعة الله ورسوله، دون الأمر بمعصية.
وقال ابن عباس : أولو الأمر .. هم أهل الفقه والدين.
ولا تعارض بين هذا وذاك.
لأن الأصل : أن يكون الأمراء .. علماء فقهاء.
فقد أخرج الدارمى عن تميم الدارى، أن عمر قال : لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا بطاعة ..
فمن سوده قومه – أى جعلوه رئيساً عليهم – على الفقه : كان حياة له ولهم.
ومن سوده قومه على غير فقه : كان هلاكاً له ولهم.
ثم يقول عز وجل :

{.. فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً }

يعنى : فإن اختلفتم أنتم وأولو الأمر فى شيء من أمور الدين، او اختلفتم فيما بينكم فى شيء من ذلك.
فردوه إلى الله والرسول أى : فارجعوا فيه إلى الكتاب والسنة، وانزلوا على حكمها.
هذا ..
إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر حيث إن مقتضى الإيمان الطاعة، ومن مقتضى الطاعة : الرد إلى الكتاب والسنة فى حالة النزاع والخلاف.
ذلك الرد إلى الكتاب والسنة.
خير لكم فى عاجل أيامكم، وأمور حياتكم.
وأحسن تأويلاً أى : أحسن لكم فى الآجل والعاقبة.

*****

وبعد هذا التوجيه المفيد، من ربنا العزيز الحكيم ..

يلفت سبحانه نظر رسوله صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين ٠٠ إلى من يدعى الإيمان، ويتحاكم فى أمور حياته، وفصل خصوماته، إلى غير الكتاب والسنة.

فيقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾
[الآية ٦٠]

والمعنى :

ألم تر إلى الذين يزعمون أرأيت هؤلاء المنافقين الذين يدعون، وأمرهم العجيب ٠٠؟

ماذا يدعون ٠٠؟

يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك من الوحى والقرآن.

وما أنزل من قبلك على رسل الله عليهم الصلاة والسلام.

وما العجيب فى ذلك ٠٠؟

أن فعلهم يخالف قولهم ٠٠!!

كيف ٠٠؟

يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت أى : يرجعون فى أمور حياتهم وخصاماتهم إلى ما خالف الكتاب والسنة، وهو المراد بالطاغوت هنا.

مع أن دعواهم الإيمان ٠٠ تقتضى : أن يتحاكموا فيما ذكر إلى الله والرسول صلى الله عليه وسلم.

وهم لم يفعلوا ذلك.

وقيل : الطاغوت هنا : هو كل من جاوز الحد فى طغيانه، وعتوّه، ومحاربته للإسلام وأهله.

وقيل : إنه الشيطان، ممثلاً بجنده وأتباعه.

نعم ٠٠ إنهم تحاكموا إليه.

وقد أمروا أن يكفروا به أى : بهذا الطاغوت، فلا يطيعونه، ولا يتحاكمون إليه.

ولكن ٠٠ خاب سعيهم.

ويريد الشيطان أن يضلهم عن الحق ضلالاً بعيداً مستمراً، لا يخرجون منه، ولا ينفكون عنه.

إذا كان أمرهم كم رأيت – أخى المؤمن – عجباً.

فانظر معى إلى الأعجب منه.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾
[الآية ٦١]

أى :

وإذا قيل لهؤلاء المنافقين.

تعالوا نحتكم فى الخصومات والخلافات.

إلى ما أنزل الله فى كتابه الكريم.
وإلى الرسول صلى الله عليه وسلم، شخصياً فى حياته، وإلى سنته المطهرة بعد وفاته.
رأيت المنافقين
لاحظ – أخى الكريم – لم يقل رب العزة "رأيتهم" بل قال ذلك :
ذما لهم وتسجيلاً لوصفهم، وبياناً لعلة الحكم عليهم.
نعم ..
رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً يعرضون عنك أشد أنواع الإعراض، وينفرون منك، ولا يستجيبون لك.

*****

ثم يهدد ربنا عز وجل هؤلاء المنافقين، ويبين أنه ستنزل بهم مصائب .. فكيف يتصرفون ..؟
يقول تعالى :

{ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا }
[الآية ٦٢]

ومعنى الآية :
فكيف يصنع هؤلاء المنافقون.
إذا أصابتهم مصيبة أى : عقوبة أو كارثة.
بما قدمت أيديهم أى : بسبب ذنوبهم، أو بسبب تحاكمهم إلى غير الله ورسوله.
ثم جاءوك يعتذرون لأنهم احتاجوا إليك.
يحلفون لك على حسن نيتهم، وهم كاذبون، يقولون :
إن أردنا أى : ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك.
إلا إحساناً وتوفيقاً بين الخصوم، ولم نرد مخالفة لك، ولا إنكاراً، أو اعتراضاً لى حكمك.
وهذا .. شأن المنافق دائماً ..
يظن أنه : محسن فى نفاقه، وأنه يجمع بين وجهات النظر كلها.
على كل حال :
هذا التساؤل والاستفهام من الله تعالى : وعيد لهم وتهديد على فعلهم، وبيان لنا أنهم سيندمون حين لا ينفع الندم، ولا يغنى عنهم الاعتذار.

* * *

ثم يبين رب العزة .. الموقف الصحيح والصرف المناسب مع هؤلاء المنافقين.

حيث يقول تبارك وتعالى:

{ أولـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا }
[الآية ٦٣]

أى : هؤلاء هم المنافقون، قد اتضحت صورتهم، وظهرت مواقفهم.
والله عز وجل يعلم ما فى قلوبهم، من الشك، والنفاق.
وأما موقفك منهم :
أولاً : فأعرض عنهم فلا تعاقبهم.
ثانياً : وعظهم ذكرهم بالله، وخوفهم من غضبه وعقابه.
ثالثاً : وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً أى : قل لهم فى شأن أنفسهم قولاً مؤثراً؛ ليرجعوا عن كفرهم وضلالهم.
ويلاحظ : أن هذه الصورة التى عرضت للمنافقين : تدل على أن الاهتداء بكتاب الله ، وقبول الاحتكام له ، والخضوع لحكمه ٠٠ هو المقياس الذى يحدد تقوى الإنسان أو نفاقه.

*****

وبعد ذلك : يبين ربنا سبحانه وتعالى ٠٠ الأصل الأصيل الدائم فى موضوع الطاعة هذه ٠٠ فيقول :

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا }
[الآية ٦٤]

أى : ما أرسلنا رسولاً قط، إلا وشأنه أن يطاع بتوفيق الله وتيسيره، حيث إنه هو المبلغ عن الله، وطاعة الله واجبة، ومن هنا : فطاعة الرسول واجبة.
ولذلك : أمر كلَّ رسول المبعوثَ إليهم، أن يطيعوه؛ لأنه مؤد عن الله.
ومع هذا ٠٠ فالمنافقون لم يطيعوه، وظلموا أنفسهم.
إلا أن التواب الرحيم يقول :

{.. وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا}

يعنى : ولو أنهم حينما ظلموا أنفسهم بعدم طاعتك، واحتكامهم إلى الطاغوت.
جاءوك تائبين من النفاق، معتذرين عما ارتكبوا من الاحتكام إلى غير الكتاب والسنة.

لو فعلوا ذلك ..
واستغفر لهم الرسول بالشفاعة، والدعاء لهم.
ماذا يحدث ..؟
لوجدوا الله تواباً رحيماً أى : لتاب الله عليهم، وقبل اعتذارهم، ورحمهم وعفا عنهم.

*****

أيها الأحبة فى الله ..

يقسم ربنا – جل جلاله – بنفسه الكريمة المقدسة : أنه لا إيمان حتى يُحكَّم الرسول صلى الله عليه وسلم فى جميع الأمور ..

إذ يقول :

{ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا }
[الآية ٦٥]

أى : فوربك لا يؤمنون إيماناً حقيقياً مقبولاً.

حتى يحكموك إن كنت حياً يا رسول الله، ويحكموا الكتاب الذى جئت به، وهو القرآن، وسنتك المطهرة، بعد وفاتك، عن طواعية منهم، واختيار.

ثم لا يجدوا فى أنفسهم بعد تحكيمهم لك، وحكمك فيهم ولهم.
حرجاً مما قضيت أى : لا يجدون ضيقاً أو شكاً فى حكمك بينهم، وقضائك فيهم.
ويسلموا تسليماً أى : وينقادون لقضائك، وحكمك انقياداً ظاهراً وباطناً، من غير مخالفة، ولا منازعة.
ولذا .. فعليهم أن يحكموك، بكل رضى وتسليم.
فهذا .. أمر هين.

* * *

{ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا أَجْراً عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا }
[الآيات ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨]

يعنى : لم نكتب عليهم، ولم نطالبهم ونوجب عليهم .. ما كتبنا وأوحينا على بنى إسرائيل، لقبول توبتهم، من قتل أنفسهم، بأن يقتل بعضهم بعضاً، أو أن يخرجوا من ديارهم.

ولو كتبنا عليهم ذلك ..

ما فعله إلا قليل منهم؛ لصعوبة الأمر عليهم.
وما دام الأمر كذلك ٠٠
فليفعلوا ما طلب منهم ووعظوا به ٠٠ وهو احتكامهم إليك، وطاعتهم لك، ورضاهم بحكمك.

{.. وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا }

يعنى : ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به، ويطلب منهم ٠٠ من اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم، والانقياد لحكمه، مهما كان الأمر، أو الحكم.
لكان خيراً لهم فى الدارين.
وأشد تثبيتاً لهم فى الإيمان، وعدم الشك والنفاق.

{وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـــا أَجْراً عَظِيمًا }

أى : وإذّ يفعلون ذلك.
لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً ثواباً كثيراً عظيماً، لا ينقطع.
أيضاً :

{ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا }

يعنى : وفوق هذا الثواب والأجر الذى نعطيهم إياه ٠٠
ثبتناهم على الدين الحق، وهدينا قلوبهم إليه، وفيه.

*****

ثم يبشر الله تعالى – أيها الأحبة فى الله – من يطع الله ورسوله ٠٠ بأن يدخله دار كرامته، فى صحبة الكرام الطيبين.
حيث يقول :

{ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـــئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـــئِكَ رَفِيقًا }
[الآية ٦٩]

يعنى :
ومن يطع الله والرسول فيعمل بالكتاب والسنة.
فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم برضوانه.

ثم عددهم ․․ فقال :
من النبيين وهم صفوة خلقه.
والصديقين وهم الذين صدقوا مع الله ظاهراً وباطناً.
والشهداء وهم الذين باعوا أنفسهم لله، واستشهدوا فى سبيله.
والصالحين وهم من صلحت قلوبهم وأحوالهم، وحسنت أعمالهم.
وحسن أولئك رفيقاً أى : وما أحسن رفقة هؤلاء.
وعلى ذلك : فليعمل لنوالها العقلاء.

* * *

ثم بين أن هذا الإنعام فضل منه وحده ․․ قائلاً :

{ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا }
[الآية ٧٠]

أى : ما أعطى الله المطيعين من الأجر العظيم، وما أنعم عليهم بمرافقة هذه الصحبة، التى أنعم الله عليها ․․ إلا بفضل منه وإكرام لهم.

{.. وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا }

أى : وكفى به عليماً، يعلم من يستحق الفضل، ومن لا يستحق.
حقاً ․․ حقاً.
فكل إنعام منه على عباده ․․ فهو تفضل وتكرم لا يليق إلا بذاته سبحانه.
وعلى ذلك ․․
فعلى العباد : أن يثقوا بما أخبرهم به محمد صلى الله عليه وسلم، وأن يتمثلوا لما أمرهم به الله ونهاهم عنه.

*****

هذا ․․
وبعد أن بين لنا رب العزة فيما سبق :
كثيراً من الأمور الدينية ․․ من عبادته تعالى، وعدم الشرك به.
وكثيراً من الأمور المدنية ․․ كمعاملة ذى القربى، والجيران، وغيرهم .
وكثيراً من الأمور الشخصية ․․ كأحكام الزواج، والميراث، وغير ذلك.

يبدأ – عز وجل – فى بيان بعض الأحكام السياسية والحربية، وفى رسم الطريق التى نسير عليها فى حفظ ملتنا، وحكومتنا – المبنية على تلك الأصول – من الأعداء.

فيقول :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا }
[الآية ٧١]

وفى هذه الآية الكريمة : يأمر الله عباده المؤمنين ·· بأمرين :

الأول : الحذر من عدوهم ··

وهذا ·· يستلزم منهم التأهب لأعدائهم؛ بإعداد الأسلحة والعُدَد، واليقظة الكاملة، ومعرفة أعدائهم، وكشف مخططاتهم للنيل من المسلمين.

الثانى : النفير العام فى سبيل الله، والاستعداد الدائم الكامل لقتال الأعداء، بل قتالهم إذا لزم الأمر، وذلك يكون حسب الظروف التى تدعو إلى ذلك.

سواء كان هذا النفير ثبات أى : جماعات متفرقة، وسرية بعد سرية، أو جميعاً أى : مجتمعين، فى صورة جيش كامل العَدَد والعُدَّة.

ومن هذه الآية نفهم : أنه ينبغى على المسلمين ألا يتركوا الجهاد فى سبيل الله أبداً ·· على قدر ما يلزم، وبحسب ما يمكن.

وما أكثر غفلة المسلمين عن فهم ذلك ··!!

فهم حينما : غاب عنهم فهم هذه الآية، أو غابوا عن فهم هذه الآية، وتركوا الجهاد فى سبيل الله : تغلب الكافرون على أرضهم، وسيطر الأعداء على بلادهم ·· وذلوا فى أوطانهم لعدوهم، وطمع به كل طامع.

وننبه بشدة ·· على أنهم إذا لم يعودا إلى دينهم بإحياء فريضة القتال فى سبيل الله على قدر المستطاع، ويملكوا الوسائل المعينة على ذلك : فلن تكون كلمة الله هى العليا ·· لا فى أقطارهم، ولا فى العالم.

وهذا ما أشار إليه الحديث الشريف : إذا تبايعتم بالعينة، ورضيتم بالزرع، وتركتم جهادكم : سلط الله عليكم ذلاً ، لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم.

وكان ميزان الرجوع إلى الإسلام – على هذا – هو الجهاد.

* * *

وقد شدد الإسلام على هذا الأمر – أيها الأحباب – أيما تشديد، فى هذا الأمر.

ويفهم ذلك جيداً من قوله تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم [الأنفال : ٦٠].

*****

وحتى يكون صف المجاهدين قوياً متماسكاً : ينبه الله عز وجل على أن بعض الذين يخالطون المؤمنين، ويتظاهرون بالإسلام ٠٠ يتخلفون عن القتال فى سبيل الله، ويتباطئون ، ويبطئون غيرهم.

وهؤلاء : ينبغى أن لا يكون لهم أثر أو تأثير فى عزائم المجاهدين فى سبيل الله.

حيث يقول كاشفاً لهم :

{ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا }
[الآية ٧٢]

أى : أنه يوجد معكم، وبين صفوفكم ٠٠ من يتثاقل عن الجهاد؛ لأنهم لا يحبون أن يبقى الإسلام، ولا أن ينتصر أهله، بل إنهم يثقلون غيرهم، ويحاولون صرفهم عن الجهاد.

ثم فصل المولى أحوال هؤلاء، ومواقفهم.

فهم إذا أصابتكم أيها المؤمنون الصادقون المجاهدون مصيبة من قتل، أو هزيمة حربية ٠٠ فرحوا، وقال الواحد منهم : قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم حاضراً هذه المعركة، فأصاب مثلما أصيبوا.

أما إذا أصابكم فضل من الله كنصر أو غنيمة.

فهذا موقفهم ٠٠ كما يصوره رب العزة حيث يقول :

{ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ الله لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا }
[الآية ٧٣]

وهذا : منطق الماديين، أصحاب المصالح ٠٠ يتحسرون على هذه المكاسب التى ضاعت عليهم، وحرموا منها، ويندمون على أنهم لم يكونوا مع المؤمنين، حتى ينالوا من هذه الغنائم، وكأنهم لم تكن بينهم وبين المؤمنين مودة، أو معرفة، وكأنه ما طلب منهم الاشتراك فى هذه الغزوة أو تلك، بل كأنهم ما تباطئوا وتثاقلوا وتخلفوا عن الجهاد فى سبيل الله أصلاً.

*****

وبعد أن بين الله تعالى؛ فساد تصور المنافقين، لموضوع الجهاد فى سبيل الله، وعدم فهمهم لحكمته ٠٠

وبعد أن حصَّن الصف المؤمن المجاهد من خطر تثبيطهم عن الجهاد فى سبيل الله ٠٠

يصدر أمره للمؤمنين الصادقين بالقتال فى سبيل ٠٠

حيث يقول عز من قائل :

{ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا }
[الآية ٧٤]

أى : لئن صد الذين مرضت قلوبهم، وهم المنافقون، وتباطئوا عن القتال فى سبيل الله ٠٠ فليقاتل الذين يستحبون الآجلة على العاجلة، وهم المؤمنون المخلصون الثابتون على الحق.

ويحتمل أن يكون المعنى أيضاً ٠٠

فليقاتل هؤلاء المنافقون الذين يشترون الحياة الدنيا بالآخرة.

على كل ٠٠

{.. وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا }

أى : كل من قاتل فى سبيل الله، فنال النصر، أو الشهادة ٠٠ فله عند الله : مثوبة عظيمة، وأجر جزيل.

وقد ثبت فى الصحيحين : تكفل الله للمجاهد فى سبيله إن توفاه الله : أن يدخله الجنة، أو يرجعه سالماً مع أجر أو غنيمة.

وما ذلك : إلا لاجتهاده فى إعزاز دين الله.

وعلى هذا : فعلى المجاهد ٠٠ أن يوطن نفسه على أحدهما، النصر أو الشهادة، ولا ينبغى أن يكون همه مجرد أخذ المال.

* * *

وإذا كان هذا جزاء القتال فى سبيل الله ٠٠

وإذا كان هذا ٠٠ هو ثواب المقاتل فى سبيل الله ٠٠

فإن عز وجل يحض على القتال فى سبيله، ويشجع عليه، ويبين لعباده الحكمة منه، بأسلوب الاستفهام.

قائلاً :

{ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا }

[الآية ٧٥]

أى : أى شيء يمنعكم من القتال فى سبيل الله، وقد عرفتم ثوابه وفضله وجزاءه ٠٠؟!!

وأى شيء يمنعكم عن القتال فى سبيل الله، وقد وجدت دواعيه وأسبابه ٠٠؟!!

ومن أولى من الله ٠٠ أن يقاتل فى سبيله ٠٠؟!!

كذلك :

{..وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا }

يعنى : وما لكم أيها المؤمنون ٠٠ لا تقاتلون فى سبيل الله، نصرة لدينه، وفى سبيل استخلاص المستضعفين من الرجال والنساء والولدان المؤمنين، الراغبين إلى الله تعالى أن ينقذهم من طغيان من هم تحت سلطانه من الطغاة والظالمين.

ولذلك : يدعون الله دائماً، قائلين :

ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها نفر بديننا ، ونأمن على أنفسنا.

واجعل لنا من لدنك ولياً أى : ولِّ علينا والياً من المؤمنين يوالينا، ويقوم بمصالحنا، ويحفظ علينا ديننا، وحقوقنا.

واجعل لنا من لدنك نصيراً يمنعنا منهم، وينصرنا على أعدائنا.

وحقيقة : من أولى من هؤلاء أن يقاتل من أجلهم، طاعة لله تعالى ٠٠؟

*****

وبعد أن اتضحت ضرورة القتال فى سبيل الله ٠٠

وبعد أن تقرر الأمر به ٠٠

يبين تعالى : الفارق بين قتال المؤمنين، وقتال الكافرين.

فيقول تبارك وتعالى :

{ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا }

[الآية ٧٦]

أى : أن الذين آمنوا ٠٠ يقاتلون عدوهم؛ طاعة لله ورضوانه، ونشراً لدينه، وإنقاذاً لعباده من ظلم الطغاة الجبارين.

والذين كفروا ٠٠ يقاتلون المؤمنين؛ طاعة للشيطان وأعوانه، وتحقيقاً لمقاصده.

وفى هذا التوضيح : ترغيب للمؤمنين فى القتال فى سبيل الله.

ومع ذلك : يهيج رب العزة المؤمنين على قتال أعدائه، الذين هم أولياء الشيطان.

بقوله :

{.. فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ ..}

أى : أنصاره وحزبه، وهم : الكفار بأصنافهم، ومنهم المرتدون.

ولو قاتلتموهم : فستغلبونهم بإذن الله.

والسبب واضح ٠٠ حيث

{.. إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا }

والكيد : هو السعى فى فساد الحال، على جهة الحيلة والمكر والخديعة.
وكيد الشيطان ضعيف ٠٠ لأنه فى مواجهة نصر الله وحمايته لأوليائه.
وفى هذا البيان لضعف الأعداء وكيد شياطينهم : تشجيع المؤمنين على قتال أعدائهم.
إذ ٠٠ ما دام الشيطان وليهم، وهذا شأن كيده ٠٠
وما دام الله تعالى ٠٠ ولى المؤمنين، تعالى شأنه ٠٠
فكيف لا يجرؤ المؤمنون على الكافرين ٠٠؟!!
والعجيب ٠٠!!
أنه : فى كل زمان ٠٠ يوجد من يخشون القتال، حتى من المؤمنين ٠٠!!
بل : فى جيلنا، وبين أظهرنا، وفى مجتماعاتنا ٠٠ من يتصوَّر أن الإسلام: مجرد صلاة وزكاة ٠٠ أما أن يكون الإسلام قتالاً : فلا.
وكذلك : فى جيلنا، بين أظهرنا، وفى مجتمعاتنا ٠٠ من يتصوَّر أن التقوى: فى الصلاة والزكاة.

* * *

وكل هذه تصورات ناقصة، فاسدة، يطهر الله عباده المسلمين المتقين منها، بالآيات التالية :

*****

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً }
[الآية ٧٧]

وكان ذلك : فى ابتداء الإسلام ٠٠ حيث كان المسلمون مأمورين – فقط – بالصلاة، ومواساة المحتاج منهم، والعفو، والصفح، وترك القتال.
وكانوا – كذلك – يلقون أذى من المشركين ٠٠
وحينما يقابلون النبى صلى الله عليه وسلم ٠٠ يقولون له : لو أذنت لنا فى القتال ٠٠؟
فيقول لهم : كفوا أيديكم، أى : عن قتال أعدائكم، وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وكانت هذه مرحلة ٠٠ لها أسبابها من عدم فرضية القتال.
فلما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم، ونزلت هذه الآية وأمروا بقتال أعدائهم ٠٠
كانت المفاجأة ٠٠!!
ماذا حدث ٠٠؟

{..فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ .. ؟! }

أى : فلما فرض القتال بعد ذلك، فى المدينة فى السنة الثانية من الهجرة، وطلب منهم الجهاد إذا فريق من هؤلاء المؤمنين، الذين كانوا يقولون للنبى صلى الله عليهم : لو أذنت لنا فى القتال، ويقول لهم : كفوا أيديكم ..

إذا بهم .. يجزعون، ويخافون من مواجهة أعدائهم بالقتال.

كما يخافون أن ينزل الله عليهم عليهم بأسه، أو أشد من ذلك.

ويلاحظ : أن هذا الخوف منهم .. ليس شكاً فى الدين، ولا رغبة عنه، بل نفور منهم عن المخاطرة بالأرواح، وسفك الدماء، ويُتْم الأولاد، وتَأيُّم النساء، وهذا خوف طبيعى، جبل عليه الإنسان، حيث إنه : جبل على كراهة ما فيه خوف هلاكه غالباً.

ولذلك :

لم يعترضوا على فرضية القتال، بل سألوا عن وجه الحكمة فى فرضيته عليهم، قائلين ربنا لم كتبت علينا القتال ؟

كما أنهم : لم يطلبوا إلغاء هذه الفرضية، بل طلبوا تأجيلها مدة أخرى، ولو إلى أمد قريب؛ رغبة فى الحياة، وتجنباً لسفك الدماء.

على كل حال .. هذه حالة مريضة فى الصف الإسلامى ..

وهى تحتاج إلى علاج ..

ويعالجها القرآن الكريم بأمرين :

الأول : بلفت النظر إلى حقيقة الحياة الدنيا، وقلة متاعها.

والثانى : ببيان حقيقة الموت، وحتميته، فى ميدان القتال، أو فى غيره.

*****

يقول سبحانه وتعالى فى العلاج الأول :

{.. قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً }

أى : متاع الدنيا قليل زائل، ومتاع الآخرة عظيم دائم.

والكثير .. إذا كان إلى زوال : فهو قليل .. فكيف بالقليل الزائل؟!!

كما أن الآخرة، وما فيها من جنَّة خير لمن اتقى عقاب الله .. بترك معصيته، وسارع فى امتثال أوامره، ومنها الجهاد فى سبيل الله.

ولا تظلمون فتيلاً أى : وتجزون على أعمالكم، ولا تنقصون من هذا الجزاء أقل شيء، ولو كان فتيلاً وهو الخيط الممتد فى تجويف النواة.

وما دام الأمر كذلك : فجاهدوا، ولا ترغبوا لأنفسكم عن هذا الخير الجزيل.

* * *

العلاج الثانى : للخوف من القتال.
يوجد فى قوله تعالى :

{ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا }
[الآية ٧٨]

أى : يا من تخافون الموت فى سبيل الله ٠٠ أنتم – بطبيعة الحال – صائرون إلى الموت، وهو واصل إليكم لا محالة.

حتى ولو كنتم فى بروج مشيدة أى : فى قصور، أو حصون، حصينة، عالية، منيعة، سيصل إليكم، فإنه لا ينجى حذر من قدر.

وما دام الأمر كذلك : فجاهدوا فى سبيل الله، ولا ترغبوا بأنفسكم عن هذا الخير الجزيل.

*****

وبعد أن عالج ربنا سبحانه وتعالى بعطفه وكرمه ٠٠ هذا المرض، وهو : كراهية القتال وحب الحياة، عند هذا الفريق، ببيانه : حقيقة الدنيا، والإعلام بأن الموت لا يتقدم ولا يتأخر ٠٠

يعالج ربنا عز وجل ٠٠ مرضاً آخر ، قد يصيب الصف الإسلامى، من المندسين فيه، كالمنافقين، وغيرهم.
فيقول :

{.. وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ.. }

أى : أن بعض هؤلاء الذين خافوا من القتال، وطلبوا تأخير فرضيته، وقعوا فى مرض آخر.
و هو أنه إن تصبهم حسنة أى : نعمة، من : خصب ورخاء، وسعة :
يقولوا هذه من عند الله ٠٠ وهذا حق، ولا اعتراض عليه.
ولكن الاعتراض على قولهم الآتى، الذى يكشف خطأهم، ومرض قلوبهم.
وهو :
وإن تصبهم سيئة أى : بلية، من جدب، وقحط، وبلاء.
يقولوا هذه من عندك أى : بسبب شؤمك علينا ٠٠ وأضافوها إلى النبى صلى الله عليه وسلم.
وذلك : عند نزول الآية.

وهذا : يحدث فى كل عصر ٠٠ حيث ينسب المنافقون هذه الكوارث الإلهية، والابتلاءات الربانية، إلى ورثته صلى الله عليه وسلم، وحملة دعوته.

والمعنى : أن هؤلاء يعتبرون ٠٠
أن ما هم فيه من خير ٠٠ هو من الله، وهذا صحيح.
وأن ما هم فيه من بلاء ٠٠ هو شؤم سببه محمد صلى الله عليه وسلم، ومن بعده ٠٠ وهذا خطأ فادح.
ولذلك :
يجيبهم رب العزة بقوله :

{.. قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ .. }

أى : كل ذلك من عند الله.
فهو : الذى يبسط الأرزاق، وهو الذى يضيقها، وهو الذى ينعم على الناس بالخيرات، وهو الذى يبتليهم بالمحن والاختبارات.
يعنى: كل شيء فعله وحده، سبحانه وتعالى.
ثم ينكر عليهم هذا الفهم الخاطئ، والاعتقاد الفاسد.
بقوله تبارك وتعالى :

{.. فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا }

إذً لو فهموا ٠٠ لعلموا : أن الكل من عند الله.
وعلموا : أن النعمة منه تعالى ٠٠ بطريق التفضل والإحسان.
وعلموا كذلك : أن البلية منه تعالى ٠٠ بطريق العقوبة على ذنوب العباد.

*****

وبعد ذلك : يبين ربنا جل شأنه، وجه الحق فى هذا الموضوع.
فيقول :

{ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا }
[الآية ٧٩]

أى : ما أصابك أيها الإنسان من حسنة ٠٠ أى : من نعمة وإحسان.
فمن الله تفضلاً منه، وامتناناً عليك بها.
وما أصابك من سيئة أى : مصيبة وبلية، تسوؤك : فهى من الله أيضاً، بسبب ما كسبت يداك، واقترفته نفسك من الذنوب.
وصدق رسول الله : ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب، ولا الشوكة يشاكها ٠٠ إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر.

ثم يرد عليهم فى قولهم للنبى صلى الله عليه وسلم حينما تصيبهم سيئة هذه من عندك مبيناً عظيم مكانة حبيبه صلى الله عليه وسلم ٠٠

وذلك : بعد بيان بطلان زعمهم فيما قالوه ٠٠

حيث يقول تبارك وتعالى :

{.. وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً }

أى : فأنت يا محمد رحمة، وأنت رسول، وأنت مبلغ.

وعليهم بالتالى : أن يتركوا ما هم عليه مما يخالف رسالتك؛ لينالوا رحمة الله وفضله، ورضوانه.

بدلاً من أن يعصوك، ويخالفوك، ثم يحملونك مسئولية ما ينزل عليهم من مصائب.

{.. وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا }

يعنى : شهيداً على رسالتك، شهيداً بينك وبينهم، وعالم بما يجادلونك فيه، ويردون عليه فيما جئت به من حق؛ كفراً منهم وعناداً.

*****

وبعد أن أكد المولى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ٠٠

يبين بعض الأحكام ٠٠ المترتبة على ذلك.

وهى – فى الوقت ذاته – لها اتصال وثيق بالسياق، وهو الحديث عن الجهاد، وما يتطلبه.

يقول العزيز الحكيم :

{ مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا }

[الآية ٨٠]

وهذه الآية تتحدث عن الطاعة.

وهذا موضوع هام جداً.

حيث إنه : لا يستطيع أى جيش فى العالم ٠٠ أن يربح معركة، بدون طاعة لقياداته.

كما أنه : لا تستطيع أية أمة أن تربح فى أى مجال من مجالات الحياة إلا بانضباط وطاعة.

ولذلك : فنحن المسلمين مكلفون بالطاعة، بشرط : أن تكون مبصرة، ولأهلها.

وعلى ذلك ٠٠ فمعنى الآية :

من يطع الرسول فى أوامره ونواهيه.

فقد أطاع الله لأن الرسول صلى الله عليه وسلم، لم يأمر، ولم ينه إلا بما أمر الله، ونهى عنه.

ولذلك : فإن طاعته فى أوامره ونواهيه ٠٠ طاعة لله.

ومن فهم ذلك جيداً ‥ أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنته، منتهى الطاعة، وصار فى غاية الانضباط لأوامر الشرع ونواهيه.

ومن لم يفهم ذلك.

أو فهم ‥ ولكنه ‥ أعرض عن الطاعة.

فما العمل معه ‥؟

يجيب رب العزة على ذلك ‥ قائلاً :

{.. وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا }

يقول المولى لحبيبه عليه الصلاة والسلام :

من أعرض عنك، وعن أوامرك، أو عن سنتك : فلا يهمنك فى شيء، ولا تحزن عليه.

فما أرسلناك عليهم حفيظاً تحصى عليهم أعمالهم، وتحاسبهم عليها، وتعاقبهم بسببها.

بل : أمر ذلك إلى الله تعالى وحده.

وفى هذا : تهديد واضح لمن أعرض عن هدى محمد صلى الله عليه وسلم.

وفى الوقت نفسه : تبشير بالخير لمن أطاع وخضع والتزم بما جاء به صلى الله عليه وسلم.

*****

وبمناسبة الحديث عن الطاعة، وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم يكشف الله لحبيبه وللمؤمنين أمر المنافقين.

فيقول :

{ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً }

[الآية ٨١]

أى : يقول المنافقون ‥ إذا أمرتهم بشيء : نحن مطيعون لك، وهذا شأننا معك، لا نخالفك أبداً.

فإذا برزوا من عندك أى : خرجوا، وغادروا مجلسك.

بَيَّتَ طائفة منهم غير الذى تقول يعنى : قدروا أمرا بيتوه بالليل، مع أنفسهم، وهو عصيانك، غير الذى أعطوك بالنهار، فى مجلسك، وهو الطاعة.

وهذا : هو النفاق ‥ يظهرون لك أمراً، ويبطنون خلافه.

وهؤلاء : يهددهم سبحانه وتعالى، حيث يقول :

{.. وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ .. }

أى : يثبت ويسجل ما يبيوه، فى صحائف أعمالهم.
ويحاسبهم، ويجازيهم ٠٠ عليه.
هذا ٠٠
ولا يهمل الحق تبارك وتعالى ٠٠ أن يبين للنبى صلى الله عليه وسلم، التصرف المناسب معهم.
حيث يقول له :

{.. فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً }

أى : فلا تهتم بهم، ولا تنشغل بأمرهم.
وتوكل على الله الذى يكفيك أمرهم، ويدفع عنك ضررهم، وينتقم لك من مكرهم.
وكفى بالله وكيلاً لمن توكل عليه، واحتمى به.
وبذلك :
نجد أن التصرف المناسب، الذى أرشد الله حبيبه إليه، والأمة من بعده، فى هذا الموقف، ومع هذه الفئة.
يجمع بين : الإعراض عنهم، والتوكل على الله تعالى.

*****

وبعد أن بين الحق سبحانه مرضهم هذا، المتمثل فى عدم الطاعة ٠٠
وبعد أن بين كذلك التصرف السليم للمؤمنين مع هذه الفئة ٠٠
يوضح سبب هذا الداء ٠٠ فيقول :

{ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا }
[الآية ٨٢]

والمعنى : أن الذى أوقعهم فى هذا المرض، هو عدم تدبرهم للقرآن، وفهمهم له، وإفادتهم من هديه وأنواره.
ولذلك : يستقبح رب العزة وينكر عليهم ٠٠ عدم التدبر هذا ٠٠
أى : أيعرضون عن القرآن وهديه ٠٠ فلا يتدبرونه، ويتأملونه.
إنهم لو فعلوا ذلك : لعرفوا أنه من عند الله.
حقاً ٠٠
ولو كان من عند غير الله كما يزعمون ٠٠!!
لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً أى : تناقضاً فى معانيه، وتبايناً فى نظمه.
ولكنه على غير ذلك ٠٠
فما لهم ٠٠ لا يذعنون، ويطيعون ٠٠؟!!

*****

ثم ٠٠ يذكر ربنا عز وجل قضية أخرى مهمة، فى موضوع الحرب والقتال.
هذه القضية : لها علاقة ٠٠ بالحرب النفسية، وحرب الإشاعات.
تحدث القرآن عنها ٠٠ تعليماً للصف الإسلامى ٠٠
ووضع علاجها ٠٠ حماية، ووقاية له من أخطارها ٠٠
حيث يقول تجلت حكمته :

{ وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً }
[الآية ٨٣]

وذلك : أن المنافقين كانوا يتابعون أخبار المجاهدين الذين بعثهم النبى صلى الله عليه وسلم لقتال الأعداء.
فإذا عرفوا شيئاً من أخبارهم أشاعوه، وأذاعوه، وتحدثوا به، مضيفين إليه من عندهم ما شاءوا، صابغين له بألوان حقدهم.
وكان هذا ٠٠ يضعف قلوب المؤمنين، الذين تصلهم هذه الأخبار، عن طريق هؤلاء المنافقين.
وليس هذا منهم بالتصرف الصواب المناسب.
وأما ما كان ينبغى فعله ٠٠
فهذا ما سنقرؤه إليه فى قوله تعالى :

{.. وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ..}

أى : كان عليهم، إذا ما عرفوا شيئاً، يتعلق بالنصر، أو بالهزيمة للجيوش المحاربة، أو شيئاً من أمور المسلمين الهامة العامة : أن يبلغوه للنبى صلى الله عليه وسلم، وذلك حال حياته، أو يبلغوه لأولياء الأمر، بدلاً من إذاعته، وإفشائه بين عامة الناس.
ولو فعلوا ذلك : لعرف أولو الأمر ٠٠ ما يستحق أن يذاع، وما لا يستحق، وكيف يذاع ؟ ومتى يذاع؟.
وذلك : لأنهم الأدرى بصالح الجماعة، وأحرص على حمايتها، وصيانة مصالحها.
أيها المسلمون الكرام ٠٠
ما هذه الشائعات، التى تخلخل الصف الإسلامى، وتوهن تماسكه، إلا عمل من عمل الشيطان؛ يسعده، ويفرح لحدوثه.
ولذلك : لابد من الشعور الدائم بفضل الله، وحمايته لأوليائه.
كذلك : لابد من التوكل عليه، والاستعانة به فى جميع الأحوال.

{.. وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً }

أى : لولا إنعام الله عليكم بتزكيته لكم، وتطهيره لنفوسكم، وتقويته لقلوبكم.
ولولا رحمته عليكم – كذلك – بإرسال رسوله صلى الله عليه وسلم، وإنزال كتابه.
لولا هذا وذاك ..
لاتبعتم الشيطان فيما يوسوسه لكم، ويزينه أمامكم من الفواحش.
إلا قليلاً منكم، وهم من صفت فطرتهم، وزكت نفوسهم، واعتصموا بالله تعالى فى كل أحوالهم وأمورهم.
وفى هذا .. بشارة وإشارة، كما يقول بعض العلماء.
بشارة : بحفظ أهل الإيمان.
وإشارة : إلى أن السير وراء الإشاعات، والعمل على نشرها .. اتباع للشيطان.
فليحمد المؤمنون ربهم على هذه البشارة.
وليلتزموا بمقتضيات هذه الإشارة.

*****

أيها الأحباب فى الله تعالى ..
تذكرون معى – أعزكم الله – أمر ربنا عز وجل للمسلمين أن ينفروا لقتال عدوهم .. جماعات جماعات، أو جيوشاً كاملة ..
وذلك فى قوله تعالى :
يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا ..
وهنا .. يأمر الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالقتال ولو منفرداً.
حيث يقول له :

{ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً }
[الآية ٨٤]

والأمر لرسوله صلى الله عليه وسلم : أمر لكل فرد من أمته.
يعنى: لو نكلت الأمة كلها عن القتال .. فعليك أن تقاتل بمفردك، إذا لزم الأمر، ودعت الضرورة.
وفى هذه الحالة : لا يضرك مخالفتهم، وتقاعدهم .. فتقدم أنت للجهاد وحدك، وإن لم يساعدك أحد، فإن الله ناصرك.
أيضاً :

{.. وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ .. }

أى : حُثَّ المؤمنين على الجهاد، ورغبهم فيه، حيث إنهم يصيرون آثمين إذا تخلفوا وتقاعدوا عنه.
وهذا القتال المنفرد ..

وهذا الحث للمؤمنين ٠٠

{.. عَسَى اللّهُ أن يَكُفَّ بَأسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ .. }

أى : لعل الله ٠٠ بقتالك، وتحريضك للمؤمنين حتى يقاتلوا ٠٠ يَكُفَّ بطش الذين كفروا عن المؤمنين، ويمنع ظلمهم عنهم، ويحول دون احتلالهم لبلادهم، وانتهاكهم لحرماتهم، واغتصابهم لحقوقهم.

{.. وَاللّهُ أشَدُّ بَأسًا وَأشَدُّ تَنكِيلاً }

أى : وكن على ثقة ويقين، وأنت تقاتل، وأنت تحرض المؤمنين على القتال ٠٠ أن ربك معك، وناصرك.
وكن على يقين وثقة ٠٠ أيها المؤمن : أن الله عز وجل أشد بأساً من بأسهم، بل أشد بأساً عليهم من بأسهم عليك، كما أنه : أشد تنكيلاً بهم، وتعذيبًا لهم.
وكان بالإمكان إذن ٠٠ أن يكف هو بقدرته بأس الذين كفروا عن المؤمنين٠٠
ولكن ٠٠ شاءت حكمة الله أن يبتلى الناس بعضهم ببعض، وأن يبتلى المؤمنين بقتال أعدائهم.

*****

هذا ٠٠
ولأن القتال ٠٠ قد يترتب عليه : أسر للمسلمين، أو سجن لهم، أو تعذيب واضطهاد ٠٠
وقد يشفع ناس للمسلمين المبتلين – فى مثل هذه الحالة – بالخير ٠٠
وقد يحرض ناس على المسلمين المبتلين – فى مثل هذه الحالة – بالشر ٠٠!!
ولذلك :
يحض الله على الشفاعة فى الخير، وينهى عنها فى الشر ٠٠
فيقول :

{ مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا }
[الآية ٨٥]

والمعنى :
من يشفع شفاعة حسنة وهى : ما كانت فى دفع شر، أو جلب نفع، مع جوازها شرعاً.
يكن له نصيب منها أى : يكن له نصيب من ذلك الخير، الذى قام به، وترتب على شفاعته.
وفى الحديث : اشفعوا تؤجروا، ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء.
أيضاً :
ومن يشفع شفاعة سيئة وهى : ما كانت فى جلب ضر، أو منع نفع، أو كانت غير جائزة شرعاً.

يكن له كفل منها أى : يكن على صاحبها نصيب من إثمها.
وكان الله على كل شيء مقيتاً مقتدراً، أى : قادراً عليه.

*****

هذا ..
ولأن القتال كذلك .. قد تظهر فيه بادرة أخلاقية عند الكافرين ..
أو قد تظهر .. رغبة فى السلام منهم ..
وفى هذه الحالة ..
علينا ..
أن نقابل بادرة الخير عندهم .. بمثلها، أو بأحسن منها؛ دعوة لديننا، وإعلاماً بأخلاقنا.
وأن نقابل بادرة الصلح .. بمثلها، مع ملاحظة شروط السلام فى الإسلام؛ حقناً للدماء، وتحقيقاً لرسالة الإسلام.
ولذلك، يقول تعالى :

{ وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا }
[الآية ٨٦]

أى : إذا حييتم بتحية من سلام، أو هدية، أو حسن معاملة .. فحيوا بأحسن منها، أى : بسلام، أو هدية، أو معاملة، أو ردوا بمثل ما حييتم به.
حيث إن : المماثلة مفروضة، والزيادة مندوبة.
وفسر بعضهم التحية بالسلام فقط : لأنها هى التحية فى ديننا فى الدنيا وفى الآخرة.
ولا ريب أنه فى هذا الأمر : تأكيد على حسن الصلة بين الناس، وضرورة شيوع الأمن والمحبة بين النفوس، ومعاملة بعضنا البعض بمكارم الأخلاق، ومما يساعد على كل ذلك إفشاء السلام بين الناس.

* * *

وبعد أن حث الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم على الجهاد ..
وبعد أمر المسلمين بمشاركته فى هذا الجهاد ..
وبعد أن أمرهم بإظهار المودة والمحبة بينهم، وبين بعضهم البعض، وبينهم وبين من يتود إليهم.
بين سبحانه وتعالى : أنهم مجزيون على كل هذا فى يوم الجزاء.
فقال :

{ اللَّهُ لا إِلَـــهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثًا }
[الآية ٨٧]

أى : لا تقصروا فى عبادته، والخضوع لأمره ونهيه، فإن فى ذلك سعادتكم فى الدنيا، ونجاتكم فى الآخرة.

{.. وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثًا }

أي : لا أحد أصدق منه.
فيا ويح من : لم يوحد ربه، ولا يؤمن باليوم الآخر، ولا يمتثل لأوامر الله ونواهيه.

*****

إن الله سبحانه وتعالى : بعد أن ذكر أحكام القتال ..
وبعد أن ختم الله سبحانه البيان لها .. بالتأكيد على أنه لا إله إلا هو وحده، لا غيره .. يخشى ضرره، أو يرجى خيره، حتى تترك هذه الأحكام لأجله ..
بعد كل هذا ..
يذكر عز وجل هنا .. أنه لا ينبغى التردد من المؤمنين فى أمر المنافقين، وينكر عليهم انقسامهم – بخصوص قتلهم – إلى فريقين.
حيث يقول جل شأنه :

{ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً }
[الآية ٨٨]

أى : ما الذى جعلكم أيها المؤمنون تنقسمون بخصوص قتال المنافقين، الذين ظهر نفاقهم، إلى فريقين، وما لكم لا تجمعون على رأى واحد، وتقطعون بكفرهم.
روى الإمام أحمد عن زيد بن ثابت : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. لما خرج إلى أحد، رجع ناس قد خرجوا معه، ولم يقاتلوا الكفار، فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى موقفهم من هؤلاء فرقتين، فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول : لا .
فأنزل الله هذه الآية.
ينكر عليهم فيها رب العزة : انقسامهم هذا، وعدم قتل هؤلاء المنافقين.

خاصة :
والله أركسهم أى ردهم، وأعادهم إلى دورهم وبيوتهم.
بما كسبوا من الكفر والمعاصى؛ بسبب خذلانهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعدم قتالهم للكفار.
ومن هنا : كان حكمهم بجواز قتلهم.

ثم يقول العزيز الحكيم للمؤمنين منكراً ومعاتباً :

{.. أَتُرِيدُونَ أن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللّهُ .. ؟ }

والمعنى : أتريدون أن تجعلوه من جملة المهتدين ٠٠ من جعله الله ضالاً، فرده عن شرف الجهاد، وحكم عليه بالكفر، وأجاز قتله، وذلك : باللين معهم، ومسايرتهم فى موقفهم المخزى، وعدم قتلهم.
لا ينبغى لكم ذلك.
واعلموا جيداً ٠٠ أنه :

{.. وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً .. }

أى : من شاء الله إضلاله، بسبب عمله، فلا طريق له إلى الهدى.
وهؤلاء : لم يرد الله هدايتهم.
فكيف لا تكونون – أيها المؤمنون – صفاً واحداً أمامهم، ويداً واحدة عليهم.
هؤلاء أيها المؤمنون :

{ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا }
[الآية ٨٩]

نعم ٠٠ أنتم تنقسمون بخصوصهم، وتختلفون فى الحكم عليهم، وفيكم من يقول : لا نقتلهم.
بينما هم – فى الوقت ذاته – يودون ٠٠ لو تكفرون كفراً مثل كفرهم، وضلالاً لكم مثل ضلالهم؛ ليتساووا معكم؛ وتتساووا معهم، فلا يكون لكم فضلاً عليهم، وشرفاً عنهم.
ولذلك :

{.. فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ .. }

والمعنى : إذا كان حالهم هو هذا، ورغبتهم لكم أن تكفروا كما كفروا ٠٠ فلا ينبغى لكم أن توالوهم وتودوهم.
وهذا الحكم بخصوصهم مستمر، حتى يؤمنوا، ويعلنوا ولاءهم الكامل للإسلام ظاهراً وباطناً، ويهاجروا فى سبيل الله مع رسوله صلى الله عليه وسلم للقتال، مخلصين صابرين محتسبين.
وللعلم – أيها الأحبة الكرام – يقول العلماء : الهجرة فى سبيل الله على ثلاثة أوجه :
هجرة للمؤمنين فى أول الإسلام بالخروج من دار الكفر إلى دار الإسلام، كما فى قوله تعالى ٠٠٠ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ٠٠٠ [النساء : ١٠٠].
وهجرة للمنافقين : وهى خروج الشخص مع رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ صابراً محتسباً، لا لأغراض الدنيا، وهى : المرادة فى هذه الآية.

وهجرة عن جميع المعاصى : يقول صلى الله عليه وسلم : المهاجر : من هجر ما نهى الله عنه .

هذا ٠٠

فإن هاجر هؤلاء المنافقون مع النبى صلى الله عليه وسلم، وخرجوا معه لقتال الأعداء، صابرين، محتسبين لله : فبها ونعمت.

والأمر الآخر :

{.. فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ .. }

أى : فإن أعرضوا ورفضوا الهجرة فى سبيل الله، بمعنى رفضوا قتال الكفار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين، مع الإخلاص والصدق ٠٠ وأقاموا على ما هم عليه من النفاق، وارتدوا، وصرحوا بالكفر :

فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم فى الحل، أو فى الحرم؛ حيث إن حكمهم ٠٠ حكم سائر المشركين قتلاً وأسراً.

{.. وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا }

وهؤلاء بالطبع : لا يجوز لكم ٠٠ أن تتخذوا منهم ولياً، توالونه، وتتعاملون معه، وتتوددون إليه أبداً، ولا أن تتخذوا منهم نصيراً لكم تنتصرون به على عدوكم، أو صديقاً تأتمنونه على أسراركم، أو تتطبعون معه علاقاتكم ومعاملاتكم.

وبهذه الآية والتى قبلها : بين الله لنا – أيها المسلمون الكرام – الحكم الأصلى، فى المنافقين ٠٠ وهو: قتلهم، وعدم إعطائهم النصرة والولاء، وعدم قبولها منهم – كذلك – حتى يكونوا مؤمنين حقاً، علماً وعملاً.

*****

هذا ٠٠

وبعد أن ذكر الله تعالى هذا الحكم الأصلي فى المنافقين.

يذكر – سبحانه – صوراً : تدخل تحت هذا الحكم.

وصوراً – أخرى – يستثنيها – عز وجل – من هذا الحكم.

فمن الصور ٠٠ التى يستثنى فيها قتل المنافقين هذه الصورة.

حيث يقول العزيز الحكيم :

{ إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُونَكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً }

[الآية ٩٠]

أى : لا تقتلوا من المنافقين ٠٠ من لجأ إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق، يعنى: عهد، ومهادنة.
وذلك : لأن حكمهم يصبح كحكم من تعاهدتم معهم على عدم القتال والحرب.
وهذه : قمة الوفاء، ومراعاة العهود من الإسلام، والمسلمين بالطبع.
ومن الصور كذلك ٠٠ التى يستثنى فيها قتل المنافقين : هذه الصورة أيضاً:

{.. أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُونَكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ .. }

أى : لا تقتلوا من المنافقين ٠٠ قوماً حصرت صدورهم: أى : تضيق صدورهم ولا تستريح لقتال المسلمين، ولا يستريحون – أيضاً – أن يقاتلوا قومهم معكم٠٠
يعنى : هم لا لكم، ولا عليكم.
هؤلاء، وهؤلاء : من نعمة الله عليكم، ولطفه بكم أن كفهم عنكم.

{.. وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ .. }

أى : ولو شاء الله ٠٠لقوّى قلوبهم، وأزال عنها الضيق، وجعلهم يقاتلونكم.
ولكنه ٠٠ لم يفعل ذلك، بل كفهم عنكم، ومنعهم من قتالكم.

{.. فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً }

يعنى : ما داموا لم يتعرضوا لكم بقتال، وأعطوكم السلام منهم، والمسالمة معكم ٠٠ فليس لكم أن تقاتلوهم، ما بقوا على ذلك.

*****

ثم يذكر ربنا عز وجل : صورة ثالثة للمنافقين٠٠
تشبه الصورة السابقة فى الظاهر، ولكنها تختلف عنها فى الحقيقية.
حيث يقول جل شأنه :

{ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوَاْ إِلَى الْفِتْنِةِ أُرْكِسُواْ فِيِهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوَاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثِقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَـئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا }
[الآية ٩١]

أى : ستجدون من المنافقين ٠٠ فريقاً ثالثاً، يظهرون للنبى صلى الله عليه وسلم ولأصحابه الإسلام؛ ليأمنوا بذلك على دمائهم وأموالهم وذراريهم، جانب المسلمين.

وفى الوقت ذاته : يصانعون الكفار فى الباطن ·· فيعبدون معهم ما يعبدون من دون الله؛ ليأمنوا بذلك على دمائهم وأموالهم، وذراريهم، جانب الكفار.

وهؤلاء ··

{.. كُلَّ مَا رُدُّوَاْ إِلَى الْفِتْنِةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا .. }

أى : كلما دعاهم المشركون إلى قتال المسلمين ·· استجابوا لهم، وقاتلوا المسلمين، وصاروا عليهم أشد من كل عدو لهم.

هذا الفريق الثالث ··

أمر الله عز وجل المسلمين أن يوقفوهم عند حدهم ··

فقال :

{.. فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوَاْ أَيْدِيَهُمْ }

أى : هؤلاء ·· عليهم أن يفعلوا ثلاثة أشياء، هى :

١- أن يعتزلوا، أى : يتركوا قتالكم.
٢- أن يعلنوا الإسلام الكامل، ظاهراً وباطناً.
٣- أن يكفوا أيديهم عن إيذاء المسلمين، ومناصرة أعدائهم عليهم.

فإن فعلوها ·· فقد صاروا مسلمين.

وإن لم يفعلوها ·· فهم مرتدون.

وفى هذه الحالة : فحكمهم ··

قول رب العزة :

{.. فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثِقِفْتُمُوهُمْ .. }

أى : خذوهم واقتلوهم، حيث وجدتموهم، فى الحل، أو فى الحرم؛ حيث إن حكمهم ·· حكم سائر المشركين، قتلاً وأسراً.

{.. وَأُوْلَـــئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا }

وهؤلاء : قد انكشف حالهم، وافْتُضِحَ سِتْرُهم.

ولذلك : جعلنا لكم عليهم حجة واضحة، وتسليطاً ظاهراً؛ بسبب كفرهم وغدرهم، وإضرارهم بالمسلمين.

*****

أيها الأحبة فى الله ٠٠
بعد أن وضح الله عز وجل : أمر قتال الكافرين والمنافقين ٠٠
فإنه تبارك وتعالى : يبدأ فى التحذير – وبشدة – من قتل المؤمنين.
ويبدأ – أولاً – بالحديث عن القتل الخطأ.
فيقول عز من قائل :

{ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا }
[الآية ٩٢]

أى : ليس المؤمن كالكافر الذى تقدمت إباحة دمه، فلا يليق بمؤمن، ولا يصح منه ٠٠ أن يقتل مؤمناً إلا على وجه الخطأ، وعدم القصد إلى ذلك.
ولكن ٠٠
إذا حدث ذلك ٠٠ على سبيل الخطأ، ومن غير قصد.
فما الحكم ٠٠؟
يقول رب العزة :

{.. وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ .. }

فى هذه الحالة ٠٠ أى: حالة قتل المؤمن للمؤمن خطأ ٠٠
على القاتل ٠٠ واجبان :
الأول : الكفارة لهذا الذنب العظيم، حتى وإن كان خطأ.
وذلك ٠٠ بتحرير رقبة، أى : عتق رقبة، وإخراجها من الرق إلى الحرية، بشرط : أن تكون هذه الرقبة التى يعتقها ٠٠ مؤمنة.
والحكمة فى ذلك : أنه لما أخرج نفساً مؤمنة من جملة الأحياء لزمه أن يدخل نفساً مثلها مؤمنة فى جملة الأحرار؛ حيث إن إطلاقها من قيد الرق ٠٠ كإحيائها.
الواجب الثانى : الدية لأهل القتيل.
وذلك : عوضاً لهم عما فاتهم من قتيلهم، وخسروه بموته، بشرط : أن تسلم هذه الدية إلى ورثته، يقتسمونها بينهم، كما يقتسمون الميراث.
وعليه أن يدفع هذه الدية ٠٠ إلا فى حالة واحدة، وهى أن يتنازل عنها الورثة، صدقة منهم وتطوعاً.
ويلاحظ : أن هذا الحكم ٠٠ هو فيمن قتل مؤمناً خطأ، وكان يعيش بين قوم مؤمنين.
ولكن : لو كان المؤمن المقتول خطأ، يعيش بين قوم كافرين أهل حرب.

يعنى : كان مسلماً فى دار الحرب، ولم يهاجر إلى دار الإسلام، فقتله مسلم خطأ.
فما الحكم إذن ٠٠؟
يقول ربنا سبحانه وتعالى :

{.. فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ .. }

أى : إذا كان المقتول خطأ مؤمناً ، وهو فى دار الحرب :
فعلى القاتل ٠٠ واجب واحد فقط.
وهو : تحرير رقبة مؤمنة فقط.
ولا دية عليه ؛ لأن أولياءه من الكفار، أهل الحرب.
أيضاً : لو كان المؤمن المقتول خطأ ٠٠ يعيش بين قوم كافرين، بينهم وبين المسلمين عهود ومواثيق، ولا حرب بينهم.
فما الحكم – كذلك – فى هذه الحالة ٠٠؟

يقول ربنا سبحانه وتعالى :

{.. وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً .. }

أى : إذا كان المقتول خطأ مؤمناً ، وهو فى دار الكفر، ولكن بين المؤمنين وأهل الكفر هؤلاء عهد وميثاق على عدم الحرب، أو هدنة من الحرب.
فعلى القاتل ٠٠ واجبان :

الأول : الدية، تسلم لهم، بناءً على هذا العهد، ووفقاً لهذا الميثاق، وذلك : من باب الوفاء بالعهود والمواثيق.
والثانى : تحرير رقبة ٠٠ بشرط : أن تكون مؤمنة.

هذا حكم الله تعالى ٠٠ فى قتل الخطأ.
ولكن : ما الحكم ٠٠ إذا عجز القاتل عن تنفيذ هذا الحكم؟
وذلك : بسبب فقره، وعجزه عن التملك.؟
أولاً : بالنسبة للدية ٠٠ تدفعها عائلته، أى : أهله، يعنى : يقومون بدفعها عنه، إلا إذا تنازل عنها أهل القتيل، حسب قول الله تعالى إلا أن يصدقوا.
ثانياً : بالنسبة لتحرير الرقبة:

يقول تعالى :

{.. فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا }

أى : على القاتل – فى حال فقره، أو عدم وجود أرقاء، كما فى عصرنا هذا – عليه صيام شهرين متتابعين، لا إفطار بين أيامها.

وذلك : بدلاً عن عتق الرقبة.

هذا ..

وقد شرع الله ذلك : توبة لكم؛ ورحمة منه بكم، وهو العليم إذ يأمر، الحكيم إذْ يُقدِّر وإذ يُشَرِّع.

*****

أيها الأحباب الكرام ..

بعد أن بين الله عز وجل – كما رأينا – حكم القتل الخطأ ..

يبين لنا – سبحانه وتعالى – حكم قتل العمد، لو حدث ..

فيقول تبارك وتعالى :

{ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا }
[الآية ٩٣]

والمعنى : أن من قتل مؤمناً، قاصداً قتله بما يقتل به غالباً، عالماً بإيمانه، مستحلاً قتله، ولم يتب إلى الله تعالى : فهو كافر .. وعلى ذلك :

فجزاؤه أربعة أشياء، هى :

١ – دخوله جهنم خالداً فيها أبداً.

٢ – انتقام الله منه .. وهو المراد من قوله وغضب الله عليه.

٣ – وطرده من رحمة الله تعالى .. وهو المقصود بقوله ولعنه.

٤ – وأن يعد له عذاباً عظيماً .. وهو المذكور بقوله وأعدَّ له عذاباً عظيماً.

كل ذلك : لارتكابه أمراً عظيماً، وخطأً فاحشاً عظيماً.

روى الإمام أحمد، عن معاوية، قال : قال رسول الله رسول الله صلى الله عليه وسلم: كل ذنب عسى الله أن يغفره .. إلا الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً.

وروى النسائى وغيره، عن ابن مسعود، عن النبى صلى الله عليه وسلم، قال : يجيء المقتول متعلقاً بقاتله يوم القيامة، آخذاً رأسه بيده الأخرى، فيقول يا رب سَلْ هذا فيمَ قتلنى؟ قال : فيقول القاتل : قتلته لتكون العزة لك، فيقول ربنا: فإنها لى، ويجيء آخر متعلقاً بقاتله، فيقول: رب سَلْ هذا فيم قتلنى؟ قال : فيقول قتلته لتكون العزة لفلان، قال : فإنها ليست له .. بُؤْ بإثمه، قال : فيهوي فى النار سبعين خريفاً.

أما من قتل مؤمناً متعمداً، غير مستحل لدمه : فهو مؤمن، عاص، يستحق المقام الطويل فى جهنم، إلا أن يعفو الله عنه.

ويلاحظ : أن فى القتل ثلاثة حقوق ..

حق الله.

وحق القتيل.

وحق أوليائه.

فحق أوليائه : الدية، أو القصاص.

وحق الله تعالى : يسقط بالتوبة إن قبلها الله.

وحق القتيل : يبقى إلى يوم القيامة ٠٠ فإن شاء الله أن يرضى القتيل : أرضاه عن قاتله، وتنازل عن حقه، وإن شاء عذب القاتل بحق القتيل، وأدخله الله النار، ولكن لا يخلد فيها أبداً مثل الكافرين.

وعلى كل : فليحذر الإنسان ٠٠ من قتل أخيه المسلم حذراً بالغاً.

*****

أيها الإخوة والأخوات ٠٠

بعد أن بين الله تبارك وتعالى ٠٠ عقوبة القتل العمد ٠٠

يأمرنا عز وجل : أن نتبين ونتثبت إذا قاتلنا فى سبيله ٠٠

كما ينهانا : عن قتل من يعلن إسلامه ممن يقاتلونهم فى سبيل الله، وأن لا يرفضوا منه ذلك ٠٠ رغبة منهم فى تحصيل عرض من أعراض الدنيا، وهو – فى الوقت ذاته – نهى عما تؤدى إليه قلة المبالاة فى الأمور بصفة عامة.

حيث يقول سبحانه وتعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا }
[الآية ٩٤]

والمعنى : أيها المؤمنون ٠٠ إذا سافرتم للجهاد فى سبيل الله، فتبينوا الكافر من المؤمن، وتثبتوا أنكم تقاتلون الكافرين فقط، حتى لا تقتلوا مؤمناً خطأ، وأنتم لا تعلمون إسلامه بعد.

كذلك : لا تقتلوا من ألقى إليكم تحية السلام، علامة على إسلامه، ولا من انقاد لكم، ونطق بالشهادتين، علامة على إسلامه، وأنتم تقولون له : لست مؤمناً إنما تقولها وقاية لنفسك ومالك.

وهذا ٠٠ لكونكم تريدون عرض الحياة الدنيا ومتاعها الزائل.

أيها المؤمنون ٠٠ لا تفعلوا هذا، طمعاً فى الغنيمة فعند الله لكم مغانم كثيرة تغنيكم عن قتله، من أجل ماله.

خاصة ٠٠ وأنكم :

{.. كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ .. }

أى : أنكم أول ما دخلتم فى الإسلام، كنتم مثلهم، وسمعت من أفواهكم كلمة الشهادة، فحقنت دماءكم وأموالكم من غير انتظار للاطلاع على قلوبكم، ومعرفة حقيقة إيمانكم.

فمن الله عليكم بالاستقامة، والاشتهار بالإيمان.

فتبينوا وتثبتوا، وافعلوا بمن يدخل فى الإسلام، ومن يعلنه لكم، كما فعل بكم، واقبلوا منهم كما قُبِل منكم.

{.. إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا }

وهذا .. تهديد بعلم الله تعالى بما يخفى وما يظهر من هذا وذاك.

وهو تهديد يفيد : النهى عن المسارعة فى قتل هؤلاء، والدعوة إلى التثبت فى أمرهم، والتحرز والاحتياط فى قتلهم.

هذا ..

ولئن كانت الآية لها سبب خاص نزلت من أجله ..

فإن العبرة والعمل : بعموم لفظها، وليس بخصوص سببها، كما يقول العلماء.

*****

وبخصوص القتال فى سبيل الله – كذلك – أيها الأحبة ..

يبين الله عز وجل – من باب الحث على الجهاد فى سبيل الله – أن المجاهدين لا يستوون عنده مع القاعدين عن هذا الجهاد، إلا إذا كان قعودهم هذا لضرورة خارجة عن إرادتهم.

حيث يقول :

{ لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُـلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا }

[الآية ٩٥]

وهذا .. بيان لتفاوت طبقات المؤمنين ودرجاتهم عند الله تعالى، بحسب تفاوتهم فى الجهاد فى سبيله؛ ليأنف القاعد عنه، ويترفع بنفسه عن انحطاط رتبته عند الله، فيتحرك له؛ رغبة فى ارتفاع درجته.

والمعنى ..

لا يستوى القاعدون من المؤمنين عن الجهاد، فى منزلتهم عند الله، مع الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله.

غير أول الضرر أى : باستثناء أصحاب الأعذار – كالمرضى، وأصحاب العاهات، من : عمى ، أو عرج ، وخلافه – من هذه المفاضلة.

ومع ذلك :

{.. فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً .. }

أى : فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم فى الآخرة.
على القاعدين بسبب العذر.
درجة أى : فضيلة، لا يُقادر قدرها، ولا يعلم كنهها إلا الله سبحانه وتعالى.
وذلك : لأن المجاهد باشر الجهاد بنفسه وماله، مع النية، وأولو الضرر ٠٠ كانت لهم نية، ولكن لم يباشروا الجهاد، فنزلوا عن المجاهدين درجة .
ولكن ٠٠ مع هذا التفاضل :

{.. وَكُـــلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى .. }

أى : وكلا من المجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ونيتهم، وكذلك: القاعدين لعذر، المشاركين بنيتهم.
وعد الله هذين الصنفين، إنعاماً منه.
الحسنى أى : المثوبة الحسنى، وهى الجنة، مع اختلاف منازلهم فيها، لاستوائهما فى النية، وزيادة المجاهدين بالمباشرة.
وأما القاعدون من المؤمنين عن الجهاد فى سبيل الله لغير عذر.
فيقول عنهم رب العزة:

{.. وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا }

أى : أن الله تعالى فضل المجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، على القاعدين عن الجهاد بغير عذر ٠٠ أجراً عظيماً.
وكأن سائلاً يسأل ٠٠
ما هذا الأجر العظيم، الذى فضل الله به المجاهدين على القاعدين عن الجهاد، بغير عذر ٠٠؟

*****

ويجيب ربنا تبارك وتعالى بقوله :

{ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا }
[الآية ٩٦]

وهذا الأجر العظيم ؛ عبارة عن :

١-درجات منه أى : درجات من هذا الأجر، أو من الله تعالى، يَفْضُل بها المجاهد على القاعد عن الجهاد.

أخرج مسلم، والنسائى، وأبو داود ٠٠ عن أبى سعيد، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

٠٠٠ وأخرى يرفع الله تعالى بها العبد، مائة درجة فى الجنة، ما بين كل درجتين، كما بين السماء والأرض.

قال : وما هى يا رسول الله ٠٠؟

قال : الجهاد فى سبيل الله.

٢- ومغفرة أى : ومغفرة عظيمة، لما يفرط منهم من الذنوب، التى لا يكفرها سائر الحسنات، التى يأتى بها القاعدون.

وعلى هذا ٠٠ فهى تعد من خصائص المجاهدين.

٣-ورحمة أى : يرحمهم رحمة واسعة.

ثم يقول الغفور الرحيم :

{.. وكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا }

أى : غفوراً ٠٠ يقبل العذر.

رحيماً يوفر الأجر.

هذا ٠٠ وقبل أن نترك هذه الآيات الكريمة أيها الإخوة الكرام ٠٠

ننبه على أن هذه المفاضلات بين المجاهدين وغيرهم : تكون فى حالة ما إذا كان الجهاد فرض كفاية، وقد قام من يكفى من المسلمين به لتحقيق الهدف.

أما إذا كان الجهاد فرض عين، أو لم يقم من المسلمين به عندما يكون فرض كفاية ٠٠

فإن القاعدين عنه : يأثمون إثماً عظيماً، يستحقون به دخول النار .

*****

أيها الأحبة فى الله ٠٠

لما أمر الله عز وجل بالتبين فى الجهاد إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا مراعاة لحال من يكتم إسلامه لسبب من الأسباب، وهو مقيم بين الكفار ٠٠!!

فقد ناسب أن يبين تبارك وتعالى : حكم الإقامة للمسلمين الكفار؛ ليرفع همم أهل الإيمان إلى الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام.

حيث يقول جل وعلا :

{ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا }

[الآيات ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩]

حوار بين الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم وبين الملائكة، والذين ظلموا أنفسهم هؤلاء : هم الذين أسلموا ولم يهاجروا من مكة إلى المدينة، مع أن الهجرة : كانت ركناً، أو شرطاً فى الإسلام، ثم نسخ.

ولذلك : فهم كفرة، أو عصاة.

ويدخل فيهم الآن : كل من يقيم فى دار كفر لسبب من الأسباب، ولا يستطيع أن يقيم أحكام دينه، ولا أن يؤدى فرائض الله.

هؤلاء ..

تقول لهم الملائكة موبخة فيم كنتم أى : أكنتم مع المسلمين أم مع المشركين، الذين كنتم تطيعونهم، وتجاملونهم بترك أحكام الإسلام؟.

فيجيبون قائلين كنا مستضعفين فى الأرض أى : كنا عاجزين عن الهجرة، عاجزين عن إقامة الدين.

فتقول لهم الملائكة على سبيل التوبيخ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها..؟

أى : أنكم كنتم قادرين على الهجرة ، والخروج من دار الكفر إلى بلد لا تمنعون فيها من إظهار دينكم؛ حيث إن الإنسان لا يعدم حيلة إن صمم على شيء.

يقول الله تعالى قوله الفصل وحكمه العدل :

فأولئك مأواهم جهنم لتركهم الهجرة، وتركهم إقامة أحكام الدين.

وساءت مصيراً ومقراً، وسكناً، يصيرون إليه ويقيمون فيه.

ويلاحظ :

أن الآية تدل على أن من لم يتمكن من إقامة دينه فى بلد كما يجب وعلم أنه يتمكن من إقامته فى غيره : وجبت عليه الهجرة.

وبعد أن اعتذر هؤلاء كذباً بأنهم كانوا مستضعفين فى الأرض ..!!

بين الله عز وجل حكمه فى المستضعفين حقيقة، ولطفه بهم، وكرمه معهم.

حيث يقول :

{إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً } [الآية ٩٨]

أى : يستثنى من الذين لم يهاجروا، فلا يدخلون جهنم: المستضعفون حقيقة، سواء كانوا من الرجال أو النساء أو الولدان.

الذين لا يستطيعون حيلة فى الخروج والهجرة؛ إما لفقرهم وإما لعجزهم.

ولا يهتدون سبيلاً أى : ولا معرفة لهم بوسائل الحيل ومسالكها.

{ فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوًّا غَفُورًا } [الآية ٩٩]

وهذا .. وعد من الله أن يعفو عنهم، وأن يغفر لهم؛ لعجزهم حقيقة.

*****

أيها الأحبة فى الله ..

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى ٠٠ أن من أقام بين ظهرانى الكفار، وليس متكمناً من إقامة الدين، والعمل بأحكامه وتعاليمه، فى الوقت الذى هو قادر فيه على الهجرة من بينهم، ومفارقتهم إلى حيث يقيم دينه، ويعمل بأحكامه ٠٠ فهو ظالم لنفسه !!

بعد ذلك ٠٠

بدأ فى الحضّ على الهجرة، ورغبَ فيها، مبيناً أن المؤمن حيثما ذهب وجد مَنْدوحَة، وملجأ يتحصن فيه، ويراغم به أعداء الله، وكذلك : رزقاً واسعاً.

حيث يقول جل وعلا :

{ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا }

[الآية ١٠٠]

أى : إن الذى يهاجر فى سبيل الله، فراراً بدينه، وبعداً عما يكره ٠٠ يرغم بذلك أنوف قومه، الذين لا يحبون منه ذلك، كما أنه ٠٠ يجد سعة فى رزقه، وإظهار دينه ونصرته، وراحة فى صدره، حيث يشعر بالأمن بعد الخوف الذى كان يعانى منه.

هذا ٠٠ إذا كتبت له النجاة منهم، أو ظل حياً.

{.. وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ .. }

يعنى : أن من يخرج من بيته مهاجراً حيث أمر الله ورسوله، ثم يدركه الموت وهو فى الطريق إلى مقصده، ولو كان حتى خارج باب بيته : فقد حصل له الأجر من الله تعالى على هجرته هذه، حيث إن الأعمال بالنيات.

{.. وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا }

أى : يغفر سبحانه وتعالى بالعمل، ويرحم بالنيّة.

وقد قال العلماء – أيها الأحبة الكرام – كل هجرة ٠٠ لطلب علم، أو حج، أو جهاد، أو فرار إلى بلد يزداد فيه: طاعة، أو قناعة، أو زهد، أو ابتغاء رزق طيب ٠٠ فهى هجرة إلى الله ورسوله.

وإن أدركه الموت وهو فى طريقه : فقد وقع أجره على الله.

*****

وبعد ٠٠

وبعد أن أمر الله بالجهاد، ورغب فى الهجرة : أردف ذلك ببيان كيفية الصلاة عند الضرورات، من باب التيسير والتخفيف٠٠

فقال :

{ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا }
[الآية ١٠١]

وإذا ضربتم فى الأرض أى : إذا سافربتم لأى غرض، وبأية وسيلة، فى الأرض، أو فى البحر، أو فى الجو.
فليس عليكم جناح أى : يباح لكم دون حرج، ودون إثم يقع عليكم، بل لكم٠٠
أن تقصروا من الصلاة أى : تتخففوا من بعض ركعاتها، حيث تصلون الرباعية ركعتين فقط.
وذلك ٠٠
إن خفتم إن يفتنكم الذين كفروا أى : إن خشيتم أن يقصدكم الكفار بقتل أو جرح أو خلافه.
ولهذا : جعل بعض الناس ٠٠ الخوفَ شرطاً لجواز قصر الصلاة.
وليس ذلك لهم، ولا منهم بصواب.
بل إن القصر لمجرد السفر، كما هو عند أهل السنة، حصل خوف أو لا.
فقد أخرج الإمام مسلم، وأصحاب السنن، وأحمد، عن يعلى بن أمية قال : سألت عمر بن الخطاب ٠٠ قلت : يقول تعالى ٠٠ فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الناس ٠٠ وقد أمن الناس ٠٠ يعنى : وقد زال الخوف، فلم القصر ٠٠؟
فقال لى عمر رضى الله عنه : عجبتُ مما عجبتَ منه، فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فقال : صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته.
وبهذا ٠٠ علم أن قصر الصلاة : يكون فى حال الأمن، كما هو فى حال الخوف.

{.. إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا }

وصدق الله تعالى: فما من عداوة أوضح من عداوة الكافر للمؤمن.

*****

هذا ٠٠
ولأن صلاة السفر هذه، أى : صلاة القصر ٠٠ ذكرت فى ضمن سياق آيات القتال ٠٠
كما أنها ذكرت مجملة دون تفصيل ٠٠
فقد بين الله عز وجل كيفيتها فى ميدان القتال، وساحة الحرب.
قائلاً :

{ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا }

[الآية ١٠٢]

والخطاب هنا للحبيب صلى الله عليه وسلم من باب التشريف، ولكل المسلمين من بعده من باب الأمر إلى يوم القيامة.

والمعنى :

إذا أراد جيش المسلمين الصلاة، وأقيمت هذه الصلاة ..

فلتقم طائفة منهم معك أى : فاجعل الجيش طائفتين، طائفة منهم تقوم معك للصلاة، فصل بها.

وليأخذوا أسلحتهم أى : ليأخذ الجميع سلاحه معه، الذين لا يصلون سلاحهم معهم، والذين يصلون كذلك : سلاحهم معهم بما لا يشغلهم عن الصلاة.

فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم أى : فإذا سجدت الطائفة الأولى، فالثانية من ورائها فى مواجهة العدو، حتى تكمل الأولى صلاتها.

ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا أى الطائفة الثانية التى كانت تحرس، ولم تصل بعد.

فليصلوا معك كما صلت الطائفة الأولى.

وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم أى : ليأخذ الجيش كله حذره وانتباهه من العدو، كما يأخذ المصلون معهم سلاحهم بما لا يشغلهم عن الصلاة.

وكان هذا التفصيل ..

وكان هذا التشريد ..

لأن الكافرين .. لا أمان لهم، ولا تهاون معهم.

{.. وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً .. }

نعم .. الكافرون يودُّون لو تغفلون عن أسلحتكم، وتهملون استعدادكم .. فيميلون عليكم ميلة واحدة، ويأخذونكم على غرّة، ويهزمونكم.

* * *

هذا .. هو الحكم فى صلاة الحرب.

ولكن : قد يكون حمل السلاح شاق على المصلين، لسبب أو لآخر

فما العمل ..؟

يقول الحكيم العليم :

{.. وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ .. }

الله أكبر ٠٠!!

رخص الله للمسلمين المحاربين فى وضع الأسلحة، وعدم حملها معهم، ساعة الصلاة ٠٠ إن ثقل عليهم حملها؛ بسبب ما يصيبهم من مطر، أو يضعفهم من مرض.

بشرط : أن يأخذوا حذرهم، وكامل انتباههم من عدوهم؛ لئلا يغفلوا فيهجم عليهم، ويهزمهم.

{.. إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا }

وهذا ٠٠ تقوية لقلوب المؤمنين ٠٠

حيث يبين سبحانه وتعالى ويخبر ٠٠ أنه هو الذى يذل الكافرين ويهينهم.

وفى ذلك : إعلام للمؤمنين ٠٠ أن قدرة الله غالبة، وأن الأمر بالحذر، ليس لتوقع غلبة الكفار عليهم، إنما هو من التعبد لله تعالى، وطاعة أوامره عز وجل.

* * *

ثم يقول تعالى :

{ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا }

[الآية ١٠٣]

أى : فإذا فرغتم من الصلاة، وانتهيتم منها، فلا تغفلوا عن ذكر الله تعالى، بل داوموا على ذكره فى جميع الأحوال.

كذلك :

{.. فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا }

أى : فإذا زال الخوف، أو انتهت الحرب ٠٠ فأتموا صلاتكم جماعة بطائفة واحدة، حيث إن الصلاة محددة بأوقات معلومة، وكيفيات معلومة، وفرضيات مؤقتة.

*****

أيها الكرام ٠٠

بعد أن تعرضنا إلى حديث المولى سبحانه وتعالى عن القتال فى سبيل الله ٠٠

وبعد أن تعرضنا كذلك وعرفنا كيفية الصلاة أثناء الحرب ..
وبعد أن نبهنا رب العزة على عداوة الكافرين للمؤمنين ..
يختم السياق فى هذه الموضوعات .. بهذه الآية الكريمة ..

{ وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا }
[الآية ١٠٤]

يعنى : لا تضعفوا، ولا تتوانوا فى طلب الكفار، وقتالهم، ولا تظنوا أنكم تتألمون من القتال، وما يحدث فيه من جروح، وموت، أنتم فقط، بل هم كذلك .. يتألمون أيضاً.
وإذا كانوا هم يصبرون عليه، ويواصلون قتالكم .. فلم لا تصبرون مثل صبرهم، بل أنتم أولى منهم بالصبر والتجلد والتحمل.
خاصة .. وأنكم ترجون من الله الثواب العظيم؛ بسبب ما تجاهدون من أجله، وهو إظهار دين الله على سائر الأديان، وإعلاء كلمته فى دنيا الناس أجمعين، وهم لا يرجون إلا باطل الدنيا وزخرفها، واتباع الشيطان والهوى فقط.
وكان الله عليماً يعلم مصالحكم وأعمالكم، ما تظهرون منها وما تسرون، لا يضيع عنده ثوابها.
حكيماً فيما يأمر به، وينهى عنه.
فجدوا فى : الامتثال لذلك .. فإن فيه : عواقبا حميدة، وفوزاً بالمطلوب.

*****

وبعد كل هذا ..
يرد الله عز وجل .. على من يهمل قضايا الحكم بما أنزل الله ..
حيث يبين – فيما يلى – الحكمة من إنزال الكتاب بالحق على رسوله صلى الله عليه وسلم ..
وهى : أن يحكم به؛ حيث إنه يتضمن الحق فى خبره، وفى طلبه.
إذ يقول ربنا تبارك وتعالى :

{ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا * وَاسْتَغْفِرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا }
[الآيتان ١٠٥ ، ١٠٦]

أى : أنزلنا إليك يا محمد القرآن، حق من عند الله، متضمن للحق، فيما أخبر ، وفيما طلب، وفيما شرع.
لتحكم بين الناس – بما عرفك فيه، وأوصى إليك منه – فى كل أمر من أمور الناس، وقضاياهم.

{.. وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا }

أى : ولا تكن عن العصاة مدافعاً، حيث إن كل عاص لله تعالى : خائن.

وعلى هذا ٠٠ فقد تتهاون فى تحرِّى الحق، وأنت بصدد الحكم – اغتراراً بقوة بدل الخائنين فى الخصومة – لئلا تقع فى ورطة الدفاع عنهم.

ويؤيد هذا حديث أم سلمة ٠٠ الذي يقول فيه صلى الله عليه وسلم :

إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلىّ، ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضى بنحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً : فلا يأخذه، فإنما اقطع له قطعة من النار.

{ وَاسْتَغْفِرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا }

أى : واستغفر الله من أى خاطر يخالف هذا التوجيه.

إن الله كان غفوراً لما يهم به العبد ما لم ينفذه.

رحيماً حيث لم يكلف أحداً بما لا يطيق.

* * *

ثم يقول تعالى مشدداً فى هذا النهى :

{ وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا * هَاأَنتُمْ هَـؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً }

[الآيات ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩]

هذا خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ٠٠ وهو أعدل الناس وأكملهم، من باب المبالغة فى تحذير الحكام والقضاة، من هذه الصفة السيئة.

الذين يختانون أنفسهم أى الذين يعود ضرر المعصية والخيانة، وقوة الحجة فى الإقناع بما ليس لهم عليهم لا على غيرهم.

حيث إن الله يبغض من اعتاد الخيانة، ومارسها، وألفها، ورضيت نفسه اقتراف السيئات.

*****

ثم يبين رب العزة ٠٠ أحوال هؤلاء الخائنين، وكشف سترهم، وعاب فعلهم، حتى نحذرهم، ولا يكون – أبداً – دفاعا عنهم.
بقوله جل وعلا :

{ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ .. }

أى : يستترون عن اجتراحهم الآثام من الناس؛ حياءً منهم، أو خوفاً من ضررهم.
ولا يستخفون من الله وهو معهم أى : ولا يستترون من الله تعالى، ويستحيون منه، فيتركونها؛ وهو عالم بهم، مطلع على أسرارهم؛ وذلك : لضعف إيمانهم.
إذ يبيتون ما لا يرضى من القول إذ يبيتون ويخفون فى أنفسهم ما لا يرضى الله تعالى.
هؤلاء ٠٠ يتوعدهم ربنا عز وجل على عظيم جرمهم.
فيقول :

{.. وكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا }

أى : إن الله ٠٠ حافظ لأعمالهم، محيط بها، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ٠٠ فكيف بمن لا يستحيون منه وهم يعصونه، ويدبرون فى معصيته ٠٠؟
ومن رحمة الله تعالى بالمؤمنين ٠٠
أنه يحذرهم ٠٠ من مساعدة هؤلاء الخوّانين، أو التعاطف معهم.
حيث يقول :

{هَاأَنتُمْ هَـؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ؟}

أى : افترضوا أنكم دافعتم عنهم فى الحياة الدنيا، وهم آثمون ٠٠ فمن يدافع عنهم فى الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه ٠٠؟
يعنى : لا أحد يدافع عنهم، ولا أحد يكون وكيلاً عنهم فى رد عذاب الله لهم.

*****

وبعد ذلك ٠٠
يرغب ربنا فى التوبة إلى الله من الذنوب ٠٠
حيث يقول :

{ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا }
[الآية ١١٠]

أى : ومن يخطئ، ويذنب أو يعمل شيئاً قبيحاً يظلم به غيره، أو يظلم به نفسه، ثم يندم، ويرجع إلى ربه، ويستغفر الله ‧‧ يجد باب التوبة مفتوحاً، وعفو الله فى انتظاره، وغفران الله نصيبه، ورحمته واسعة.
وهذا بيان للمخرج من وبال الذنوب، وترغيب فى التوبة إلى الله.

* * *

وهناك تحذير عام من ارتكاب الذنوب، واقتراف الآثام ‧‧ ببيان ضررها ‧‧
يقول ربنا تبارك وتعالى :

{ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا }
[الآيتان ١١١ ، ١١٢]

أى : من يعمل الإثم، ويرى أنه قد كسبه وانتفع به ‧‧ فإنما كسبه، وبال عليه، وضرر لا نفع فيه.
وكان الله عليماً بمن أذنب، عليماً بذنبه.
حكيماً إذ حرَّم الإثم، وبين عقوبته، ومن حكمته تعالى أنه لا يعاقب بالذنب إلا صاحبه.
كذلك ‧‧

{ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا }

أى : ومن يعمل خطيئة بلا تعمد، أو إثماً متعمداً به، قاصداً له ‧‧
ثم يرم به بريئاً أى : يتهم بهذا الذنب، أو الخطيئة غيره من الأبرياء، ويزعم أن هذا البريء هو الذى فعله ‧‧ فقد ارتكب بذلك وزراً وذنباً واضحاً.
ويلاحظ : أن هذا قد فشا وكثر بين الناس فى هذا الزمان، فلا حول ولا قوة إلا باللله ‧‧!!
وما ذلك : إلا لترك هداية الدين، وقلة الوازع النفسى، والغفلة عن الأوامر والنواهى التى جاءت بها الشريعة الغراء.

*****

هذا ‧‧
وبعد أن ذكر الله عز وجل هؤلاء العصاة، وبين محاولاتهم زحزحة النبى صلى الله عليه وسلم عن الحق ‧‧!!
يبين ربنا عز وجل فضله ونعمته على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فيقول :

{ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا }

[الآية ١١٣]

أى : إنه بفضله ورحمته عليك صرف نفوس الأشرار، عن الطمع فى إضلالك، والهمّ بذلك، ومحاولتهم فيه.

حيث إنه : إذا توجهت همتهم إلى تلبيس الحق على شخص، ومحاولتهم صرفه عنه ٠٠ احتاج إلى بعض الوقت لكشف حيلهم، وتمييز تلبيسهم، حتى يظهر الحق، وينجلى الصواب من الخطأ، ومن ثمَّ مقاومتهم، فيضيع وقت هو فى أشد الحاجة إليه لصرفه فى عمل نافع.

ولهذا ٠٠ تفضل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم، ورحمه بصرف كيد الأشرار عنه، ومحاولتهم إبعاده صلى الله عليه وسلم عن صراط الله، الذى أقامه عليه.

كما أنه : ليست محاولاتهم هذه فى صرفك عن الحق ٠٠ إلا انحراف منهم هم عن الصراط السوى، وضلال لهم عما هداهم إليه الإسلام.

{.. وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ .. }

أى : إنهم لا يضرونك بشيء مما أرادوه ٠٠ إن وقفت عند حدود الله، وعملت بما ظهر لك، ولم يخطر ببالك أن الحق والحقيقة على خلاف ذلك.

{.. وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا }

وبهذا ٠٠ يبين الله تعالى عظيم ما خص به محمداً صلى الله عليه وسلم من الفضل ٠٠

حيث يقول له :

وأنزل الله عليك القرآن "فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم".

والحكمة أى : السنة، المبينة الموضحة، وصدق الله، القائل وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم [النحل : ٤٤].

إضافة إلى ذلك :

وعلمك ما لم تكن تعلم أى : عملك بأنواع الوحى إليك ما لم تكن تعلم، من أمور الدين والشرائع، وطرق إبطال كيد الخائنين.

وكان فضل الله عليك عظيماً فيما علمك إياه، وفيما أنعم عليك به، وإذّ أرسلك إلى الناس كافة، بشيراً ونذيراً، وجعلك خاتم النبيين، واختصك بمزايا لا تدخل تحت الحصر.

ولذا ٠٠

يجب عليك أن تكون أعظم الناس شكراً له.

كما يجب على أمتك مثل ذلك ٠٠ ليكونوا خير أمة أخرجت للناس قدوة لغيرهم فى جميع وجوه الخير، التى تصلح البلاد، وتسعد العباد.

*****

أيها الأحبة فى الله ٠٠
فى الآية السابقة : يبين لنا ربنا عز وجل ٠٠
أنه أنزل على نبينا صلى الله عليه وسلم الكتاب والحكمة ٠٠
وأنه علمه صلى الله عليه وسلم ٠٠ ما لم يكن يعلم ٠٠
وأن فضل الله عليه كان عظيماً ٠٠
وهذا ٠٠ كله خير ٠٠
وهو سبحانه وتعالى : يحدد إطار الخير فى أحاديث الناس بعضهم مع بعض.
فيقول تبارك وتعالى :

{ لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا }
[الآية ١١٤]

النجوى والتناجى : هو ما يدور بين الناس من أحاديث.
وقد نفى الله عز وجل الخيرية فيه، وعنه، إلا فى ثلاث حالات ، هى :
أن تكون هذه النجوى : أمرا بصدقة ٠٠ فهذه فيها خير.
والصدقة هنا ٠٠ تشمل : الزكاة المفروضة، وصدقة التطوع.
أو أن تكون هذه النجوى : أمرا بمعروف ٠٠ فهذه فيها خير.
والمعروف هنا ٠٠ شريعة الله، ودينه، ومن ذلك : القرض الحسن، وإغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم، وكل جميع تقره الشريعة.
أو أن تكون هذه النجوى : إصلاحا بين الناس ٠٠فهذه – ثالثاً – فيها خير.
ثم يبين ربنا جزاء المتناجين بهذه الأمور الخيرة وأشباهها.
فيقول :

{.. وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا }

أى : من تكون نجواه بهذه الأمور، وفى شأنها، وهو مخلص لله تعالى فيها، لا يرجو إلا مرضاة ربه سبحانه وتعالى، لا يريد بذلك : رياءً، ولا سمعة، ولا رئاسة : فثوابه عند الله عظيم.

*****

وإذا كان هذا الوعد من الله تعالى للمتناجين – فيما بينهم – بالخير ٠٠

فإن وعيد الله تعالى وتهديده ‏٠٠ للمتناجين بالشر : توضحه الآيات التالية ‏٠٠
حيث يقول عز من قائل :

{ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا }
[الآية ١١٥]

أى : ومن يخالف الرسول صلى الله عليه وسلم، فيما جاء به من القرآن، أو وضحه وبينه من السنة النبوية، ويسلك غير الطريق الذى اجتمعت عليه الأمة المحمدية، فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً ‏٠٠!!
واتبع – فى ذلك الوقت – هواه ‏٠٠!!
يجازيه الله عز وجل على هذا ‏٠٠ باستدارجه فى الدنيا، وتركه – بعد هذا الوضوح للحق، واختياره السيء – وما اختار، كما يجعل النار مصيره فى الآخرة، وذلك : لمخالفته الحق، الذى لا يزيغ عنه إلا هالك.

*****

ولأن من يخالف الرسول صلى الله عليه وسلم، ويتبع غير سبيل المؤمنين منحرف عن الصراط المستقيم ‏٠٠

فإن ربنا عز وجل ، يبين : أن سبب الانحراف ‏٠٠ هو اتباع الشيطان، وأن رأس الانحراف ‏٠٠ هو الشرك بالله، وأنه سبحانه يغفر ما عدا ذلك ولمن شاء.
فيقول :

{ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا }
[الآية ١١٦]

والمعنى : أن الله لا يغفر لمن مات على الشرك أبداً، أما ما دون الشرك بالله ‏٠٠ فالله عز وجل يغفر جميع الذنوب والخطايا لمن يشاء من عباده.
ولهذا من يشرك بالله فقد انحرف عن الصواب، وضل فى فهمه، وتصوراته، وسلوكه ضلالاً بعيداً عن الحق.
هؤلاء الذين أشركوا ‏٠٠
من يدعون لقضاء حوائجهم، وتفريج كرباتهم ‏٠٠؟!!

{ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا * لَّعَنَهُ اللّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا * وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ

اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا * أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا }

[الآيات ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١]

نعم ·· هؤلاء ما يدعون إلا أمواتاً لا تجيبهم، أو إناثاً من الأصنام، أو الأبقار، أو الملائكة ·· لا تنفعهم، أو أهواء أضلتهم.

وهم فى الحقيقة ما يعبدون وما يدعون إلا شيطاناً مريداً أى : عارياً عن الخير، أغراهم على عبادة الأصنام، أو الكواكب، أو عبادة أهوائهم.

هذا الشيطان ··

لَّعَنَهُ اللّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا

أى : جمع هذا الشيطان بين صفتين :

الأولى : أن الله طرده من رحمته، وأخرجه من جنته.

الثانية : أن سعيه شر فى شر، حيث قال لربنا عز وجل لأتخذن من عبادك أى : لأُغْوينَّ من عبادك نصيباً مفروضاً قدراً معيناً، أبعده عن عبادتك ورحمتك.

بل زاد قائلاً :

{ وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ }

أى : يقول هذا الشيطان لربنا تبارك وتعالى عن بنى آدم ··

ولأضلنهم أى : أصرفهم عن عبادتك، وصحيح العقيدة، وأشغلهم بالأمانى الباطلة عن الدلائل الموصلة إلى الحق، وإلى الصراط المستقيم، وذلك : بالوسوسة والتزيين للباطل.

ولأمنينهم أى : ألقى فى قلوبهم الأمانى الكاذبة ·· من طول الأعمار، وبلوغ الآمال، وتحقيق الأهداف بغير أخذ فى الأسباب، وأشغلهم بالاستعجال فى نوال اللذات الحاضرة الآثمة، وأسوف لهم التوبة، وأبعدهم عن العمل الصالح.

ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام أى : آمرهم بارتكاب المناهى، ومباشرة المخالفات، مثل : تقطيع آذان الأنعام، وهى ما كان يفعله أهل الجاهلية، وحرمها الله فى قوله ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب [المائدة : ١٠٣].

ولآمرنهم فليغيرن خلق الله أى : أصرف الناس عن فطرة الله التى فطر الناس عليها، وهى الإسلام، أو أجعلهم يرتكبون ما يغيرون به خلق الله لهم، من : تشبه الرجال بالنساء، والنساء بالرجال، والوشم، والنمض، وخلافه.

ولأن من يزين له الشيطان هذه الأشياء، ويستجيب له فيها، ويفعلها ·· مخالف لأوامر الله وشرعه، وفطرته.

فقد اتخذ الشيطان ولياً له، وموجهاً لتصرفاته.

ولهذا ٠٠ يحذره الله من ذلك ٠٠ قائلاً :

{ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا }

نعم ٠٠ خبرونى يريكم ٠٠ أي خسارة أعظم للإنسان، من خسارة الدنيا بضياع الهداية، ومن خسارة الآخرة بدخول النار والعياذ بالله تعالى ٠٠؟
لا شيء والله أبداً.
هذا الشيطان ٠٠

{ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا }

أى : يزين لهم المعاصى، ويوسوس لهم ٠٠ أن لا جنة ولا نار، ولا بعث، ولا حساب.
وما ذلك : إلا التغرير بعينه، والتزييف الواضح؛ حيث يريهم الأمر على خلاف حقيقته، ومن ثَمَّ ينخدعون به.

{ أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا }

هؤلاء المستجيبون للشيطان، المنخدعون بوسوسته، المنفذون لإضلاله لهم: مستقرهم جهنم لا يجدون عنها محيصاً لا مفر منها، ولا مصرف لهم عنها، بل هى دارهم ومقرهم.

*****

وإذا كان هذا جزاء المستجيبين لغواية الشيطان وإضلاله ٠٠
فإن جزاء من يحذره، ويبتعد عن غوايته، ويتبع تعاليم ربه ٠٠ توضحه الآية التالية :

{ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً }
[الآية ١٢٢]

أى : إن الذين وثقوا فى ربهم، وعملوا بشرعه، واتبعوا تعاليمه، وقاموا بعمل الصالحات ٠٠التى تسعد العباد، وتصلح البلاد، وخالفوا الشيطان، فلم يطيعوه بالكفر، أو عمل السوء.
هؤلاء : سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار بلا زوال لهم عنها، أو انتقاص لهم بفضل منها.

{.. وَعْدَ اللّهِ حَقًّا .. }

أى : هذا الفضل ٠٠ وعد من الله تعالى لهم، وإنعام منه سبحانه عليهم، ووعد الله واقع لا محالة.

{.. وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً }

يعنى : ليس هناك أصدق من الله تعالى ٠٠ فى وعد، ولا فى قول أبداً.
ولذلك ٠٠ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول فى خطبته :
إن أصدق الحديث : كلام الله، وخير الهدى : هدى محمد صلى الله عليه وسلم، وشرَّ الأمور : محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار.

*****

أيها الأحباب الكرام ٠٠
لما نزلت هذه الآية الكريمة، التى قرأناها : قال بعض أهل الكتاب للمسلمين: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم ٠٠ فنحن أولى بالله وثوابه منكم.
وقال بعض المسلمين لأهل الكتاب : نبينا خاتم النبيين، وكتابنا يقضى على سائر الكتب، ونحن آمنا بكتابكم ولم تؤمنوا بكتابنا ٠٠ فنحن أولى بالله، وثوابه منكم.
فأنزل الله تعالى قوله الكريم :

{ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا }
[الآيتان ١٢٣ ، ١٢٤]

أى : ليس أمر الثواب من الله تعالى ٠٠ بأمانيكم يا مسلمون، ولا بأمانى أهل الكتاب، ولا بمجرد التفاخر والتباهى، بدون عمل وطاعة.
بل هذا الأمر ٠٠ وفق القاعدة التالية :

{.. مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا }

أى : من يشرك بالله تعالى، أو يرتكب المعصية أياً كانت : يعاقب عليها الجزاء العادل، هذا من جهة.
ومن جهة أخرى ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً يتولى أمره، ويدافع عنه، أو نصيراً يقيه عذاب الله وعقابه.
كذلك :

{ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا }

أى : ومن يعمل من الصالحات، قدر ما يطيق، سواء كان ذكراً أو أنثى، وهو مؤمن، غير كافر : فأولئك فقط يدخلون الجنة جزاءً لهم.
ولا يظلمون لا هؤلاء ولا هؤلاء نقيراً أى : أى ظلم ولو كان صغيراً مثل : النقرة فى ظهر نواة التمرة.
وبهذا ..
ظهر واضحاً : أن الدين .. ليس بالتمنى، ولا بالتحلى، ولكن ما وقر فى القلب وصدقته الأعمال.

*****

ثم يبين ربنا عز وجل : أنه لا أحسن ديناً مما اجتمع له أمران .. إخلاص العمل لله، واتباعه فى هذا العمل لشرع الله.
حيث يقول :

{ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً }
[الآية ١٢٥]

نعم .. لا أحد أحسن ديناً ممن اجتمع له الإسلام والإحسان والاتباع لملة إبراهيم عليه السلام، الذى كان مائلاً إلى الحق، تاركاً الأديان الباطلة.

{.. وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً }

يعنى : وقد اصطفى الله إبراهيم عليه السلام، وجعله خليلاً له، لموافقته لله تعالى، ومنَّ عليه بسلامة الفطرة، وقوة العقل، وصفاء الروح، وكمال المعرفة، وصدق التوحيد.
وفى هذا .. تأكيد لوجوب اتباع ملته عليه السلام، وسلوك طريقته؛ حيث إن من أكرمه الله باتخاذه خليلاً .. كان جديراً أن تتبع ملته، ويقتدى به فى طريقته.

* * *

هذا ..
ولأن اتخاذ الله إبراهيم خليلاً .. كان تشريفاً له، ومكافأة له على حسن عبوديته، وليس لاحتياج الله إلى ذلك؛ لأنه منزه عن ذلك .. إذ هو المالك لكل شيء.
فقد قال سبحانه وتعالى :

{ وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا }

[الآية ١٢٦]

أى : كل ما فيهما ملك له، ومن خلقه، مهما تعددت المخلوقات، واختلفت صفاتها ٠٠ إلاّ جميعها عابدة له، خاضعة لأمره ومشيئته.

{.. وَكَانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا }

لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض، ولا أصغر من ذلك، ولا أكبر.

*****

أيها الأحبة فى الله ٠٠

السورة التى نفسر آياتها الكريمة – كما تعرفون – هى سورة النساء ٠٠

وقد بدأت – كما عرفنا سابقاً – بذكر الأحكام المتعلقة بالنساء، واليتامى، والقرابة ٠٠ إلخ.

ثم من قوله تعالى واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ٠٠ الآية، إلى هنا : كان الحديث عن أحكام عامة فى أسس الدين، وأصوله، وأحوال أهل الكتاب، والمنافقين، والقتال.

ثم ٠٠

ثم بعد ذلك : يعود الكلام من الآية الآتية إلى بيان أحكام خاصة بالنساء.

وكأن هذا الفاصل الطويل : للإيحاء بأن أحكام النساء، هى من أسس هذا الدين، وأن الاهتمام بها ٠٠ هى من الاهتمام بهذا الدين.

حيث يقول تعالى :

{ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء الَّلاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا }

[الآية ١٢٧]

أى : ويطلبون منك الفتيا لبيان الأحكام التى لا يعرفونها ويحتاجون إليها بخصوص النساء.

فإذا ما سألوك ٠٠

فالجواب ما يلى :

{.. قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ .. }

أى : قل لهم إن ما تطلبون معرفته بخصوص النساء، وأجيبكم عنه، وأفتيكم به ·· هو من الله، ومن وحيه إليّ.

ولذلك : فهو واجب الاتباع والامتثال والطاعة.

{.. وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء الَّلاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ }

أى : وجواب أسئلتكم كذلك ·· موجود فيما يتلى عليكم فى القرآن الكريم فى حق اليتامى، وقد ذكر ذلك فى قوله تعالى فى أول السورة وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ·· الآية.

كذلك ··

{.. وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ .. }

أى : اليتامى ·· حيث كانوا فى الجاهلية . يورثون الرجال القوامين بالأمور، دون الأطفال والنساء.

{.. وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ .. }

أى : وأن تعدلوا فى الميراث والمال.

ويلاحظ : أن الخطاب هنا للأئمة، وأولياء الأمور، الذين بيدهم التنفيذ، حتى ينظروا لهم، ويوفوهم حقوقهم بالعدل، دون بخس أو نقصان.

{.. وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا }

يعنى : كل خير تفعلوه عامة، وللنساء واليتامى خاصة ·· فإن الله به عليم، يجازيكم عليه، وكل شر كذلك – بالضرورة – يجازيكم عليه.

*****

هذا ··

ومن الجواب أيضاً على استفتائهم إياك فى شأن النساء ، مما لم يتقدم ذكره، ما يلى :

{ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا }

[الآية ١٢٨]

يلاحظ : أنه قد سبقت فى هذه السورة آية تحدثت عن خوف الرجل من نشوز زوجته ٠٠ واتضح العلاج لذلك هناك، فى الآية الرابعة والثلاثين.

وهذه الآية : تتحدث عن خوف المرأة من نشوز زوجها عليها، أو إعراضه عنها، وعلاج ذلك.

فإذا ما حدث هذا ٠٠

{.. فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا .. }

أى : فلا إثم ولا حرج ولا ملامة : أن يتصالح الزوجان فيما بينهما؛ لتستمر الحياة الزوجية، وتدوم العشرة بالمعروف.

ويكون هذا التصالح : بأن تتنازل الزوجة عن طيب خاطر ٠٠ لزوجها عن القسمة بينها وبين زوجاته الأخريات، أو عن بعضها، أو تتنازل له عن بعض المهر الذى دفعه، أو كله، أو تتنازل له عن نفقتها، أو بعضها، أو غير ذلك مما يرضيه، ولا يخالف شرعاً؛ لتبقى فى عصمته مكرمة.

{.. وَالصُّلْحُ خَيْرٌ .. }

نعم ٠٠ والصلح بينهما، واستمرار الحياة : خير من الخلافات أو الفرقة بينهما، وفى الحديث : أبغض الحلال عند الله الطلاق.

{.. وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ .. }

يعنى : هذا الصلح بالتنازل صعب؛ لأن التنازل ضد طبيعة الأنفس، حيث إن الشح، وعدم التنازل ٠٠ غالب عليها، ومتمكن منها.

وكل واحد من الزوجين فى هذه الحالة : يطلب ما فيه راحته ومصلحته وحده.

ولذلك ٠٠ يحبب الله فى هذا الصلح، مع إحسان كل طرف منهما للآخر ٠٠ فيقول للرجال :

{.. وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا }

يعنى : وإن تحسنوا – أيها الرجال – بالإقامة مع نسائكم، وإن كرهتموهن، وأحببتم مفارقتهن، وتصبروا على ذلك مراعاة لحق الصحبة، وتتقوا النشوز، وتبعدوا عن الإعراض، وما يؤدى إلى الأذى والخصومة ٠٠

فإن الله عليم بإحسانكم وصبركم وتقواكم ٠٠ وسيثيبكم على ذلك خير الجزاء.

على كل حال ٠٠

{ وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا }

[الآيتان ١٢٩ ، ١٣٠]

أى : لن تستطيعوا العدل التام بين النساء، حتى ولو كنتم حريصين على تحقيق ذلك، إلا فى الأمور التى تملكونها من النفقة و الكسوة والمبيت.

أما الحب والرغبة فى الجماع، وغير ذلك ٠٠ فهى من أعمال القلوب، والقلوب بيد الرحمن يقلبها كيف يشاء ٠٠ فلا مؤاخذة عليكم فيها.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠٠ يقسم بين نسائه، ويعدل، ثم يقول: اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك.

لكن إذا لم يكن العدل المطلق ممكناً ٠٠

{.. فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ .. }

أى : فلا تجوروا وتظلموا المرغوب عنها، فتتركوها كالمعلقة، لا هى مطلقة، ولا هى ذات زوج.

{.. وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا }

يعنى : وإن أصلحتكم فى أموركم، وعاملتموهن بالعدل فيما تملكون، واتقيتم غضب الله عليكم فى جميع الأحوال : فإن الله يغفر لكم ما لا تملكونه من أحوال قلوبكم، ويرحمكم فلا يعاقبكم.

فإن لم يصطلحا، ورغبا في الفرقة بينهما ٠٠ فلا مانع من ذلك.

{ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا }

أى : وإذا تفرقا بالخلع، أو بتطليقه إياها، وإيفائه لها كل حقوقها، وكان فراقاً بالمعروف.

يغن الله كلاً من سعته أى : يغن الله كلاً منهما من غناه، بأن يرزقه – إن شاء – زوجاً خيراً من زوجه، وعيشاً أهنأ وأهدأ من عيشه.

وكان الله واسعاً حكيماً واسعاً فى عطائه، بلا حدود، حكيماً فى شرعه؛ حيث أذن بالطلاق والتسريح بإحسان.

*****

وفى النهاية : يبين الله تعالى ٠٠ أن الذي أمر به من العدل والإحسان إلى اليتامى والنساء ٠٠ إنما هو لمصلحة المكلفين، والأحسن لهم فى الدنيا والآخرة، حيث إنه المالك لكل شيء، والغنى عن كل شيء.

يقول تعالى :

{ وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا }

[الآية ١٣١]

ثم يبين كذلك أن ما أمر به من تقوى الله : شريعة قديمة، لم يلحقها نسخ أو تبديل.
حيث يقول :

{.. وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ .. }

أى : أن الوصية بتقوى الله والالتزام بشرعه ٠٠ وصية دائمة لنا، وللأمم من قبلنا، ولستم يا أمة محمد مخصوصين بها.
وكما أمر من قبلنا بالتقوى، وأمرنا بها كذلك : فقد قال لنا ولهم :

{.. وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا }

أى : غنياً عن خلقه، وعن عبادتهم.
بل هو مستحق لأن يحمد سبحانه وتعالى؛ لكثرة نعمه، وإن لم يحمده أحد.

{ وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً }
[الآية ١٣٢]

وإذا كان كذلك ٠٠ فلا تتكلوا على غيره، واتخذوه وحده وكيلاً لكم فى كل شئونكم.

* * *

ثم ٠٠ يخوف ربنا عز وجل من عدم طاعته، وعدم تقواه، وعدم التوكل عليه وحده، وعدم الالتزام بشرعه.
إذ يقول :

{ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا }
[الآية ١٣٣]

يعنى : إن شاء يعذبكم عذاب استئصال، يبيدكم به، إن لم تلتزموا بشرعه، ويأت بآخرين من غيركم، يعبدوه، ويتقوه ٠٠
وليس ذلك على الله بعزيز، فهو بالغ القدرة على كل شيء.

* * *

ثم يرغب الغفور الرحيم الكريم فيما عنده من الكرامة ..
فيقول :

{ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا }
[الآية ١٣٤]

أى : من كان يريد بعمله وحاله وقلبه واعتقاده ثواب الدنيا فقط : فعليه أن يعدل قصده ورغبته وإرادته، حتى يكون عمله للدنيا وللآخرة، ولو فعل ذلك فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ينعم عليه بهما.
وكان الله سميعاً بصيراً سميعاً للأقوال، بصيراً بالأفعال؛ يعرف من يريد الدنيا فقط، ومن يريد الدنيا والآخرة.

*****

ثم يبين ربنا تبارك وتعالى : أن كمال سعادة الإنسان فى أن يكون قوله لله، وفعله لله، وحركته لله، وسكونه لله.
حيث يقول عز وجل :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا }
[الآية ١٣٥]

أى : كونوا مجتهدين فى اختيار العدل، وإقامته، محترزين عن ارتكاب الميل، والجور والظلم.
ومن العدل : أن تكونوا ..

{.. شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ .. }

أى : كونوا مقيمين شهادتكم لوجه الله، ولأجل مرضاته، حتى ولو كانت هذه الشهادة، أو الإقرار بالحق والعدل .. وبالاً على أنفسكم، أو الوالدين والأقربين، بما تتوقعون من ضرر سلطان ظالم أو غيره.
واعلموا أن المشهود عليه :

{.. إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا.. }

يعنى : إن يكن المشهود عليه غنياً ٠٠ فلا يمنعكم غناه عن الشهادة عليه طلباً لمرضاه، وكذلك : إن كان الشهود عليه فقيراً ٠٠ فلا يمنعكم فقره من الشهادة عليه رفقاً به، وترحماً عليه.
لأن الله تعالى : أولى برعاية الفقراء والأغنياء.
أما أنتم : فواجبكم ٠٠ إقامة شهادة الحق، دون نظر إلى الغنى أو الفقر.
ولذلك ٠٠

{.. فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ .. }

أى : فلا تتبعوا هواكم فى حب هذا أو بغض ذاك على عدم العدل، والامتناع عن الشهادة لإقامة الحق لوجه الله.

{.. وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا }

أى : فإذا حرفتم الشهادة، ولويتموها عن الحق، أو أعرضتم عن أدائها ٠٠ فإن الله بعملكم هذا خبير، فيجازيكم على ما فعلتم.
وفى هذا : من التهديد والتخويف من تغيير الشهادة، أو تحريفها، أو كتمانها ٠٠ ما فيه.

*****

ونظراً لأن الإنسان لا يكون قائماً بالقسط، شاهداً على نفسه بالحق ٠٠ إلا إذا كان قوى الإيمان، شديد الثقة فى دينه.
ولذلك ٠٠ يقول ربنا تبارك وتعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا }
[الآية ١٣٦]

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا اثبتوا على الإيمان بالله ورسوله، والقرآن، والكتب السماوية التى أنزلت قبله، وكونوا على ثقة فى هذا الدين، وصلاحيته لإصلاح الأمم، وتحقيق نهضتها، ودوام رقيها، إذا اهتدت به، وعملت بتشريعاته، وأقامت أركانه، وطبقت تعاليمه.
ثم بين ربنا جل وعلا : أن من يفقد الثقة فى هذا الدين، ويكفر بركن من أركانه ٠٠ فقد خرج عن طريق الهدى، وضل السبيل.
حيث يقول :

{.. وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا }

لأن من يكفر بشيء من هذه الأركان : فقد كفر بالجميع، وضل طريق الصواب.

* * *

هذا ٠٠

ولما رغب ربنا عز وجل فى الإيمان، ودعا إلى الثقة فيه، والطمأنينة به، بين فساد طريقة من يكفر بعد الإيمان.

فقال :

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً }
[الآية ١٣٧]

هذه الآية : تبين حال قوم من أهل الضلال، وتوضح فساد تصرفهم؛ حيث آمنوا فى الظاهر نفاقاً، وكان الشك والكفر قد استحوذ على قلوبهم، ولم يجعل فيها استعداداً للفهم فهم فى ريبهم يترددون [التوبة : ٤٥].

ولهذا ٠٠ لم يمنعهم ذلك من الرجوع إلى الكفر مرة بعد أخرى، إذ لم يفهموا حقيقة الإيمان، ولا ذاقوا حلاوته، ولا عرفوا فضائله، ولا أشربت قلوبهم حبه، حتى ماتوا على ذلك.

هؤلاء : لا يغفر الله لهم، ولا يجعل لهم فرجاً ولا مخرجاً مما يصيرون إليه من العذاب الأليم المقيم.

*****

وبعد الحديث عن أهل الإيمان، والحديث عن أهل الكفر ٠٠

تحدثنا الآيات الكريمة عن أهل النفاق.

فيقول الحكيم الخبير :

{ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا }
[الآيتان ١٣٨ ، ١٣٩]

وهذا وعيد وتهديد شديد للمنافقين، وبداية مخيفة فى صدر الحديث عنهم، وفيها تهكم بهم وتوبيخ، حيث إن البشارة لا تستعمل غالباً إلا فى الخير.

أيها الأحبة الكرام ٠٠

كأن قائلاً يقول : ما أوصاف هؤلاء المنافقين الذين يبشرهم ربهم بهذا العذاب الأليم ٠٠؟

ويكون الجواب :

إنـهم ٠٠

{ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ }

أى : إن المنافقين ٠٠ هم الذين يتخذون الكافرين المعادين للمؤمنين أولياءً وأنصاراً، يحتمون بهم، ويلجئون إليهم، فى الوقت الذى يتركون فيه ولاية المؤمنين، بل يمالئون الكفار، ويساعدونهم على المؤمنين، اعتقاداً منهم، أن الدولة والغلبة ستكون للكافرين.

وصدق الله إذّ يقول فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة [المائدة : ٥٢].

ولكن ما الذى يدفعهم إلى هذه الموالاة للكافرين ٠٠؟

{.. أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ.. }

أيريدون بهذه المولاة للكافرين ٠٠ العزة والجاه، والحماية لأنفسهم فى الدنيا؟.

ضل عملهم، وخاب سعيهم، وضاع هدفهم.

{ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا }

يعطيها لمن يشاء من عباده، فى الدنيا والآخرة.

ولذلك : فعلى من يريد العزة والقوة ٠٠ أن يطلبها منه تعالى، بصادق إيمانه، وصحيح اتّباعه لشرع الله.

وقد أتاها الله للمؤمنين ٠٠ حينما اهتدوا بكتابه، وساروا على نهجه وتشريعه.

ولما أعرضوا عن الهداية : ذلوا وخضعوا لعدوهم، بل صار منهم منافقون يوالون الكافرين؛ يبتغون عندهم العزة ٠٠ وما هم لها بمدركين.

حقاً ٠٠ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون [المنافقون : ٨].

*****

أيها الإخوة الكرام ٠٠

قال المفسرون لكتاب الله تعالى : إن المشركين بمكة كانوا يخوضون فى القرآن، يستهزئون به، والمسلمون يسمعون، ولا يستطيعون إنكاراً لهم، ولا رداً عليهم، فنزل قوله تعالى وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره [الأنعام: ٦٨].

فلما انتقلوا إلى المدينة ٠٠ كان أحبار اليهود يفعلون فعل المشركين، فى الوقت الذى يجلس معهم، ويستمع إليهم بعض المنافقين.

ولذلك : وجه الله النهى عن مجالسة من يتنقص الدين، ويزدرى بأحكامه وتعاليمه.

فقال مذكراً بما نزل قبل ذلك :

{ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا * الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللّهِ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً }

[الآيتان ١٤٠ ، ١٤١]

وبهذا ٠٠ حرم الله الجلوس فى المكان الذى يكفر فيه بآيات الله، ويستهزأ بها، لمن لا يستطيع الرد، أو دفع هذا المنكر ٠٠

فإن جلستم، ورضيتم بذلك :

{ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا }

أى : إذا جلستم مع الكافرين والمنافقين، ورضيتم بما يقولون فى آيات الله، ويستهزئون بها، وأقررتموهم على ذلك ٠٠ فقد شاركتموهم فى الذى هم فيه، ومن شارك الكافرين فى كفرهم؛ فقد استحق أن يشركه الله معهم، ويجمع بينهم فى نار جهنم أبداً.

*****

ثم وصف الله المنافقين لوصف آخر.

فقال :

{ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللّهِ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ.. !! }

يعنى : من صفاتهم الخسيسة ٠٠ أنهم يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء، وينتظرون زوال دولة الإسلام، وظهور دولة الكفر وانتصارها على المسلمين.

ولكن لنفاقهم ٠٠ يخفون ذلك.

وإذا رأوا نصراً للمسلمين ٠٠ يتوددون إليهم، بالتظاهر بأنهم معهم.

وإذا رأوا نصرا الكافرين – أحياناً – ٠٠ يتوددون إليهم، ويقولون لهم : لقد ساعدناكم فى الباطن، وخذلنا المسلمين عنكم حتى انتصرتم عليهم.

وهكذا ٠٠

يصانعون المسلمين ٠٠ إن كانت لهم الغلبة.

ويصانعون الكافرين ٠٠ إن كانت لهم الغلبة.

ليأمنوا الجميع، ويتقربوا عند الجميع، ويحظوا عند هؤلاء وهؤلاء بالمكانة.

وما ذاك ٠٠ إلا لضعف إيمانهم، وقلة يقينهم، وفساد طبيعتهم.
ولذلك ٠٠ يهددهم الله تعالى قائلاً :

{.. فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. }

أى : يحكم الله ويفصل يوم القيامة بين المؤمنين الصادقين وبين المنافقين، حكماً يليق بشأن كل منهما، من الثواب والعقاب، فيثيب أحباءه، ويعاقب أعداءه.

أما فى الدنيا ٠٠ فالحكم والمعاملة ٠٠ بحسب الظاهر، كما جاء فى الحديث الشريف : فإذا قالوها – أى لا إله إلا الله – فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم.

مع كل هذا ٠٠

{.. وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً }

أى : إن المؤمنين ما داموا متمسكين بدينهم، متبعين لأمره ونهيه، قائمين ما يستدعيه الدفاع عن الدين وأهله ٠٠ من : أخذ الأهبة، وإعداد العدة، وامتلاك القوة ٠٠ فلن يغلبهم الكافرون، ولن يكون لهم عليهم سلطان.

وما غلب المسلمون على أمرهم – أيها الكرام – إلا بسبب تركهم هدى كتاب ربهم، وتركهم أوامر دينهم، وراء ظهورهم نسياً منسياً.

ولذلك ٠٠ غلبوا بعد عزة ،ودخل عليهم الكفار فى عقر دارهم، وامتلكوا بلادهم، وتحكموا فى أمورهم، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

*****

ثم يكشف الله خبث المنافقين، وخيبة أملهم ٠٠ مهدداً لهم ٠٠
إذ يقول :

{ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً * مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء وَلاَ إِلَى هَـؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً }
[الآيتان ١٤٢ ، ١٤٣]

أى : إنهم حينما يخادعون الرسول صلى الله عليه وسلم، أو المؤمنين بإظهار الإيمان، وإخفاء الكفر ٠٠ فهم يخادعون الله تعالى.

والله سبحانه وتعالى مجازيهم على هذا الخداع بأشد أنواع العقوبات.

وعبارة وهو خادعهم من باب المشاكلة، كما فى قوله تعالى ومكروا ومكر الله، وإلا فالخداع والخديعة، وهى من الكذب ٠٠ مستحيلة على الله تعالى بالمعنى الذى يستعملونه، والذى نعرفه من معنى اللغة.

ويبين لنا ربنا تبارك وتعالى ٠٠ صفة أخرى من صفاتهم الذميمة ٠٠

فيقول :

{ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً }

يعنى : أنهم إذا قاموا إلى أشرف الأعمال، وهى الصلاة ٠٠ قاموا كسالى؛ لأنهم لا نيّة لهم فيها، ولا إيمان لهم بها، ولا خشية فى شأنها، ولا تعقل لمعانيها، بل لا يذكرون الله فيها.

ومن ثمَّ ٠٠ يقومون إليها كسالى، وهذه صفة ظاهرهم فى أدائها.

أما صفة باطنهم : فهى فاسدة، حيث لا إخلاص لهم فيها، إنما يؤدونها مراءاة للناس، ومصانعة لهم بها، وهم عنها ساهون، وعما يراد بهم من الخير معرضون.

ثم يوضح الله عز وجل لنا صفة سيئة خطيرة من صفاتهم كذلك.

فيقول :

{ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء وَلاَ إِلَى هَـؤُلاء.. }

أى : أنهم حائرون مضطربون ٠٠ يميلون تارة إلى المؤمنين، وتارة إلى الكافرين، فهم يدورون مع منافعهم ومصالحهم حيث تكون.

ولذلك فهم ٠٠ ضالون.

{ ..وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً }

أى : لن تجد له طريقاً واضحاً ، وسلوكاً مستقيماً، ولا هداية إلى الصواب.

*****

أيها الأحبة فى الله ٠٠

بعد أن اتضحت حال المنافقين، وصفاتهم ٠٠

وبعد أن علمنا الله ٠٠ أن أساس نفاقهم : هو موالاة الكافرين.

ينهى الله المؤمنين عن موالاة الكافرين، كما فعل ويفعل المنافقون.

حيث يقول العليم الحكيم :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا }
[الآية ١٤٤]

نهى واضح وصريح ٠٠ عن مصاحبة الكافرين، ومصادقتهم، ومناصحتهم، والتودد إليهم، وإفساد أسرار المؤمنين إليهم.

وإن فعلنا : فقد أخطأنا ..
ويعاتبنا الله على ذلك، ويهددنا بعقابه.
قائلاً :

{ ..أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا }

يعنى : أتريدون وتحبون مخالفة أوامر الله، وارتكاب ما نهاكم عنه .. فتستحقون العقوبة والعذاب من الله على ذلك ..؟

هذا لا يليق بكم أيها المؤمنون أبداً.
كما لا ينبغى أن تكونوا مثل المنافقين، ولا تعاقبوا مثل عقابهم ..
أتدرون أين المنافقون، وكيف عقابهم ..؟
اقرءوا هاتين الآيتين :

{ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا }
[الآيتان ١٤٥ ، ١٤٦]

إن المنافقين .. بسبب سلوكهم، وكفرهم، يعذبون فى أسفل النار، حيث العذاب الشديد، لا يموتون فيستريحون، ولا يخرجون منها أبداً.

وفوق ذلك : فلا ناصر لهم، ينقذهم مما هم فيه، ويخرجهم من هذا العذاب الأليم.
هذا مصيرهم ..
فلا تكونوا أيها المؤمنون مثلهم.

*****

ثم يفتح الله باب رحمته لمن يتوب، ويعود إلى الله راجياً عفوه وغفرانه، من الكافرين، أو المنافقين.
حيث يقول الرحيم الكريم :

{ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ .. }

أى : إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار أى : يعذبون فيها، إلا من اتصف منهم بهذه الصفات :
١ - تابوا فى الدنيا عن كفرهم ونفاقهم، وآمنوا قبل موتهم، ومن تاب تاب الله عليه.
٢ - وأصلحوا أعمالهم السيئة، وعملوا الصالحات.
٣ - واعتصموا بالله فى جميع أمورهم وأحوالهم.
٤ - وأخلصوا دينهم لله بدلاً من الرياء.

عندئذ يكونون مع المؤمنين الصادقين، وينالون من الجزاء الحسن ما ينال المؤمنون.

{ .. وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا }

وهم أيضاً ٠٠ يؤتيهم الله أجراً عظيماً؛ لأنهم صاروا مؤمنين.

* * *

وبالنسبة لموضع العذاب ٠٠
فإن الله لا يعذب العباد ٠٠ إلا بذنوبهم.
كما أنه لا يعذب من آمن به، وشكر نعمه، وهو الغنى عن العالمين.

يقول تبارك وتعالى :

{ مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا }
[الآية ١٤٧]

أى : لا يعذب الله أحداً من خلقه ٠٠ انتقاماً منه، ولا طلباً لنفع، ولا دفعاً لضر؛ فهو الغنى عن كل أحد، المنزه عن جلب منفعة له، أو دفع مضرة عنه.
بل إن العذاب – إن حدث – فهو جزاء الكفر بأنعم الله.
والله – أبداً – لا يعذب من آمن به، وشكر نعمه، سبحانه وتعالى.

{ .. وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا }

أى : يجعل ربنا عز وجل ثواب المؤمنين الشاكرين، بحسب علمه بأحوالهم.
كما أنه سبحانه : يعطيهم من الدرجات أكثر مما يستحقون، بفيض كرمه، جزاءً على شكرهم وإيمانهم، وتفضلاً منه تعالى عليهم، كما قال تعالى لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد [إبراهيم : ٧].

*****

قد تبين لنا – فيما سبق – شناعة قبائح المنافقين، وشدة إيذائهم للمؤمنين.
وأصبح واضحاً – بسبب هذه الإيذاءات – أن المؤمنين مظلومون من المنافقين.
ومن هنا : يجوز للمؤمنين ذكر سيئات المنافقين وإيذاءاتهم لهم جهراً.
ولهذا : يقول تعالى :

{ لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا * إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا }
[الآيتان ١٤٨ ، ١٤٩]

فى هاتين الآيتين الكريمتين : يعلمنا رب العزة سبحانه وتعالى ٠٠ ألا ندعو على أحد إلا إذا ظلمنا، وألا نتكلم على أحد إلا إذا ظلمنا.

ويحثنا تبارك وتعالى : إلى العفو حتى فى مثل هذا.

حيث إن من صفاته سبحانه : العفو مع كمال القدرة.

ثم بين أنه – عز وجل – إن عاقب : لا يعاقب إلا بعد استحقاق العذاب.

ومن هنا : فليحذر كل أحد عقوبته العادلة إن كفر أو نافق، أو عصى.

ويصير المعنى : لا يحب الله الجهر بالسوء من القول من أحد أبداً إلا من ظلم فإنه يباح له دون أن يعاقبه الله على ذلك.

إذّ يباح له : أن يقول ٠٠ سرق مالى، أو سبنى، أو آذانى، ويدعو عليه دعاءً جائزاً، بقدر ظلمه له، فلا يدعو عليه بخراب داره، ولا بالهلاك، بل يقول : اللهم خلص حقى منه، أو جازه بقدر ظلمه لى، كما لا يجوز أن يدعو عليه بسوء الخاتمة، أو الفتنة فى الدين.

وكان الله سميعاً عليماً أى : سميعاً لما يقال من الظالم والمظلوم، وهو السميع لكل ما يقال من كل أحد.

عليماً بما يفعل وما يحدث من الظالم والمظلوم، وهو العليم بكل ما يفعل من كل أحد.

وفى هذا : وعد للمظلوم بالنصر والخير، ووعيد للظالم بالهزيمة والعقاب.

وبعد إقرار هذا الحق من الله تعالى للمظلوم ٠٠ أن يجهر بشكواه، وأن يرفع مظلمته : يحث عز وجل المؤمنين ويدعوهم إلى الأفضل، وهو عدم الجهر بالسوء من القول، وعدم الدعاء على الظالم، بل إلى العفو عنه.

إذّ يقول :

{ إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء }

أى : فهو أولى لكم، وأليق بكم، وعنوان لمكارم أخلاقكم.

حيث إن الله تعالى ٠٠ مع كمال قدرته على الانتقام من العصاة : يُكثر العفو عنهم.

وصدق الله إذّ يقول إن الله كان عفواً قديراً.

فعليكم إذاً أن تقتدوا بسنته، وأن تتمثلوا بعفوه وكرمه، مع قدرته.

ففى الحديث : " ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه" .

وبهذا : يظهر جيداً، أن من أخلاق المؤمنين ترك السوء، والعفو عمن ظلمهم.

*****

وبعد أن بين رب العزة طرفاً من معاملة الخلق مع بعضهم البعض : تعود الآيات الكريمة إلى قضية الإيمان؛ ليقرر فيها المولى سبحانه كفر من كفر بالله، وكفر من يؤمن ببعض الرسل ويكفر ببعض، ويناقش تبارك وتعالى فريقاً من هؤلاء فى اعتقاداتهم الخاطئة، ويعريهم فى مواقفهم السيئة.

حيث يقول عز من قائل :

{ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُولَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا }

[الآيتان ١٥٠ ، ١٥١]

يخبر الله سبحانه ويتوعد ٠٠ الكافرين به، من اليهود والنصارى وغيرهم.

وينصب التهديد الإلهى هنا خاصة على من يكفر ببعض رسل الله؛ حيث فرقوا بين الإيمان بالله تعالى وبين الإيمان برسله، كما فرقوا – من جهة أخرى – بين رسل الله، إذّ يقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض بمجرد التشهى والعادة، وما وجدوا عليه آباءهم، وليس عندهم دليل على ما يقولون وما يفترون.

فاليهود عليهم لعائن الله : آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمدا عليهما الصلاة والسلام.

والنصارى : آمنوا بالأنبياء، وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمد صلى الله عليه وسلم.

وغيرهم، وغيرهم ٠٠

والمقصود : أن من كفر بنبى من الأنبياء ٠٠ فقد كفر بسائر الأنبياء؛ حيث إن الإيمان واجب بكل نبى بعثه الله إلى أهل الأرض.

والآية ٠٠ صريحة فى الدلالة على أن الكفر برسول الله صلى الله عليه وسلم كفر بالله تعالى ورسله جميعاً.

وفيها الرد الواضح على كل من يعز عليه أن يسمى كافراً، وفى ذات الوقت، لا يعطى قضية الإيمان كل لوازمها، ومقتضياتها.

ولذا يقول تعالى عن هؤلاء :

{ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا .. }

أى : كفرهم ثابت لا شك فيه، ولا مجال لإنكاره منهم أو من غيرهم.

{ .. وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا }

يعنى : هيأنا وأعددنا وجهزنا للكافرين من هؤلاء، أو من غيرهم ٠٠ عذاباً مهيناً فيه : إيلام لهم، ومهانة وإذلال يستحقونه، ويجازون به، بسبب استهانتهم بمن كفروا به، أو لعدم نظرهم فيما جاء به من الله، وإقباهم على جمع حطام الدنيا، أو بسبب كفرهم به بعد علمهم بنبوته.

*****

وأما الذين آمنوا بالله وبكل الرسل : يقول عنهم رب العزة سبحانه وتعالى ٠٠

{ وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا }
[الآية ١٥٢]

ولا يوجد هذا الوصف – بعد البعثة المحمدية – لأحد أبداً إلا لمن تابع محمداً صلى الله عليه وسلم، وآمن برسالته.

حيث إن أمته : تؤمن بكل نبى، وتؤمن بكل كتاب.
وهؤلاء : أعد الله لهم الجزاء الجزيل، والثواب الجليل، والعطاء الجميل.
حيث يقول :

{.. أُوْلَـئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ .. }

وذلك : جزاءً لهم على إيمانهم بالله تعالى وكل رسله.
بل أكثر من ذلك : يعدهم بالمغفرة والرحمة؛ حيث يقول :

{.. وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا }

أى : غفوراً لذنوبهم إن كان لهم ذنوب، رحيماً بهم فى الدنيا والآخرة.

*****

وبعد تقرير هذه المفاهيم : يبدأ ربنا تبارك وتعالى، وهو الحكيم العليم ٠٠ فى بيان ظلم اليهود، الذين لم يؤمنوا برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.
فيقول عنهم :

{ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاء فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا }
[الآية ١٥٣]

نزلت هذه الآية الكريمة فى أحبار اليهود وعلمائهم؛ حيث قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم :
إن كنت نبياً حقاً : فأتنا بكتاب من السماء جملة، كما أتى موسى بكتابه إلينا جملة.
أو إن كنت نبياً حقاً : فأتنا بكتاب بخط سماوى فى ألواح، كما نزلت التوراة على موسى.

أو إن كنت نبياً حقا : فأتنا بكتاب ينزل إلينا بأسمائنا يخبرنا بأنك رسول الله.
وما كان قصدهم من هذه الأقوال كلها : إلا التعنت والعناد والجدال.
يقول الحسن البصرى : ولو سألوه لكى يتبينوا الحق ويعرفوه، فيسلموا ويتبعوه صلى الله عليه وسلم ٠٠ لأعطاهم الله تبارك وتعالى.
على كل حال : لا تستغرب منهم يا محمد، ولا تستكبر عليهم هذا التعنت.
فقد سألوا موسى أكبر من ذلك أى : سأل آباؤهم موسى عليه السلام تعنتاً أيضاً، وطلبوا منه مطالب أكبر وأغرب مما سألوك إياه.
حيث قالوا له كما يخبر رب العزة عن ذلك بقوله :
فقالوا أرنا الله جهرة أى : نراه بأعيننا.
وهؤلاء هم السبعون الذين خرجوا مع موسى عليه السلام إلى الجبل، للقاء ربه، كما فى قوله تعالى:

{ واختار موسى قومه سبعين رجلاً ليمقاتنا }
[الأعراف : ١٥٥].

فأخذتهم الصاعقة بظلمهم يعنى : أخذهم العذاب الهائل، أو النار المحرقة٠٠ لدرجة موتهم.
وذلك : بسبب ظلمهم، وتعنتهم، وتحكمهم على نبيهم فى سؤال الرؤية، وليس بسبب السؤال ذاته.
ومع ذلك : فقد أحياهم الله تعالى بعد موتهم، كما فى قوله تعالى وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون [البقرة : ٥٥ ، ٥٦] .
فهل شكروا الله تعالى، وتابوا عن ظلمهم ٠٠؟
كلا ٠٠!!
ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات يعنى : اتخذوا العجل إلهاً لهم من دون الله، بالرغم من توافر الدلائل الواضحات، والآيات البينات، على وجود الله تعالى، ووحدانيته، وقدرته، وعلى صدق موسى عليه السلام.
وهنا ٠٠
قال موسى لقومه: { يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم ...} [البقرة : ٥٤].
ففعلوا ما أمروا به – كما يقول الإمام ابن كثير – فغفر الله تعالى للقاتل والمقتول.
يقول تعالى :
فعفونا عن ذلك يعنى : هؤلاء الذين أجرموا قديماً باتخاذهم العجل، قد تابوا إلى بارئهم، واستجابوا لأمره ونفذوا حكمه بأن يقتل بعضهم بعضاً، فعفونا عنهم، ولم نستأصلهم وننه على وجودهم بالكامل ٠٠
فتوبوا أنتم أيضاً يا من تعاندون محمداً صلى الله عليه وسلم، وتتعنتون معه فى طلباتكم منه، وأسئلتكم له.
وأما عن موسى عليه السلام ٠٠ فيقول رب العزة :
وآتينا موسى سلطاناً مبيناً أى : أعطيناه دليلاً دامغاً لكفرهم، مظهراً وكاشفاً لعنادهم.
ولذلك : فانحرافهم وكفرهم نتيجة لطبيعتهم القاسية، وقلوبهم المتحجرة.
ولذا ٠٠
لا يستغرب كفرهم الحالى، وانحرافهم عن الحق، وظلمهم لأهله؛ حيث إن وضعهم هذا امتداد لوضعهم ذلك.
فهل ينتظر – بعد ذلك – منهم خير ٠٠؟
كلا ٠٠ وألف كلا٠٠

*****

{ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا }

[الآية ١٥٤]

هذه ألوان من تعنتهم، وصور من عنادهم وكفرهم :

أ- جاءهم موسى عليه السلام بشريعة التوارة؛ ليلتزموا بها، فامتنعوا وأبوا ·· فرفع الله على رءوسهم جبلاً؛ ليلزمهم بها، فخافوا والتزموا، وأخذ عليهم الميثاق بذلك.

ولكنهم – بعد ذلك – نقضوا هذا العهد والميثاق.

ب- وقيل لهم : ادخلوا باب القدس سجداً، أى مطأطئين الرءوس، خاضعين لله، متواضعين لعظمته ·· فاستجابوا ودخلوا ··

ولكنهم : دخلوا مخالفين؛ حيث دخلوا على غير ما أمروا به من الخضوع والتواضع.

جـ- وقيل لهم : احفظوا "السبت" أى يوم السبت، فلا تعتدوا فيه، وتصطادوا، والتزموا بشرع الله هذا.

ولكنهم : خالفوا، وعصوا، واحتالوا على ارتكاب ما حرم الله عليهم.

د- أخذ الله عليهم عهداً شديداً، وميثاقاً غليظاً بالتزام شرعه، وتنفيذ أحكامه.

ولكنهم خالفوها جميعاً، ونقضوها واحداً واحداً.

ولذلك :

*****

{ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا }

[الآيتان ١٥٥ ، ١٥٦]

تفيد هذه الآيات الكريمة وما بعدها : أن الله جلت حكمته وتعالت عظمته ·· عاقب الذين كفروا وعاندوا من اليهود بأمرين، هما :

الأول : حرم عليهم طيبات كانت حلالاً لهم .

يقول تعالى حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم.

الثاني : أعد لهم عذاباً أليماً فى الآخرة.

يقول تعالى وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً.

وكان هذا العقاب : بسبب ارتكابهم عدة مخالفات سيئة، هى :

الأول : بسبب نقضهم المواثيق والعهود.

الثانى : كفرهم بآيات الله ومعجزاته، التى شاهدوها على أيدى الأنبياء عليهم السلام.

الثالث : قتلهم الأنبياء ظلماً وعدواناً.

الرابع : قولهم – زوراً وبهتاناً – قلوبنا غلف أى : مغطاة، لا يصل إليها وعظ أو تذكير.

الخامس : بكفرهم بعيسى عليه السلام.

السادس : بقولهم على مريم – عليها السلام – بهتاناً عظيماً.

السابع : قولهم – كذباً – إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم.

الثامن : بظلمهم فى تعدِّيهم على شرع الله.

التاسع : صدهم عن سبيل الله خلقاً كثيراً، ومنعهم من الإيمان بالله ورسله.

العاشر : تحليلهم للربا وتعاطيهم له، وقد حرم عليهم، ونهوا عنه.

الحادى عشر : أكلهم أموال الناس بالباطل، كالرشوة وغيرها من سائر المعاملات المالية المحرمة.

وهنا : قضية ينبغى الإشارة إليها ..

وهى : اعتذار اليهود عن عدم إيمانهم بأن قلوبهم غلف، أى مغطاة، ومحجوبة عن وصول الموعظة إليها.

وهو اعتذار قبيح لا يليق.

ولذلك رد الله عليهم بقوله عز وجل :

بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً أى : بسبب كفرهم وجحودهم، وليس بسبب ما قالوا، أحدث عليها مانعاً من وصول الحق، فلا يؤمن منهم إلا قليل، كعبد الله بن سلام، وأمثاله.

بل حتى اليوم : لا يؤمن منهم إلا القليل.

*****

يقول تعالى لبيان مساوئهم :

{ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا }

[الآية ١٥٧]

يعنى : وبسبب قولهم هذا .. عاقبناهم، ولعنادهم؛ حيث قالوا إنا قتلنا المسيح ابن مريم رسول الله مفتخرين مبتهجين بقتل النبى، والاستهزاء به، إذ قالوا عنه رسول الله وهم لم يؤمنوا به ولا برسالته.

وقد نفى الله سبحانه قتله أو صلبه عليه السلام، وكذب ادعاءهم هذا بقوله :

وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم يعنى : أنهم ما قتلوا عيسى عليه السلام، وما صلبوه – كما زعموا – بل قتلوا وصلبوا شبيهه، لا هو.

وأما عيسى عليه السلام : فرفعه الله إليه.

ثم إن القوم لما لم يجدوا عيسى عليه السلام ولا الرجل الذى كان معه : وقعوا فى الحيرة.

وقالوا : إن كان هذا المصلوب عيسى ٠٠ فأين الرجل الذى كان معه ٠٠؟

وإن كان المصلوب هو الرجل ٠٠ فأين عيسى ؟

ومن هنا : وقع الخلاف بينهم فى ذلك.

يقول تعالى :

وإن الذين اختلفوا فيه أى : فى عيسى عليه السلام.

ويلاحظ : فى هذا الاختلاف ٠٠

أنه إن كان أثناء محاولة القتل، أو قبلها : يكون المختلفون هم اليهود.

كما أنه إن كان بعد محاولة القتل : يكون المختلفون ٠٠ هم النصارى.

على كل حال :

إن كان المختلفون هؤلاء، أو هؤلاء : فـ الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن أى : أنهم لا يعلمون الحقيقة.

حيث قال بعضهم لما رأوا المقتول : الوجه وجه عيسى، والجسد ليس بجسده، ولذا : فليس هو عيسى.

وقال بعضهم : بل هو عيسى نفسه.

وأما الحقيقة : فيذكرها الله تعالى بقوله :

وما قتلوه يقيناً أى : أنهم ما قتلوه حقاً ويقيناً، أو أنهم ما قتلوه متيقنين من ذلك.

﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

[الآية ١٥٨]

يعنى : رفعه الله إلى موضع فى السماء، وهذا الموضع هو السماء الثالثة.

كما فى حديث الجامع الصغير : آدم فى السماء الدنيا، تعرض عليه أعمال ذريته، ويوسف فى السماء الثانية، وابنا الخالة ٠٠ يحيى وعيسى فى السماء الثالثة ٠٠٠ إلخ.

وكان الله عزيزاً حكيماً يعنى : عزيزاً فى ملكه، والمراد من العزة ٠٠ كمال قدرته سبحانه، وفى ذلك: تنبيه على أن رفع عيسى عليه السلام إلى السموات ٠٠ وإن كان بعيداً على البشر، لكنه غير بعيد على قدرة الله عز وجل.

وكذلك : هو سبحانه حكيم فى صنعته، والمراد من الحكمة – كذلك – كمال العلم ٠٠ وفى ذلك : تنبيه على أن هذا الرفع غير خال من الحكمة التى لا يعرفها إلا هو سبحانه وتعالى.

ولكل هذا : فهو سبحانه ٠٠ لا يرام جنابه، ولا يضام من لاذ ببابه، ولجأ إلى حماه.

*****

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾

[الآية ١٥٩]

هذه الآية الكريمة .. تحتمل معنيين :

المعنى الأول : وما من أهل الكتاب – اليهود والنصارى – أحد إلا ليؤمنن بعيسى عليه السلام، قبل موت عيسى فى آخر الزمان.

وهؤلاء : هم الذين يكونون فى زمان نزول عيسى قبل يوم القيامة.

وهذا : هو المعنى الراجح.

المعنى الثانى : وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن قبل موته هو ساعة الغرغرة بعيسى عليه السلام، وبأنه عبد الله ورسوله.

وذلك : يكون قبل أن تزهق روحه، حين لا ينفعه إيمانه؛ لانقطاع وقت التكليف.

عن شهر بن حوشب .. قال :

اليهودى : إذا حضره الموت، ضربت الملائكة وجهه ودبره، وقالوا : يا عدو الله .. أتاك عيسى نبياً، فكذبت به، فيقول : آمنت بأنه عبد الله ورسوله.

والنصرانى : كذلك، ويقال له : أتاك عيسى نبياً، فزعمت أنه الله وابن الله، فيقول : آمنت بأنه عبد الله.

فأهل الكتاب : يؤمنون به.

ولكن حيث لا ينفعهم ذلك الإيمان.

ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً يعنى : يشهد عيسى على اليهود .. بأنهم كذبوه، ويشهد على النصارى .. بأنهم غلوا فيه.

*****

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

[الآيتان ١٦٠ ، ١٦١]

فى هاتين الآيتين : يعود السياق للحديث عن اليهود، ومخالفاتهم، وعقوباتهم، بعد مناقشة ادعائهم قتل المسيح عليه السلام، واختلافهم هم والنصارى بخصوصه عليه السلام.

والمعنى : بسبب ظلم اليهود، وصدهم الخلق الكثير عن سبيل الله ودينه، وأخذهم الربا بعد أن حرم عليهم ونهوا عن التعامل به، وأكلهم أموال الناس بغير حق .. إلى جانب من سبق ذكره من مخالفتهم.

بسبب كل ذلك :

حرم الله عليهم طيبات كانت حلالاً لهم، ولمن تقدمهم من أسلافهم، ولكنهم افتروا على الله سبحانه وقالوا لسنا بأول من حرمت عليه، وإنما كانت محرمة على إبراهيم ونوح عليهما السلام، ومن بعدهما، حتى انتهى الأمر إلينا.

ولكن الله تعالى كذبهم فى مواقع كثيرة، وبكتهم على ذلك، كما فى قوله تعالى كل الطعام كان حلاً لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين فيما زعمتموه.

وبالتالى : حرمها عليهم.
وكذلك : أعد لهم – إلى جانب هذا التحريم – عذاباً أليماً فى الآخرة.

* * *

{ لَّـكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَـئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا }
[الآية ١٦٢]

هذه الآية الكريمة : نزلت فى عبد الله بن سلام، رضى الله عنه، وأمثاله من اليهود الذين دخلوا فى الإسلام، وصدقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وما أنزل عليه، واتبعوه.

والمعنى : إذا كان عامة اليهود ينقضون الميثاق، ويكفرون بآيات الله ورسله، ويقتلون الأنبياء بغير حق !!

فإن الراسخين فى العلم منهم، الثابتون فيه، المتقنون له، المستبصرون، غير التابعين للظن، الذين آمنوا، وصدقوا بالحق ..

هؤلاء : يؤمنون بالقرآن الذى أنزل إليك، ويؤمنون بما أنزل من قبلك من الكتب السابقة على إخوانك من الأنبياء عليهم السلام، ويقيمون الصلاة، ويحافظون عليها، ويؤتون زكاة الأموال والأنفس، ويؤمنون باليوم الآخر، يوم القيامة، يوم الجزاء، ويستعدون له بالعمل الصالح.

هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات من أهل الكتاب سنؤتيهم أجراً عظيماً وهو الجنة.

*****

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

المائدة

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ }
[الآية ١]

الخطاب فى هذه الآية الكريمة : للمؤمنين.

والمراد بالعقود : جميع ما ألزمه الله عباده، وعقده عليهم، من : التكاليف، والأحكام الدينية، وما يعقدونه – كذلك – فيما بينهم من عقود الأمانات والمعاملات، ونحوها مما يجب أو يحسن الوفاء به ديناً.

والأمر بالوفاء بها : يعم الوجوب والندب.

ويلاحظ : أن الله عز وجل أمر بالوفاء بالعقود – أولاً – على وجه الإجمال، ثم شرع – ثانياً – فى تفصيل الأحكام، التى أمر بالوفاء بها.

كما يلاحظ : أنه سبحانه ٠٠ بدأ بما يتعلق بضروريات معايشهم، فقال :

أحلت لكم بهيمة الأنعام والبهيمة : كل ذات أربع، والأنعام : الإبل والبقر والغنم.

إلا ما يتلى عليكم يعنى : يستثنى من هذا التحليل لكم ما يتلى عليكم تحريمه، ويقرأ عليكم فى القرآن والسنة.

ففى القرآن مثلاً : حرمت عليكم الميتة [المائدة : ٣].

وفى السنة مثلاً : كل ذى ناب من السباع : فأكله حرام [رواه : مسلم والنسائى].

غير محلى الصيد أى : ما كان صيداً أى : لا وسيلة له إلا أن يصاد ٠٠ فهو حلال فى الإحلال، دون الإحرام ٠٠ أما ما لم يكن صيداً : فهو حلال فى الحل والإحرام.

وهذا استثناء بعد استثناء.

يعنى : هذا استثناء بالتحليل من قوله تعالى : إلا ما يتلى عليكم تحريمه، والذى هو استثناء من قوله : أحلت لكم بهيمة الأنعام.

وأنتم حرم أى : لا يحل لكم الصيد وأنت فى حال الإحرام بالحج أو بالعمرة.

ثم يقول تعالى تقوية لهذه الأحكام الشرعية، المخالفة لما كان عليه العرب فى جاهليتهم :

إن الله يحكم ما يريد لا معقب لحكمه، يشرع ما يشاء كما يشاء، إذْ هو مالك الملك، لا مالك ولا حاكم سواه.

*****

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }
[الآية ٢]

الخطاب فى الآية كذلك : للمؤمنين مباشرة، وتشريفاً لهم، وحثاً لهم على الاستجابة والامتثال لشرع الله.

وشعائر الله : أى شرائعه، ومعالم دينه، بصفة عامة.

والمعنى : لا تحلوا شيئاً من فرائضه التى فرضها عليكم – أى لا تعتدوا عليها – ولا من نواهيه التى نهاكم عنها.

ثم فصل سبحانه وتعالى بعض هذه الشعائر ٠٠ تخصيصاً بعد تعميم، فقال:

ولا الشهر الحرام أى : بالقتال فيه.

ولا الهدى أى : ما أهدى إلى الحرم من النعم، والصدقات، بالتعرض له.

ولا القلائد جمع قلادة، وهى التى تشد فى عنق البعير وغيره ٠٠ والمراد: ولا الهدايا ذوات القلائد، بالتعرض لها.

ولا آمين البيت الحرام ولا تحلوا قتال قوم، أو أذى قوم، قاصدين البيت، حال كونهم يطلبون فضلا ورزقا من ربهم بالتجارة، وكذلك : رضواناً منه، بحسب زعمهم الفاسد.

يلاحظ : أن هذه الشعائر الثلاثة الأولى منها والمشار إليها بقوله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ٠٠ منسوخة بقوله تعالى فاقتوا المشركين حيث وجدتموهم [التوبة : ٥].

وأما الرابعة : والمشار إليها بقوله سبحانه ولا آمين البيت الحرام ٠٠ فمنسوخة بقوله تبارك وتعالى : { يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا } [التوبة : ٢٨].

هذا ٠٠

ويقول تعالى وإذا حللتم أى : إذا تحللتم من إحرامكم فاصطادوا يعنى : يباح لكم أن تصطادوا ما تريدون مما كان محرماً عليكم وأنتم فى حال إحرامكم بالحج أو بالعمرة.

ولا يجرمنكم شنئان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا

يعنى : ولا يحملنكم بغضكم لقوم بسبب صدهم لكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا عليهم، وتتجاوزا الحق إلى الباطل، والعدل إلى الظلم.

وقد نزلت هذه الآية : لما مر ناس من المشركين يريدون العمرة بالمسلمين ٠٠ فقال المسلمون : نصدهم كما صدنا أصحابهم فى الحديبية، فنهاهم الله عن ذلك.

وبعد أن نهاهم عز وجل عن ذلك : أمرهم بالتعاون على البر والتقوى، فقال :

وتعاونوا على البر والتقوى أى : تعاونوا على ما أمر الله، واعملوا به، وانتهوا عما نهى الله عنه.

يقول الماوردى : ندب الله سبحانه وتعالى إلى التعاون على البر، وقرنه بالتقوى له؛ لأن فى التقوى رضا الله، وفى البر رضا الناس.

ومن جمع بين رضا الله ورضا الناس : فقد تمت سعادته، وعمت نعمته.

والتعاون على البر والتقوى : يكون بوجوه :

فواجب العالم ٠٠ أن يعين الناس بعلمه؛ فيعلمهم.

ويعينهم الغنى : بماله الحلال.

ويعينهم الشجاع : بشجاعته فى سبيل الله.

بحيث يكون المؤمنون متظاهرين، كاليد الواحدة.

ثم نهى عن التعاون على الإثم والعدوان، فقال :

ولا تعاونوا على الإثم والعدوان أى : لا تتعاونوا على ما فيه معصية الله، أو العدوان على شرع الله، أو عباده.

وختم الآية بالوعيد الشديد لمن خالف ما أمر به، وما نهى عنه، قائلاً :

واتقوا الله إن الله شديد العقاب أى : خافوا عقابه، فأطيعوه؛ حيث إنه شديد العقاب، لمن خالفه، وعصى أمره، وارتكب ما نهى عنه.

*****

{ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }

[الآية ٣]

هذا شروع فى بيان المجمل المحرم الذى أشار إليه رب العزة، فى قوله تعالى أحلت لكم بهمية الأنعام إلا ما يتلى عليكم [المائدة : ١].

والذى ذكر هنا، وهو محرم : أحد عشر شيئاً، كلها من الأطعمة، إلا الأخير، وهو الاستقسام بالأزلام.

والميتة هى كل ما خرجت روحه دون ذبح وتذكية.

والدم يعنى : الدم المسفوح، أى السائل، دون الكبد والطحال.

ولحم الخنزير والمراد : الخنزير : بجميع أجزائه، وإنما خص اللحم بالذكر؛ لأنه معظم المقصود منه.

وما أهل لغير الله به يعنى : ما ذبح ولم يذكر عليه اسم الله، بل ذكر عليه غير اسم الله.

والمنخنقة وهى التى تموت من الحيوانات خنقاً، سواء فعل بها ذلك آدمى، أو حدث لها ذلك بسبب حبل، أو بين عودين، أو غير ذلك.

والموقوذة أى : المقتولة ضرباً، بعصا أو بحجر، حتى الموت، دون تذكية.

والمتردية التى سقطت من عال : فماتت.

والنطيحة يعنى : المقتولة بنطح غيرها لها.

وما أكل السبع أى : ما أكل منه وافترسه كل ذى ناب وأظفار من الحيوان، كالأسد، والنمر، والذئب.

إلا ما ذكيتم يعنى : ما أدركتموه، مما افترسه السبع، قبل أن يموت، وأدركتم فيه الروح، وذكيتموه بالذبح، فلكم أن تأكلوا مما بقى منه.

وما ذبح على النصب يعنى : ما ذبح على اسم صنم، وقصد بذبحه تعظيم هذا الصنم.

وأن تستقسموا بالأزلام والأزلام : جمع زلم، وهى : سبع قداح صغيرة، لا ريش لها ولا نصل، وعليها أعلام .. كانت عند خادم الكعبة.

وكانوا يستقسمونها ٠٠ أى يحكمونها فى أمورهم فإن أمرتهم : فعلوا، وإن نهتهم : انتهوا.

وهذا : الاستقسام بالأزلام، أو كل ما سبق ذكره من المحرمات ٠٠ فسق، وخروج عن طاعة الله سبحانه وتعالى.

ولما رأى المشركون قوة الإسلام وأهله، وهم بعرفة : يئسوا أن يرتد المسلمون عنه، بعد أن كانوا يأملون فى ذلك، ويطعمون فيه.

فنزل قوله تعالى :

{ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا }

يروى : أنه جاء رجل من اليهود إلى عمر رضى الله عنه، فقال : يا أمير المؤمنين ٠٠ آية فى كتابكم تقرءونها لو أنزلت علينا معشر اليهود : لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، قال : وأى آية ٠٠؟

قال : اليوم أكملت لكم دينكم ٠٠ الحديث [رواه : مسلم].

كما روى : أنها لما نزلت يوم الحج الأكبر، وقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠٠ بكى عمر رضى الله عنه.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما يبكيك؟.

فقال : أبكانى ٠٠ أنا كنا فى زيادة من ديننا، فأما إذّ كمل : فإنه لم يكمل شيء إلا نقص.

فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : صدقت.

والمعنى : اليوم يئس الذين كفروا من أن يبطلوا أمر دينكم.

وعلى ذلك : فاثبتوا على مخالفة الكفار، واصبروا على حربهم لكم، ولا تخافوا منهم فى مخالفتكم لهم، واخشونى وحدى أنصركم عليهم، وأظفركم بهم، وأشف صدوركم منهم، واجعلكم فوقهم فى الدنيا والآخرة.

اليوم : أكملت لكم أجل نعم الله عليكم؛ وهى كمال الدين، فلا تحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبى غير نبيكم.

وبكمال الدين لكم : تمت النعمة عليكم.

وقد رضيت لكم الإسلام ديناً فارضوه لأنفسكم، وحافظوا على مبادئه، واعملوا بتشريعاته.

ثم تعود الآية الكريمة : إلى تمام بيان أحكام المحرمات فى المطعومات ٠٠

حيث يقول تعالى :

{ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }

والمعنى : فمن كان مضطراً فى مجاعة إلى أكل شيء من المحرمات السابقة، والمذكورة فى صدر الآية فأكله : فلا إثم ولا ذنب عليه، بشرط : أن لا يكون متلبساً بإثم، كقاطع الطريق مثلاً، وأن لا يأكل فوق حاجته التى يستدفع بها الضرر.

وفى هذه الحالة :

فإن الله غفور له، يتجاوز له عن إثم ما أكل من المحرمات رحيم به، فى إباحته له هذا الأكل، بخلاف المائل المتعمد للإثم فلا يحل له الأكل.

*****

ولما بين الله عز وجل للمسلمين المحرم عليهم من المطعومات : سألوه عن الحلال لهم وصوره ٠٠
وكأنهم قالوا : ماذا أحل لنا ٠٠؟
فأنزل الله تعالى :

{ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ }
[الآية ٤]

ومعنى الآية : يسألك أصحابك يا محمد ما الذى أحل الله لهم أكله من المطاعم والمآكل ٠٠؟
فكان الجواب :
قل لهم يا محمد : أحل الله لكم :
الطيبات أى : ما ليس بخبيث، وهو كل ما لم يأت تحريمه فى كتاب الله تعالى، أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، أو إجماع الأمة، أو القياس.
وما علمتم من الجوارح مكلبين أى أحل لكم أكل ما اصطادته لكم الجوارح، التى علمتموهنَّ، وأدبتموهن ٠٠ ككلب الصيد، والفهد، والصقر، وغير ذلك.
يعنى صيد هذه السباع، التى كنتم :
تعلمونهن مما علمكم الله فى حملهن وتدريبهن على الصيد لكم.
والحكم فى ما صادته الجوارح قوله تعالى :
فكلوا مما أمسكن عليكم أى : كلوا الصيد إذا ظهرت علامة التكليب والتعليم على الذى صاده، وهى : إمساكه، أى عوده به إلى صاحبه بعد صيده له، بشرط أن لا يأكل منه إذا كان الصائد كلباً.
واذكروا اسم الله عليه أى : على الجارح عند إرساله، أو على الصيد إذا أدركتموه حياً وذبحتموه.
واتقوا الله إن الله سريع الحساب أى : التزموا بشرعه، واحذروا مخالفته؛ حيث إنه محاسبكم على أفعالكم، بغاية السرعة والإنجاز.

*****

ثم يقرر ربنا – تبارك وتعالى – ويمن علينا، بإباحته لنا أكل الطيبات.
فيقول :

{ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ }

[الآية ٥]

تذكير بالنعمة، وتأكيد لإباحة أكل الطيبات، وتحريم الخبائث.

وبهذه المناسبة : يذكر تعالى نعمة أخرى، وهى بيان حكم الأكل من طعام أهل الكتاب.

فيقر سبحانه وتعالى :

أن ذبائح اليهود والنصارى : حل لكم؛ لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله، كما أنهم يذكرون على ذبائحهم اسم الله.

ومن باب المكافأة : يحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم أيضاً.

والكلام : خاص بالذبائح ٠٠ حيث إن سائر الأطعمة الحلال، لا يختص حلها بالملة.

ومن تمام بيان الحلال الذى يدخل فى سؤالهم :

قوله تعالى :

والمحصنات من المؤمنات أى : وأحل لكم كذلك : نكاح النساء المؤمنات المحصنات.

والمحصنات : هن ٠٠ الحرائر ، أو العفيفات.

وليس هذا بشرط لصحة النكاح، كما يقول الإمام النسفى : بل هو للاستحباب، حيث إنه يصح نكاح الإماء من المسلمات، ونكاح غير العفائف منهن.

ولكن هذا التخصيص : من باب الحث على التخير لنطف المؤمنين.

وبمناسبة الحلال فى نكاح المسلمات : كان الكلام عن الحلال فى نكاح الكتابيات ٠٠ بقوله تعالى :

والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم حلال لكم أن تنكحوهن، وهن اليهوديات والنصرانيات.

وذلك :

إذ آتيتموهن أجورهن أى : دفعتم إليهن مهورهن ٠٠ وكنتم :

محصنين أى : مريدين الزواج على سنة الله ورسوله ٠٠ وكنتم كذلك :

غير مسافحين يعنى : معلنين الزنا بهن.

أيضاً :

ولا متخذى أخدان أى : ولا متخذى صديقات منهن، تزنون بهن سراً.

وعلى هذا : فالزواج والعلاقة الزوجية : هى المباح فقط.

ثم يقول عز وجل :

{ .. وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ }

يعنى : ومن يرتد عن دينه، ويرجع عن الإيمان إلى الكفر : فقد بطل عمله، وضاع عليه ثوابه، مهما كان هذا العمل، كماً أو نوعاً، وكذلك : من يكفر بشرائع الإسلام.

كما أنه : يكون من الخاسرين فى الآخرة، إذا مات على هذا الكفر.

وهذا : تنبيه على ضرورة التمسك بأهداب هذا الدين، وعدم البعد عن أحكامه وتعاليمه، أو التنكر لها، والإنكار لصلاحيتها.

*****

ومن باب تمام النعمة ٠٠ أيها الأحبة الكرام :
ما جاء فى قوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُوا مَاء فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }
[الآية ٦]

معنى الآية : يا أيها الذين آمنوا إذا أردتم القيام إلى الصلاة، وأنتم محدثون، أى على غير وضوء، أو بعد أن كنتم نائمين ٠٠ فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق أى : مع المرفقين، وهما مفاصل الكوعين.
وامسحوا برءوسكم وفى ذلك خلاف لطيف.
هل يستوعب كل الرأس بالمسح، مرة واحدة، كما ذهب الإمام مالك ٠٠؟
أو يمسح بعض رأسه، ويستحب ثلاث مرات، كما ذهب الإمام الشافعى ٠٠؟
أو يمسح ربع الرأس، وهو مقدار الناصية، ثلاث مرات، ولو بماء واحد، كما ذهب الإمام أبو حنيفة ٠٠؟
الكل جائز.
وأرجلكم إلى الكعبين أى : اغسلوا أرجلكم مع الكعبين.
هذا ٠٠ عند الحدث الأصغر.
وإن كنتم جنباً فاطهروا يعنى : فاغسلوا أبدانكم كلها، حتى لا يبقى شيء منها بدون غسل.
هذا ٠٠
وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً يعنى : إن كنتم مرضى ٠٠ مرضاً يضر صاحبه استعمال الماء.
أو على سفر مسافرين ٠٠ ولم تجدوا الماء.
أو جاء أحد منكم من قضاء حاجته التى لابد منها، ولم تجدوا ماءً.
أو لامستم النساء أى : جامعتكم نساءكم، ولم تجدوا ماءً.
فتيمموا صعيداً طيباً يعنى : فالحكم فى هذه الحالات الأربع ٠٠ أن تقصدوا تراباً طاهراً؛ لتتطهروا به.
ولكن : كيف يكون ذلك؟
فامسحوا بوجوهكم وأيديكم مع المرفقين منه بضربتين.
وكان ذلك كذلك : لأنه ٠٠
ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ومشقة، فى باب الطهارة.
ولذلك : رخص لكم فى التيمم فى هذه الحالات المذكورة؛ توسعة عليكم، ورحمة بكم.
أى : ما يريد ليجعل عليكم من حرج، كما ذكر.

ولكن يريد ليطهركم بالتراب عند فقد الماء، وليتم نعمته عليكم برخصه الميسِّرة.
لعلكم تشكرون نعمته عليكم فيما شرع، وفيما يسر.

*****

ثم – بعد ذلك – يذكر الله عباده المؤمنين بنعمته عليهم، فى : تشريعه لهم هذا الدين العظيم، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم.
فيقول عز من قائل :

{ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ }
[الآية ٧]

والمعنى : اذكروا نعمة الله عليكم بالإسلام، وعهده الذى عاهدكم عليه إذّ قلتم للنبى صلى الله عليه وسلم حينما بايعتموه سمعنا وأطعنا فى كل ما تأمر به، وتنهى عنه.
واتقوا الله فى عهده فلا تقطعوه، ولا تخالفوا فيه إن الله عليم بما فى القلوب، وبما فى غيرها، من الأقوال والأفعال، فيجازى عليه.

* * *

ثم يأمر رب العزة المؤمنين ٠٠ بأمور هى من باب "التقوى".
فيقول :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }
[الآية ٨]

ومعنى الآية :
يا أيها الذين آمنوا ٠٠
كونوا قائمين لله بالحق فى كل ما يلزم القيام به ٠٠ من العمل بطاعته، والبعد عن معصيته.
شهداء بالقسط أى : بالعدل لا بالجور، وبالحق لا بالزور، ولو على أنفسكم، أو الوالدين والأقربين.
ولا يحملنكم خلافكم مع قوم، أو كرهكم لهم : على ترك العدل فيهم؛ حيث إن العدل فى كل الأوقات، وفى كل الأحوال، ومع كل الناس : أقرب لتقوى الله، واكتساب مرضاته.
واتقوا الله فيما أمر ونهى.

إن الله خبير بما تعملون وعد ووعيد، وعد بالخير لمن اتقى والتزم، ووعيد بالعذاب لمن خالف وعصى.

* * *

وبعد هذه التعاليم : يعد ربنا من يلتزم بالمغفرة، ومن يخالف بعذاب الجحيم ٠٠
فيقول جل وعلا :

{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ }
[الآيتان ٩ ، ١٠]

والمعنى : أن الله تبارك وتعالى ٠٠ وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن لهم مغفرة لذنوبهم وأجر عظيم وهو : الجنة.
وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا وعاندوا رسلنا، فـ أولئك أصحاب الجحيم المخلدون فى النار، الملازمون لها.

*****

ولما كان أعداء الإسلام – وما يزالون – يريدون الفتك بالمسلمين، وإنزال الأذى بهم : ولكن الله عز وجل ٠٠ كف – وما يزال – أيدى هؤلاء الأعداء وأذاهم عن المسلمين ٠٠
فقد قال سبحانه ٠٠ مذكراً – وما يزال – بهذه النعمة :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ }
[الآية ١١]

ومعنى الآية : اذكروا نعمة الله عليكم بنجاتكم وقت أن هم قوم من أعدائكم، أن يبطشوا بكم بالإهلاك والقتل، وما يزالون يحاولون ذلك.
ولكن الله عز وجل : منع أيديهم وشرورهم، ومكرهم، وعصمكم منهم، وما أرادوا بكم.
واتقوا الله بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.
وعلى الله فليتوكل المؤمنون فإنه الكافى لكم، والمدافع عنكم، والمتوكل بكم وبحمايتكم.
وهذه نعمة متكررة ٠٠ شاهدها الصحابة مرات ومرات.
ويشاهدها المسلمون فى كل زمان.
وهى : تحثنا على مزيد التقوى، وبذل الجهد، والأخذ بالأسباب.

*****

أيها الكرام ..

بعد أن أمر عز وجل هذه الأمة .. بالوفاء العقود، والطهارة والصلاة ..

وبعد أن ذكرها .. بنعمة الله عليها، إذّ هم قوم أن يبسطوا إليها أيديهم: فكف ذلك عنها ..

بدأ – سبحانه وتعالى – يبين كيف أنه أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتاب – اليهود والنصارى – فلما نقضوا عهوده ومواثيقه، أعقبهم ذلك لعنًا منه لهم، وطرداً من رحمته، وحجاباً لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق.

فقال :

{ وَلَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ }

[الآية ١٢]

والمعنى : أخذ الله العهد على بنى إسرائيل .. بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان بالرسل، ونصرتهم، والإنفاق فى سبيل الله.

ولو فعلوا ذلك : لكفر الله عنهم سيئاتهم، وتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم، ولأدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار.

وأما من كفر منكم بعد ذلك الميثاق والعهد : فقد أخطأ طريق الصواب.

* * *

هذا ..

وقد أمر الله تعالى موسى عليه السلام، أن يأخذ من كل سبط من أسباطهم، نقيباً منهم، ينقب عن أحوال القوم، ويتابعهم، ويفتش عنهم، ويكون كفيلاً عليهم، ليتم الوفاء من بنى إسرائيل بما عاهدوا الله عليه.

فماذا حدث ..؟

{ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }

[الآية ١٣]

فنقضوا الميثاق ..

فأبعدهم الله من رحمته.

وجعل قلوبهم قاسية .

وصاروا :

يحرفون الكلم عن مواضعه ٠٠ إلى غير ذلك.

يقول سبحانه فبما نقضهم ميثاقهم يعنى بسبب نقضهم الميثاق الذى عاهدوا الله عليه.

لعناهم أى : طردناهم، وأخرجناهم من رحمتنا.

وجعلنا قلوبهم قاسية لا رحمة فيها، ولا لين، ولا قبول للإيمان.

ووصلت بهم القسوة ٠٠ أنهم صاروا يحرفون الكلم الذى فى التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وسلم، وغيره عن مواضعه يعنى : يبدلونه عن الحق الذى وضعه الله عليه.

كما أن القسوة وصلت بهم ٠٠ أنهم نسوا حظاً أى نصيباً مما ذكروا وأمروا به فى التوراة من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم ينتقل الكلام إلى النبى صلى الله عليه وسلم من المولى تبارك وتعالى تشريفاً له ولهم وتنبيهاً لطبيعة اليهود.

حيث يقول :

ولا تزال يا محمد، وكذلك : يا أيها المسلم.

تطلع تَطّهر، وتتكشف.

على خائنة منهم يعنى : على خيانة، أو فعلة ذات خيانة ٠٠

ويفهم من قوله ولا تزال أن هذه عادتهم، فلا تأمن لهم، وكذلك المسلمون من بعدك.

إلا قليلاً منهم وهم الذين آمنوا منهم، والذين يؤمنون كذلك، وهم أقلية قليلة.

وهؤلاء القلة.

فاعف عنهم واصفح وتجاوز عما سلف منهم، فلا تؤاخذهم به ٠٠ كدأبك من المؤمنين؛ حيث صاروا منهم إن الله يحب المحسنين.

*****

يلاحظ : أن الميثاق الذى أخذ على بنى إسرائيل ٠٠ كان بخمسة أشياء، هى: الصلاة، والزكاة، والإيمان بالرسل، ونصرتهم، وفعل الخير ٠٠ وأنهم عوقبوا على النقض له بقسوة القلب، والطرد من رحمة الله.

وهذه الأشياء نفسها أخذت علينا.

وعلى هذا ٠٠

فمن رأى من قلبه قسوة : فلينظر أى شيء قصَّر فيه من هذه الأمور، حتى يصلح حاله، ويلين قلبه.

* * *

أيضاً :

{ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ }

[الآية ١٤]

ومعنى الآية : كما أخذنا على اليهود العهود ٠٠ أخذنا كذلك على الذين قالوا إنا نصارى، وابتدعوا لهم هذا الاسم.

فماذا فعل هؤلاء أيضاً ٠٠؟

يقول ربنا تبارك وتعالى :

فنسوا حظاً مما ذكروا به يعنى : تركوا وأهملوا ما نزل عليهم، وشُرِّع لهم، بل خالفوه، ومن ذلك : التوحيد والشرائع.

ولذا عاقبوه على ذلك.

ولكن بماذا ٠٠ ؟

يقول تعالى :

فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء أى : ألصقنا بين فرق النصارى المختلفة والكثيرة ٠٠ العداوة، والبغضاء؛ حيث بلا يزالون متباغضين متعادين، يكفر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً، بل كل فرقة تحرم الأخرى من الجنة فى زعمها، ولا تدعها تدخل معبدها.

إلى يوم القيامة والأمر فيهم هكذا إلى يوم القيامة، وهو عقاب مستمر بهم، كما هو مشاهد.

هذا ٠٠

وسوف ينبئهم الله في الآخرة.

بما كانوا يصنعون ويجازيهم عليه.

وقد دلت الآية الكريمة : على أن نسيان جزء من الوحى ٠٠ يجعل الأمة تستحق العداوة والبغضاء.

وأمتنا نسيت الكثير من الوحى، أو تركت العمل به.

ولذا : فآثاره من العداوة والبغضاء بين أفرادها، وجماعاتها، وشعوبها مشاهد، وواقع كما نرى.

*****

وبعد أن خاطب الله كل فريق من أهل الكتاب على حدة.

حيث بين لليهود نقضهم للتوراة ٠٠

كما بين للنصارى نقضهم للإنجيل ٠٠

خاطب الفريقين معاً ٠٠ قائلاً :

{ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }

[الآيتان ١٥ ، ١٦]

ومعنى الآية :

يا أهل الكتاب من اليهود والنصارى ٠٠ قد جاءكم رسولنا محمد – صلى الله عليه وسلم – يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون تكتمون من كتابكم، وتخفونه ٠٠ مثل : التوحيد ، وتنزيه الله تعالى، والشرائع، وصفة محمد – صلى الله عليه وسلم – ويعفو عن كثير مما كنتم تخفونه، أى يسكت عما كنتم تغيرونه وتحرفونه، ولا فائدة فى بيانه.

يا أهل الكتاب ٠٠ قد جاءكم من الله نور وهو محمد – صلى الله عليه وسلم – ، وسمى نوراً : لأنه يهتدى بما جاء به، ويقتدى بسلوكه وشخصه وجاءكم أيضاً كتاب مبين أى واضح، ظاهر الإعجاز.

هذا الكتاب يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام أى يهدى به الله طرق السلامة، التى توصل إلى رضوان الله، ورحمته، وجنته ٠٠ وهى : الإيمان به، وبرسله، وبكتبه.

وبهذا الكتاب يخرجهم من الظلمات إلى النور يعنى يخرج بهذا الكتاب من آمن بالله ورسله وكتبه ٠٠ من ظلمات : الشرك، والشك، والشهوة، إلى نور الإسلام والمعرفة.

وكل ذلك بإذنه وإرادته، وتوفيقه.

وفوق كل هذا يا أهل الكتاب : يهديهم القرآن وما يحتويه إلى صراط مستقيم يعنى : إلى الطريق الأقوم السليم، الذى لا اعوجاج فيه، ولا انحراف.

يا أهل الكتاب ٠٠ بعد بيان مهمة محمد صلى الله عليه وسلم، وتوضيح هدى القرآن ٠٠

هل يليق بمنصف ٠٠ ألا يؤمن بهما ٠٠؟!!

كلا ٠٠ وألف كلا ٠٠

ومن يكفر : فليقرأ ما يلى ٠٠

*****

{ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

[الآية ١٧]

نعم ٠٠ كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم، وهم "اليعقوبية"، فرقة من فرق النصارى.

وأى كفر أفظع من جَعْل البشر إلهاً ٠٠؟

ولذلك : رد الله عليهم، وأبطل قولهم الفاسد.

حيث قال :

قل يا محمد لهم فمن يملك أن يدفع من عذاب الله شيئاً أو يرد قضاءه إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم الذى زعموه إلهاً وأمه كذلك ومن فى الأرض من الناس جميعاً .

ومعنى هذا : أن المسيح عبد مخلوق كسائر العباد، وهو وأمه عليهما السلام: من جنسهم.

وقل لهم يا محمد كذلك ولله ملك السموات والأرض وما بينهما ملكاً، يعنى جميع الموجودات ملكه سبحانه، ومن هؤلاء المسيح ابن مريم وأمه، ومن كان مملوكاً لغيره : لا يصير رباً .

يخلق ما يشاء من ذكر وأنثى، كسائر الناس، ومن أنثى بلا ذكر، كعيسى عليه السلام، ويخلق بلا ذكر ولا أنثى، كآدم عليه السلام.

والله على كل شيء قدير .

*****

ثم يرد الله عز وجل على أهل الكتاب فى فرية أخرى من افتراءاتهم ٠٠ بقوله :

{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ }
[الآية ١٨]

معنى الآية : قالت اليهود وقالت النصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه أى: مثل أبنائه فى القرب والمنزلة والمحبة، وهو : كأبينا فى الرحمة والشفقة .

قال الله تعالى لحبيبه، صلى الله عليه وسلم:

قل لهم : إن صح أنكم أبناء الله وأحباؤه، فلم يعاقبكم ويعذبكم بذنوبكم، فى الدنيا وفى الآخرة.

ومعلوم : أن الأب لا يعذب ولده، وأن الحبيب لا يعذب حبيبه ٠٠ وقد عذبتم.

فأنتم كاذبون فى دعواكم.

بل أنتم بشر ممن خلق لكم ما لهم، وعليكم ما عليهم، ولا مزية لكم على أحد، إلا بالإيمان، والعمل الصالح، لو كان ٠٠!!

يغفر لمن يشاء المغفرة له ويعذب من يشاء تعذيبه دون اعتراض من أحد على هذا أو ذاك.

حيث إن لله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير أى : المرجع فى النهاية، عند الحساب، والجزاء.

وفى هذا : تنبيه، ووعد، ووعيد.

*****

ويبين الله – بعد هذا كله – لأهل الكتاب ٠٠ من خلال خطابه لهم : أنه قد أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم ، بعد فترة انقطاع للوحى وللرسل، بشيراً ونذيراً.

حيث يقول تبارك وتعالى :

{ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }
[الآية ١٩]

ومعنى الآية : يا أهل الكتاب من اليهود والنصارى ٠٠ قد جاءكم رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم يبين لكم شرائع الله، وما كنتم تخفون، وما كنتم فيه تختلفون على فترة من الرسل أى : بعد فتور وانقطاع للوحى والرسل.

وكان إرساله، صلى الله عليه وسلم : لئلا تقولوا إذا عذبتم ما جاءنا من بشير ولا نذير فلم نعذب إذاً ٠٠!!

ولذلك، وقطعاً لأعذاركم :

فقد جاءكم بشير للمؤمنين ونذير للكافرين.

والله على كل شيء قدير ومن ذلك : تعذيبكم إن لم تتبعوه.

*****

وبعد ذلك : يذكر موسى قومه بنعمة من نعم الله عليهم، ليستجيبوا له، ولكنهم يرفضون، ويعاقبون.

وفى ذلك : تربية لأمة محمد صلى الله عليه وسلم.

فلنقرأ هذه الآيات الكريمة :

{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ }

[الآية ٢٠]

ومعنى الآية : أن الله تعالى يقول لمحمد صلى الله عليه وسلم، ولكل فرد من أمته، ليتعظ ويعتبر:

اذكر وقت أن قال موسى عليه السلام : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم فلا تنسوها، واعملوا بموجبها، واشكروا له عليها ٠٠ بصفة عامة، حيث إن نعم الله كثيرة.

ثم ذكر – على وجه الخصوص – ثلاثاً من هذه النعم، لقومه :

الأولى : أنه جعل منكم أنبياء، كيوسف، وموسى، وهارون، عليهم السلام.

الثانية : وجعلكم ملوكاً ٠٠ أى : أحراراً ، بعد أن كنتم مستعبدين مستذلين، فى أيدى القبط، وصرتم أصحاب خدم وحشم.

الثالثة : وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين فى زمانكم، من المن والسلوى، وفلق البحر، وإغراق العدو، وغير ذلك.

* * *

ولذلك : رتب موسى عليه السلام على التذكير بهذه النعم أمراً ونهياً لهم، فى قوله :

{ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ }
[الآية ٢١]

والمعنى : أنه لما ذكرهم بنعمة الله عليهم ٠٠ أمرهم بالخروج للجهاد.
فقال آمراً لهم :
يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة أى : المطهرة وهى أرض بيت المقدس وما حولها.
التى كتب الله لكم فى اللوح المحفوظ ٠٠ أنها مساكن لكم، وأمركم بدخولها.
ثم قال ناهياً لهم :
ولا ترتدوا على أدباركم أى : ولا ترجعوا عن دينكم وأحكامه وتعاليمه ٠٠ أو : ولا ترجعوا على أدباركم خائفين من عدوكم إذا رأيتموه، أو واجهتموه.
وإلا٠٠
فتنقلبوا خاسرين أى : ترجعوا – إذا رجعتم على أدباركم منهزمين – خاسرين ثواب الدنيا والآخرة .

*****

هل تريدون – أيها الأحبة الكرام – معرفة ماذا كان جوابهم ٠٠؟
هذا هو جوابهم ٠٠

{ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ }
[الآية ٢٢]

وهكذا ٠٠ بدأ الخوف.
إنهم حتى ما حاولوا الدخول، ولكن :
قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين عتاة، يجبرون الناس على ما يريدون.
وبناءً على ذلك :
لن ندخلها للقتال ، ولا بالقتال حتى يخرجوا منها بلا قتال.
فإن يخرجوا منها بغير قتال فإنا داخلون .
وهنا :

{ قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }
[الآية ٢٣]

معنى الآية :

أن بنى إسرائيل لما خافوا من الدخول، وتعللوا لعدم تنفيذ أمر الله تعالى، الذى قاله موسى عليه السلام لهم :

قال رجلان مؤمنان ٠٠ يتصفان بصفتين :
الأولى يخافون الله، ويخشونه، ويتقون عذابه.
الثانية أنعم الله عليهما بنعمة التقوى والخوف منه.
ماذا قالا :
قالا لهؤلاء القوم الخائفين :
ادخلوا عليهم الباب أى باب القرية، ولا تخافوهم، فهم أجساد بلا قلوب ولا عقول.
ولذلك ٠٠ إذا دخلتموه فإنكم غالبون لهم بإذن الله.
هيا ٠٠ توكلوا على الله وادخلوا ٠٠
وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين وسينصركم عليهم ؛ حيث إنه تعالى لا يخذل أولياءه.

* * *

ماذا فعل القوم ٠٠؟
لم يلتفتوا إلى كلام هذين الرجلين المؤمنين، بل ٠٠

{ قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ }
[الآية ٢٤]

يعنى : هذا قرارنا النهائى ٠٠
إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها ولن نحارب.
وأما أنت ٠٠ فإذا كنت تريد الدخول، وقتال هؤلاء الجبارين فاذهب أنت وربك فقاتلا هؤلاء القوم إنا ها هنا قاعدون ممتنعون عن القتال، ننتظر ماذا ستفعل معهم وماذا سيفعلون معك، ولا دخل لنا بشيء.
وهكذا ٠٠ عصوه، وخالفوه، وخذلوه، وفسقوا.
ولذلك ٠٠

{ قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ }
[الآية ٢٥]

ومعنى الآية : أنه توجه إلى ربه، وبثه شكواه، وأعلن عجزه، وطلب نصرة مولاه.
حيث قال رب إنى لا أملك لنصرة دينك إلا نفسى وأخى فقط.
ولذلك٠٠

فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين أى : افصل بيننا وبينهم، واحكم لنا بما وعدتنا، واحكم عليهم بما هم أهله، وباعد بيننا وبينهم، وخلصنا من صحبتهم.

وكان الجواب ٠٠ فى قوله تعالى :

{ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ }
[الآية ٢٦]

يعنى : أجاب الله دعاءه عليه السلام.
حيث قال له :
فإنها محرمة عليهم أى : الأرض المقدسة؛ إذّ إنه عز وجل كتبها لهم بشرط الجهاد، فلما أبوا منعوا من دخولها عدلاً، ولم يمنعوا من التعبد فيها فضلاً منه سبحانه.
وهذا التحريم ٠٠ لمدة أربعين سنة.
ولكن ماذا يفعلون خلالها ٠٠؟
يتيهون فى الأرض يسيرون فيها تائهين متحيرين.
هذا حكم الله فيهم يا موسى :
فلا تأس على القوم الفاسقين يعنى فلا تحزن عليهم؛ حيث إنهم فسقوا وخالفوا وعصوا فاستحقوا هذه العقوبة.

*****

{ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ }

[الآية ٤١]

الخطاب فى هذه الآية : مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠٠ عن صنفين من الناس : يسارعون فى الكفر ٠٠

وهما : المنافقون، واليهود.

ومعنى الآية :

يا أيها الرسول لا يحزنك صنع الذين يسارعون فى الكفر ويقعون فيه بسرعة، ويظهرونه إذا لاحت لهم فرصة.

وذلك يحدث :

من الذين قالوا آمنا بأفواههم أى : بألسنتهم، ولم تؤمن قلوبهم فى حقيقة الأمر ٠٠ وهم المنافقون.

ويحدث كذلك :

من الذين هادوا وهم قوم من اليهود، يتصفون بصفتين :

الأولى سماعون للكذب من أحبارهم، ونقله للعوام.

الثانية سماعون للحق منك، ونقله لأحبارهم، ليحرفه الأحبار، لقوم آخرين من اليهود لم يأتوك لتكبرهم، وبغضهم لك، وكراهيتهم أن يحضروا مجلسك.

هؤلاء اليهود :

يحرفون الكلم الذى فى التوراة، كآية الرجم.

من بعد مواضعه التى وضعها الله عليها.

يعنى : يبدلون كلام الله ويغيرونه، كما حدث حينما زنى منهم شريفان محصنان، وكان حدهما فى التوراة الرجم.

ولأنهم كرهوا رجمهما لشرفهما : بعثوا رهطا منهم ليسألوا النبى صلى الله عليه وسلم، عسى أن يجدوا لهما غير الرجم ٠٠

ولكن النبى صلى الله عليه وسلم : أمرهم بالرجم.

فلم يعجبهم ذلك ٠٠ حتى أظهر الله هذا الحكم وهو الرجم على أيدى علمائهم من التوراة.

وكان اليهود ٠٠ يقولون لمن أرسلوهم للنبى صلى الله عليه وسلم :

إن أوتيتم هذا الحكم الذى تريدون، وهو الجلد للزانيين المحصنين، وأفتاكم به محمد فخذوه واقبلوه، ونفذوه.

وإن لم تؤتوه بل أفتاكم بخلافه فاحذروا أن تقبلوه.

و هكذا من يرد الله فتنته وإضلاله فلن تملك له من الله شيئاً فى دفع هذه الفتنة عنه.

أولئك المنافقون واليهود لم يرد الله أن يطهر قلوبهم من الكفر، ولو أراد ذلك لكان.

وهذ عقوبتهم :

لهم فى الدنيا خزى ذل الفضيحة للمنافقين، وذل الجزية لليهود.

ولهم فى الآخرة عذاب عظيم وهو الخلود فى عذاب جهنم.

*****

ثم يتم المولى حديثه مع النبى صلى الله عليه وسلم عن اليهود ٠٠ بقوله :

{ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ }
[الآية ٤٢]

قوله تعالى سماعون للكذب تكرير لتأكيد هذه الصفة فيهم.
ومعنى الآية : أن من صفات اليهود الراسخة فيهم ٠٠
أنهم سماعون للكذب يتلذذون بذلك، بل يختلقونه ليسمعوه.
أكالون للسحت مبالغون، شرهون فى أكل السحت، وهو كل ما لا يحل كسبه من المال الحرام، ويدخل فيه السرقة، والرشوة ٠٠ إلخ.
فإن جاءوك يا محمد ، لتحكم بينهم.
فــ أنت بالخيار ٠٠
احكم بينهم أو أعرض عنهم.
ويلاحظ : أن هذا التخيير ٠٠ قد نسخ العمل به ، وذلك بقوله تعالى الآتى وأن احكم بينهم بما أنزل الله [المائدة : ٤٩].
وكان الحكم فى هذا التخيير المنسوخ، أنه :
إن تعرض عنهم ولم تستجب لهم : فلن يضروك شيئاً حيث إن الله تعالى يعصمك من الناس، ويدفع عنك أذاهم.
وإن حكمت بينهم، واستجبت لهم فاحكم بينهم بالقسط أى : بالعدل. حيث إن الله يحب المقسطين .

* * *

ولكن ٠٠ أمرهم عجيب ٠٠!!

{ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَـئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ }
[الآية ٤٣]

ومعنى الآية : عجيب أمر هؤلاء اليهود ٠٠!!

كيف يأتون إليك، ويطلبون حكمك، وهم لا يؤمنون بك، ولا بكتابك ..!!

فى الوقت الذى يوجد فيه الحكم الذى يسألون عنه فى كتابهم الذى يدعون الإيمان به، منصوص عليه فى التوارة.

والأعجب من هذا ..

أنهم بعد تحكيمك، وحكمك فيهم ولهم، الموافق لما فى كتابهم : لا يرضون به.

حقاً وما أولئك بالمؤمنين لا بك، ولا بكتابك، ولا بكتابهم كما يدعون.

*****

هذه التوراة، التى لا يرضون بأحكامها : يرفع الله عز وجل شأنها، ويعلى من منزلتها؛ بياناً لسوء تصرفهم معها، وعدم إيمانهم بها.

فيقول :

{ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ }

[الآية ٤٤]

ومعنى الآية :

إنا أنزلنا التوراة على موسى عليه السلام.

فيها هدى من الضلالة؛ يهدى للحق.

ونور يبين للناس الأحكام، التى يحتاجون إليها.

يحكم بها النبيون من بنى إسرائيل، موسى عليه السلام، ومن بعده منهم، هؤلاء النبيون هم ..

الذين أسلموا أى : انقادوا لحكم الله فى التوراة، وهى صفة مدح، أريد بها التعريض باليهود الذين يعادون ملة الإسلام، دين الأنبياء واتباعهم جميعاً.

يحكمون بها ..

للذين هادوا عامة لليهود.

والربانيون العلماء منهم.

والأحبار الفقهاء منهم.

وكان حكمهم هذا بما استحفظوا من كتاب الله أى : استودعه الله عنهم، واستحفظهم عليه، حتى لا يبدل، أو حتى لا يبدلوه هم.

وكانوا فى ذات الوقت عليه شهداء أنه حق لا شبهة فيه.

ثم ينهى ربنا عز وجل من يحكم .. بقوله :

فلا تخشوا الناس فى حكمكم لهم أو عليهم أبداً، واخشون واتقون.

وهو : نهى لمن يحكم ٠٠ أن يحكم بغير العدل؛ بسبب الخشية من سلطان ظالم، أو الأذية من أحد.

وكذلك : ينهى من يحكم ٠٠ قائلاً :

ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً أى : لا تستبدلوا أحكامى، أو تغيروا فيها، أو تظلموا بسببها ٠٠ من أجل ثمن قليل ٠٠ رشوة مثلاً، أو ابتغاء جاه، أو مرضاة لأحد.

حيث إن ذلك – لو كان – يكون : حكم بغير ما أنزل الله.

ومن لم يحكم بما أنزل الله مستهيناً به، أو منكراً له، أو مفضلاً لغيره عليه، أو مستحلاً ما حرم الله.

فأولئك هم الكافرون بالله تعالى، ورسله، وما أنزل الله.

وما أكثر هذا – بكل أسف – فى عصورنا ٠٠!!

*****

ثم يوضح ربنا تبارك وتعالى بعض ما جاء فى التوارة، بقوله :

{وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ }

[الآية ٤٥]

ومعنى الآية : أنا فرضنا على اليهود فى التوراة ٠٠

أن النفس تقتل بالنفس إذا قتلتها بغير حق.

والعين تفقأ بالعين إذا فقئت.

والأنف تجدع بالأنف المجدوعة.

والأذن تقطع بالأذن.

والسن تقلع بالسن.

و أما الجروح : فهى قصاص أى : يقتص فيها إن أمكن ذلك ٠٠ كاليد، والرجل، ونحو ذلك ٠٠ وما لا يمكن فيه القصاص : ففيه الحكومة، وهى جزء من دية النفس.

ويلاحظ : أن هذا الحكم، وإن كتب عليهم ٠٠ فهو مقرر فى شرعنا.

هذا ٠٠ هو الحكم ٠٠

فمن تصدق به أى : بالقصاص، من أصحاب الحق وعفا عنه فهو كفارة له أى : كفارة لخطايا المتصدق، بإحسانه، وتنازله عن هذا الحق، وعفوه عن صاحبه.

ومن لم يحكم بما أنزل الله فى هذه الأشياء، التى فيها القصاص.

فأولئك هم الظالمون حيث لم يعدلوا، وامتنعوا عن الحكم بما أنزل الله فى هذه الأشياء، التى شرعت لهم فى التوارة.

*****

وبعد أن بين الله أحكام التوراة : يبدأ فى بيان أحكام الإنجيل ٠٠ فيقول :

{ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ }
[الآية ٤٦]

ومعنى الآية : وأتبعنا أنبياءهم بعيسى ابن مريم.

وجعلناه مصدقاً لما بين يديه من التوراة أى : مؤمناً، وحاكماً، وبانيا أحكامه، على ما سبقه من التوراة.

وآتيناه مع ذلك الإنجيل حال كونه.

فيه هدى من الضلالة، يهدى إلى الحق.

ونور يبين للناس الأحكام، التى تحتاجون إليها.

هذا الإنجيل كذلك :

جعلناه مصدقاً لما بين يديه من التوراة أى : غير مناقض لها، ولا مخالف لما فيها، بل مصدق لأحكامها.

كما أنه – أى الإنجيل – فى ذاته :

هدى وموعظة أى : هادياً وواعظاً.

للمتقين حيث إنهم الذين ينتفعون بوعظ الإنجيل لهم، وهديه فيهم.

هذا ٠٠

وقلنا لأهل الإنجيل :

{ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }
[الآية ٤٧]

ومعنى الآية : أنا أمرنا أهل الإنجيل ٠٠ أن يحكموا بما أنزل الله فيه من الأحكام، وفرضنا ذلك عليهم.

وبينا أن :

من لم يحكم بما أنزل الله فى الإنجيل، وفى كل كتاب أنزله الله فأولئك الذين لا يحكمون بذلك هم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله.

*****

وبعد الكلام عن التوراة ٠٠

وبعد الكلام عن الإنجيل ٠٠

يأتى الكلام عن القرآن الكريم .
حيث يقول تعالى :

{ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ }
[الآية ٤٨]

ومعنى الآية :
وأنزلنا إليك يا محمد.
الكتاب بالحق القرآن، بالصدق الذى لا ريب فيه ٠٠ أنه من عند الله، وليبين الصواب من الخطأ فى كل شيء.
نعم ٠٠ أنزلنا إليك القرآن، حال كونه.

١- مصدقاً لما تقدمه من كتب سماوية، لموافقته لما فيها، قبل تحريفها، وتبديلها.
٢- ومهيمناً عليها ٠٠ أى : شاهداً على ما فيها؛ حيث إنه تضمن ما جاء فيها، وزاد عليها من الكمالات ما لا يحيط به إلا الله.
لذلك :
فاحكم بينهم يا محمد.
بما أنزل الله فى القرآن.
ولا تتبع أهواءهم الباطلة، التى ما أنزل الله بها من سلطان، وتنصرف بسبب ذلك.
عما جاءك به الحق الذى لم يبدل، ولم يحرف، ولم يأت من الله ما ينسخه ويغيره.
وكان ذلك ٠٠ حيث إنه :
لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً أى : لكل منكم شريعة، وطريقة، ولكن الدين واحد.
ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة مجتمعين على شريعة واحدة وطريقة واحدة.
ولكن كان ذلك الاختلاف بينكم ليبلوكم أى : يختبركم فيما آتاكم من الشرائع المختلفة؛ حيث تعبد كل أمة بما اقتضته الحكمة الإلهية ٠٠ حتى أنزل – سبحانه وتعالى – القرآن، فتعبد الناس جميعاً به وبأحكامه.
ولذلك ٠٠
فاستبقوا الخيرات أى : تسابقوا فى تنفيذ ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، قبل فوات الأوان.
خاصة ٠٠ وأنه :
{ إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون }

*****

ثم يؤكد ربنا عز وجل الأمر بوجوب الحكم بما أنزل الله وحده ٠٠ فيقول :

{ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ }

[الآية ٤٩]

هذه الآية : نزلت فى شأن الدماء، والديات.

ومعناها : أنزلنا إليك الكتاب يا محمد لتحكم بينهم بما فيه ٠٠ فاحكم بينهم بما أنزل الله.

ولا تتبع أهواءهم أى : أهواء أهل الكتاب، أو أية أهواء، بصفة عامة، تخالف شرع الله.

واحذرهم أى : احذر منهم.

أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله أى : احذر منهم أن يصرفوك ويبعدوك عن بعض شرع الله الذى أنزله الله عليك.

ولهذه الآية ٠٠ قصة ٠٠

ملخصها : أن فريقاً من اليهود فى المدينة ٠٠ ذهبوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم؛ ليفتنوه عن دينه.

وقالوا : يا محمد، قد عرفت أنا أحبار اليهود، وأشرافهم، وأنا إن اتبعناك : اتبعنا اليهود، ولم يخالفونا، وأن بيننا وبين قومنا خصومة ٠٠ وسنتحاكم إليك، فاقض لنا عليهم، نؤمن بك ونصدقك.

فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فأنزل الله هذه الآية.

فتولوا عنه.

لذا يقول رب العزة :

فإن تولوا عنك، وعن الحكم بما أنزل الله إليك وأرادوا غيره : فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ومنها : التولى عنهم، ورفض حكم الله، ويجازيهم عليها جميعاً.

وإن كثيراً من الناس لفاسقون خارجون عن طاعة الله تعالى، وبعيدون من رحمته.

* * *

عجيب ٠٠!!

ما لهؤلاء القوم يتولون عنك، وعن حكم الله ٠٠!!

{ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ }

[الآية ٥٠]

والمعنى : ماذا يريد هؤلاء الناس ٠٠؟

أيريدون حكماً غير حكم الله ٠٠؟!!!

أفحكم الجاهلية يبغون أى : يطلبون؛ إذ يرفضون حكم الله العالم العادل سبحانه وتعالى .

فليخبرونا إذًا :

من أحسن من الله حكماً ٠٠!!

إنه : لا أحسن أبداً من حكم الله حكماً لقوم يوقنون حيث إنهم الذين يثبتون ألا أعدل من الله، وألا أحسن من حكمه حكماً.

*****

بعد هذه الجولة حول اليهود والنصارى : ينهى ربنا تبارك وتعالى عن اتخاذهم أولياء.

فيقول :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }

[الآية ٥١]

قيل فى سبب نزول لهذه الآية :

إنه : لما كانت وقعة أحد ٠٠ اشتد الأمر على طائفة من الناس.

فقال أحد رجلين لصاحبه : إنى ذاهب إلى فلان اليهودى، آوى إليه، وأتهود معه؛ لعله ينفعنى إذا وقع أمر، أو حدث حادث.

وقال الآخر : أما أنا فإنى ذاهب إلى فلان النصرانى بالشام، فآوى إليه، وأتنصر معه.

فأنزل الله هذه الآية .

وقيل : غير ذلك من الأسباب فى نزولها.

ولكن العبرة – كما يقول العلماء – بلفظ الآية العام، وليس بسبب نزولها الخاص.

ومعنى الآية :

لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء تنصرونهم، وتطلبون نصرتهم، وتأنسون إليهم، وتعاشرونهم معاشرة المسلمين.

والسبب أن :

بعضهم أولياء بعض حيث إنهم متحدون فى الكفر، والكفر كله ملة واحدة، يعادى أهله الإسلام والمسلمين.

على ذلك :

ومن يتولهم منكم فإنه منهم أى : من جملتهم، ومن أهل دينهم، وهم فى هذه الحالة : من الظالمين.

إن الله لا يهدى القوم الظالمين أى : لا يرشدهم إلى الصواب، فيقعون فى الضلال والضياع.

*****

ثم يبين ربنا الحكيم العليم : كيفية هذه الموالاة، وسببها، وما تؤدى إليه ٠٠

فيقول :

{ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ }
[الآية ٥٢]

يعنى : ترى هؤلاء الذين يوالون اليهود والنصارى وهم الذين فى قلوبهم مرض يسارعون بالمبادرة فى معاونتهم، أو اللجوء إليهم، أو طلب نصرتهم.

وهم يقولون لأنفسهم، أو للمؤمنين ، أو لليهود والنصارى :

نخشى أن تصيبنا دائرة يعنى : نخاف أن تصيب المسلمين هزيمة، أو ينزل بهم مكروه.

وهنا : يرد الله عليهم، ويقطع عللهم الباطلة، وأطماعهم الفارغة، ويبشر المؤمنين بالنصر والغلبة.

حيث يقول :

فعسى الله أن يأتى بالفتح بالنصر وإظهار الدين، وهذا وعد من الله لا يتخلف؛ عسى إذا كانت من الله : فهى وعد لا يتخلف، كما يقول العلماء.

أو أمر من عنده بهتك ستر هؤلاء المسارعين لموالاة اليهود والنصارى.

وفى هذه الحال :

فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم من الشك وموالاة أعداء الله نادمين.

* * *

وأما الذين آمنوا : فيصور الله موقفهم آن ذاك بقوله تعالى :

{ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَـؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ }
[الآية ٥٣]

يعنى : إذا انتصر المسلمون ، وانكشف المنافقون، وفضح الله سترهم، وكشف كذبهم ..

يقول الذين آمنوا وثبتوا على الإيمان، ولم يوالوا أعداء الله، لبعضهم البعض، متعجبين :

أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم أى : أليس هؤلاء الذين فضحهم الله هم الذين أقسموا بالله لكم بأغلظ الأيمان : أنهم أولياؤكم ضد أعدائكم.

يقول تعالى :

حبطت أعمالهم ضاعت أعمالهم؛ لأنها كانت رياءً وسمعة، ولم يكن فيها صدق لله تعالى ولا إخلاص.

فأصبحوا خاسرين فى الدنيا بالفضيحة وسوء الحال، وفى الآخرة بالعقاب وسوء المآل.

*****

وبعد أن انتهى ربنا عز وجل عن موالاة الكافرين، حيث إنها من طرق الارتداد عن دين الله ٠٠
بدأ فى بيان حال المرتدين عموماً ٠٠
حيث يقول :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }
[الآية ٥٤]

ومعنى الآية : الإخبار بما علم الله تعالى وقوعه من ارتداد بعض الناس، وقد ارتد جماعة بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم، ولا يزال البعض يرتد كذلك، وإن كانوا قلة لا يؤبه لها.
يقول تعالى :
يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه الإسلام، ويعود إلى الكفر ٠٠ فلا وزن له، ولا أثر منه، وضرورة على نفسه؛ حيث إن دين الله غالب، وأمر الله ظاهر.
وأيضاً :
فسوف يأتى الله بدلاً منه.
بقوم هذه أوصافهم :

١- يحبهم أى : يلهمهم الطاعة، ويثيبهم عليها، ويريد لهم خيرى الدنيا والآخرة.
٢- ويحبونه أى : يطيعون أوامره، ويبتعدون عن معاصيه.
٣- أذلة على المؤمنين أى : عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع، كما فى قوله تعالى واخفض لهما جناح الذل من الرحمة.
٤- أعزة على الكافرين أى : متغلبين عليهم، مترفعين عن دناءاتهم، وهى عزة عن قوة لا عن ضعف وعجز.
٥- يجاهدون فى سبيل الله لنصرة دينه، وحماية أوليائه، وإعلاء كلمته.
وحالهم فى جهادهم هذا ، وفى كل أحوالهم، أنهم :
٦- لا يخافون لومة لائم فى القتال فى سبيل الله، أو فى أى أمر يخص دين الله.

ويلاحظ : أنه فى عصرنا هذا تزداد حملات الإعلام العالمى ضد الجهاد فى سبيل الله، وأهله.
كما يلاحظ : أنه فى عصرنا – أيضاً – تزداد حملات الملامة والاتهامات، ضد من يجاهدون فى سبيل الله .
ومن هنا : يدرك المسلم ٠٠ ضرورة التحقق بهذه الصفات، التى ذكر الله فى كتابه الكريم الخالد.
على كل حال :
هذه الصفات المذكورة : فضل من الله .
حيث يقول سبحانه :
ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ألا فليتعرض لفضل الله من يبتغيه ٠٠!!
والله سميع عليم واسع الفضل، عليم بمن يستحقه.

*****

وبعد أن ذكر الله تعالى من يجب عدم موالاتهم ٠٠
يذكر – تبارك وتعالى – من تجب موالاتهم ٠٠
حيث يقول للمؤمنين :

{ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ }
[الآية ٥٥]

ومعنى الآية : أنه إذا كنت نهيتكم عن موالاة اليهود والنصارى، فإن وليكم الله وهذا هو الأصل لا ولى لكم سواه، ويتبعه فى ضرورة موالاتكم له رسوله صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا المتصفون بأنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم خاشعون لله متواضعون له سبحانه راغبون فى الإحسان مسارعون إليه.
يروى فى سبب نزولها : أن عبد الله بن سلام جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فقال : يا رسول الله ٠٠ إن قومنا قريظة والنضير هجرونا وفارقونا وأقسموا أن لا يجالسونا.
فنزلت هذه الآية ٠٠
فقرأها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠٠
فقال عبد الله بن سلام : رضينا بالله رباً، وبرسوله نبياً، وبالمؤمنين أولياء.

* * *

يقول تعالى :

{ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ }
[الآية ٥٦]

والمعنى : أن من يمتثل ويتبع شرع الله ، ويتول الله ورسوله والذين آمنوا بإعانتهم، ونصرتهم، والاستنصار بهم، واللجوء إليهم : فهو من حزب الله، وأحبابه، وأوليائه.
إضافة إلى ذلك :
فإن حزب الله هم الغالبون بالحجة والبرهان، دائماً، وأحياناً بالصولة والسنان، كما غلب حزب الله فى غير مرة، فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وغيره.

*****

ومرة أخرى : ينهى ربنا عن اتخاذ أعداء الله أولياء ٠٠ فيقول :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ }
[الآيتان ٥٧ ، ٥٨]

ومعنى الآية : النهى للمؤمنين عن موالاة الذين يهزءون ويسخرون من الدين الإسلامى ومبادئه وشعائره، ويعتبرونها لعباً وعبثاً.

وسواء كان هؤلاء الذين يهزءون من اليهود، أو النصارى، أو الكافرين عامة، من : ملحدين، وشيوعيين، وبوذيين، وهندوس، وغير ذلك.

واتقوا الله أى : خافوا الله يا مؤمنون، واتركوا الولاء لهم ومعهم.

إن كنتم مؤمنين حقاً ؛ حيث إن موالاة هؤلاء : تتنافى مع الإيمان الصادق.

هؤلاء :

إذا ناديتم إلى الصلاة رفعتم الأذان بها، أو قمتم إلى الصلاة، أو دعوتموهم إليها : سخروا منكم واتخذوها هزواً ولعباً .

ذلك بــسبب أنهم قوم لا يعقلون لأنه لو كان لديهم عقل يستعملونه، وفكر ينتفعون به : ما فعلوا ذلك ، بل لو كان ٠٠ لآمنوا وانتفعوا.

* * *

يقول تعالى :

{ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ }
[الآية ٥٩]

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً ٠٠ من أهل الكتاب.

يا أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

هل تنقمون منا تنكرون منا، وتعيبون علينا، شيئاً.

إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل أى : إلا إيماننا بالله تعالى، وإيماننا بالقرآن الذى أنزل علينا، وإيماننا بالكتب التى أنزلت على الأنبياء السابقين.

اعلموا يا أهل الكتاب ٠٠ أن هذا الإنكار علينا فى إيماننا ٠٠ ما له من سبب، إلا أن أكثركم فاسقون خارجون عن طاعة الله عز وجل، ولذا : لا يلتفت إلى إنكاركم؛ لأن الإيمان لا عيب فيه ولا مذمة عليه.

*****

ثم بين ربنا عز وجل ما هو أشد وأشر من فسقهم حيث قال :

{ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَـئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ }
[الآية ٦٠]

والمعنى : قل يا محمد، لهؤلاء الفاسقين، الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً.
هل أونبئكم بشر من أهل ذلك الذى تنقمون، وتنكرون ..؟
هو من لعنه الله أبعده من رحمته.
وغضب عليه غضباً لا يرضى بعده أبداً.
وجعل منهم القردة والخنازير يروى أن الذين مسخوا قردة : كانوا من اليهود أصحاب السبت، وأن الذين مسخوا خنازير : كانوا من الذين كفروا بعيسى عليه السلام بعد نزول المائدة.
و من عبد الطاغوت أى : أطاع الشيطان، وعبد ما زينه له من العجل، وغير ذلك.
أولئك المذكورون :
شر مكاناً لأن مكانهم النار وأضل عن سواء السبيل عن طريق الحق، والصراط المستقيم.

* * *

ثم يقول الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم، على ذرية هؤلاء اليهود، الذين لعنهم الله ، وغضب عليهم وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت :

{ وَإِذَا جَآؤُوكُمْ قَالُوَاْ آمَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ }
[الآية ٦١]

والمعنى : إذا جاءك منافقو اليهود .. قالوا نفاقاً آمنا .
والحقيقة : أنهم دخلوا كافرين، وخرجوا كافرين، دون أن يؤمنوا صدقاً، لا فى دخولهم عليك، ولا فى خروجهم من عندك.
والله أعلم بما كانوا يكتمون ويخفون من النفاق.

* * *

{ وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }
[الآية ٦٢]

أى : وترى كثيراً من هؤلاء اليهود.
يسارعون فى الإثم أى : يبادرون إلى المعصية.
والعدوان يعنى : فى الظلم والبغى، مسارعة تدل على تلذذهم بفعل هذه المعاصى، وارتكابهم هذا الظلم.
وكذلك يسارعون فى :
أكلهم السحت أى : الحرام، وبخاصة الرشوة.
لبئس ما كانوا يعملون يعنى : بئس العمل عملهم، والأكل للسحت أكلهم، والعدوان عدوانهم، والمعصية معصيتهم.
هؤلاء يفعلون ذلك : لأن علماءهم لم ينهوهم عنه.
ولذلك يوبخ الله علماءهم بقوله :

{ لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ }
[الآية ٦٣]

والمعنى : هلا نهاهم علماؤهم وفقهاؤهم عن هذه الأشياء ·· التى منها : ارتكابهم الإثم، والعدوان، وأكلهم السحت ··!!
ولكنهم ما فعلوا ··!!
لبئس ما كانوا يصنعون من السكوت عنهم، وعدم نهيهم عن هذه الأمور القبيحة.
وفى الآية – كما يقول العلماء – ذم لعلماء المسلمين على توانيهم فى النهى عن المنكرات.
ويقول ابن عباس رضى الله عنه : هذه أشد آية فى القرآن على العلماء.
ويقول الضحاك رضى الله عنه : ما فى القرآن آية ·· أخوف عندى منها.

*****

أيها الكرام ··
قال رجل من اليهود لمحمد صلى الله عليه وسلم : إن ربك بخيل لا ينفق.
فأنزل الله تعالى :

{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ }

[الآية ٦٤]

والمعنى : قال رجل من اليهود يد الله مغلولة ومع أن القائل لهذا الكلام واحد : إلا أن الجميع سكت، ورضى قوله، فكأنهم قالوه جميعاً ..

ولذلك قال تعالى :

قالت اليهود يد الله مغلولة أى : بخيلة لا تنفق، وليس المراد : أنها مربوطة.

فدعى الله عليهم بالبخل .. فكانوا أبخل الناس، كما أن أيديهم تُغَلّ وتربط فى جهنم.

يقول تعالى :

غلت أيديهم

وفوق ذلك لعنوا بما قالوا أى : عليهم لعنة الله تعالى، بسبب قولهم هذا.

بل يداه مبسوطتان رد عليهم، وإثبات غاية السخاء له تبارك وتعالى.

ينفق كيف يشاء من توسيع على هذا، وتضييق على ذلك، دون اعتراض من أحد، أو مقدرة على منع هذا أو ذاك من أحد.

ثم تحدث عن علمائهم .. فقال :

وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً أى : وليزيدن القرآن وما فيه من تشريعات خالدة، وآيات باهرة، كثيراً منهم، بسبب حسدهم لك، وحقدهم عليك طغياناً أى : تمادياً فى الجحود لرسالتك وكفراً بك وبما أنزل عليك.

هذا ..

و قد ألقينا بينهم العداوة والبغضاء حيث إن كلامهم مختلف، وقلوبهم شتى، ولا يكون بينهم اتفاق ولا تماسك إلا ظاهرى فقط.

وهذا الوضع فيهم، والعداوة بينهم : مستمر.

إلى يوم القيامة فيلاقون جزاءهم، وينالون عقابهم.

وبسبب هذا الوضع .. من العداوة والبغضاء بينهم.

فإنهم ..

كلما أوقدوا ناراً للحرب أى : لحرب الله ورسوله، أو لحرب الإسلام وأهله، أو كلما أرادوا إشعال نار الحرب لهذا الغرض.

أطفأها الله أى : نصر الله رسوله والمسلمين عليهم، أو أطفأ الله كيدهم وشرهم.

ويلاحظ : أنه ما غلب هؤلاء فى عصرنا – فى بعض المعارك – إلا لأنهم يحاربون رايات لم تقم على تقوى ، ولم تنتصب لنصر الإسلام، ورفع رايته.

كما أنهم ما غلبوا – حينما يغلبون – إلا بحبل أى بسبب من الله، وسبب من الناس.

ولأنهم فشلوا، ويفشلون ، فى ميدان القتال، فإنهم :

يسعون فى الأرض أى فى أرض المسلمين فساداً .

وذلك : بنشر الفاحشة، حيث كانوا، وحيث استطاعوا، وقتل أخلاق الشعوب، ومقاومة الخير فيهم، ونشر أفكار الضلال والكفر بينهم.

والله لا يحب المفسدين ولذلك : فإنه لا يحبهم ، بل يبغضهم ويلعنهم، ويعاقبهم.

*****

كلمة هادئة ناصحة ٠٠ يقولها رب العزة لليهود والنصارى، على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ٠٠

{ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ }
[الآيتان ٦٥ ، ٦٦]

ومعنى هاتين الآيتين : أنه بالنسبة للآخرة ٠٠
لو أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم واتقوا عذاب ربهم :
لكفرنا عنهم سيئاتهم لسترنا عليهم سيئاتهم التى اقترفوها، ولم نؤاخذهم عليها.
ولأدخلناهم بسبب إيمانهم وتقواهم جنات النعيم.
وأما بالنسبة للدنيا :
لو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل يعنى : عملوا بأحكامهما، وطبقوا حدودهما، ولم يحرفوهما، وينكرون ما فيهما من وصف محمد صلى الله عليه وسلم، والبشارة به.
وكذلك : أقاموا ٠٠
ما أنزل إليهم من ربهم من الكتب، ومنها القرآن الكريم.
لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم أى : لوسع الله عليهم خير الدارين، دون خوف، أو هَمٍّ ، أو ضيق نفسى.
فهل فعلوا ذلك ٠٠؟
يعنى : هل آمنوا ، واتقوا وأقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم من الكتب؟
الواقع يقول : لا ٠٠
حيث كان منهم أمة مقتصدة عادلة، مؤمنة، صالحة، ولكنها قليلة، كعبد الله من سلام، وأمثاله.
وكثير منهم ساء ما يعملون أى : بئس العمل الذى كانوا يعملون، وهو كفرهم.

*****

بعد هذه الجولة الطويلة عن أهل الكفر من اليهود والنصارى وغيرهم، وكفر هؤلاء وهؤلاء : يخبر الله تعالى عن مدى عداوة هؤلاء وهؤلاء للمسلمين.
فيقول :

{ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ }
[الآية ٨٢]

والمعنى :
لتجدن يا محمد.
أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا لأن كفر اليهود والمشركين : كفر عناد وجحود، ومباهاة للحق، وغمط للناس، وتنقص لحملة العلم.
ولذلك : قتلوا كثيراً من الأنبياء، حتى هموا بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة، وسموه، وسحروه، وألبوا عليه أشباههم من المشركين.
ويلاحظ : أن الله تعالى ٠٠ جعل اليهود قرناء المشركين فى شدة العداوة للمؤمنين.
كما نبه على : تقدم قدمهم فى العداوة بتقديمهم على المشركين فى الذكر بالآية الكريمة.
وكان ذلك ٠٠ على عكس النصارى، الذين قال فيهم سبحانه وتعالى :
ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى من أتباع المسيح عليه السلام، وعلى منهاج إنجيله، وأنصار دين الله.
حيث إن فيهم : مودة للإسلام وأهله فى الجملة.
وما ذاك : إلا لما فى قلوبهم؛ إذ كانوا على دين المسيح ٠٠ من الرقة، والرأفة ، وبسبب وجود علماء فيهم.
يقول تعالى : ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً أى : علماء وعباد، وأنهم لا يستكبرون أى : فيهم تواضع واستكانة ، على خلاف اليهود.

*****

ثم يبين القرآن – كذلك – بعض صفات هؤلاء النصارى ٠٠ فيقول :

{ وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ }

[الآية ٨٣]

يروى : أن قوماً كانوا على دين عيسى ابن مريم، فلما رأوا المسلمين، وسمعوا القرآن، أسلموا، ولم يتلعثموا.

فنزلت هذه الآيات.

والمعنى : أن هؤلاء النصارى – الذين تتحدث عنهم الآيات – إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول وهو القرآن ترى أعينهم تفيض من الدمع بكاءً وتأثراً؛ لرقة قلوبهم، ومما عرفوا من الحق أى : بعض الحق، الذى سلم من التحريف، أو قبل التحريف لكتبهم.

ولذلك :

يقولون ربنا آمنا بمحمد – صلى الله عليه وسلم – .

فاكتبنا مع الشاهدين عرفوا وصف هذه الأمة ، وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس يوم القيامة، فطلبوا أن يجعلهم الله منهم، وأن يكتبهم معهم، مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

* * *

وكأن منكراً ينكر عليهم إيمانهم هذا ..!!

فيقولون :

{ وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ }
[الآية ٨٤]

أى : وما المانع لنا : فى أن نؤمن بالله الواحد، بعد أن ظهر الحق الناصع بنزول القرآن، وأن نطمع فى أن يدخلنا ربنا الجنة مع القوم الصالحين المؤمنين.

* * *

لهذا يقول رب العزة :

{ فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ }
[الآية ٨٥]

والمعنى :

فكانت النتيجة أن الله تبارك وتعالى ..

أثابهم بسبب إيمانهم وتصديقهم.
جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، لا يتحولون عنها، ولا يخرجون منها.
وذلك النعيم المقيم.
جزاء المحسنين من النصارى، الذين عرفوا الحق، فآمنوا به، واتبعوه.

* * *

وحتى لا يفهم أحد أن هذا الثناء، وذلك الجزاء ٠٠ للنصارى جميعاً ٠٠
فقد عقب المولى على ذلك ٠٠
بقوله سبحانه :

{ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ }
[الآية ٨٦]

وهذه الآية : وعيد وتهديد لمن بقى على كفره بالله من أهل الكتاب وتكذيبه لمحمد صلى الله عليه وسلم ٠٠

ومعناها :
أنه إذا كان المؤمنون المصدقون المخلصون منهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ٠٠
فإن الذين كفروا وكذبوا بآياتنا منهم هم أصحاب الجحيم التى يخلدون فيها.

*****

أيها الأحبة فى الله ٠٠
كان الكلام ابتداءً من قوله تعالى يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك منصباً على تبليغ الكافرين.
ومن هنا يبدأ الكلام فى تبليغ المؤمنين، بطريقة فيها كثير من التفصيل لما هو مجمل فى أول السورة .
حيث يقول تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ }
[الآية ٨٧]

والمعنى :
يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا ما لذ وطاب من الحلال، الذى أحله الله لكم، مبالغة منكم وزهداً وتقشفاً .
ولا تعتدوا أى : لا تتجاوزوا حدود ما أحل الله لكم، وما حرم عليكم، سواء بتحريم، أو تحليل، أو إسراف.

حيث إن الله لا يحب المعتدين المتجاوزين حدوده.

* * *

{ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ }
[الآية ٨٨]

والمعنى : تمتعوا بأنواع الرزق، الحلال الطيب، سواء كان أكلاً أو غيره.
ويلاحظ : أنه تعالى ‥ خص الأكل بالذكر : لأن أغلب الانتفاع بالرزق يكون أكلاً.
كما يلاحظ : أن المولى سبحانه ‥ نهى عن تحريم الطيبات فى الآية السابقة، ثم أمر بالأكل منها، والانتفاع بها هنا.
ثم يقول :
واتقوا الله أى : بالوقوف عند شرعه، فيما أحل، فيما حرم.
إن كنتم مؤمنين أى : فاتقوه، وإن كنتم تتقونه فالتزموا بشرعه، فى الحلال، وفى الحرام.

*****

ولأن التحريم لما أحل الله وأباح من الطيبات ‥‥ يكون باليمين عادة.
فناسب أن يذكر حكم الأيمان هنا ‥
بقوله عز وجل :

{ لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَـكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }
[الآية ٨٩]

وسبب نزولها : أنهم كانوا يحلفون على تحريم الطيبات، ويظنون أنه قربة إلى الله.
فلما نزل النهى عن تحريم الطيبات : قالوا كيف بأيماننا، التى كنا نحلفها.
فنزلت لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم .
واليمين اللغو ‥ هو :
ما يجرى على اللسان من غير قصد، مثل : لا والله، وبلى والله، كما يرى الإمام الشافعى.
أو ما يحلف المرء عليه ظاناً أنه كذلك، وهو خلاف ما يرى، عند الإمام أبى حنيفة.
وحكمه : كما بينته الآية : لا شيء فيه، ولا ذنب عليه، وإن كان الكف عنه أولى وأولى.

وهذا هو النوع الأول – من الأيمان – الذى ذكرته الآية .
والنوع الثانى :
ما عقدتم الأيمان أى : الأيمان التى تعقدونها وتؤكدونها بالقصد والنية.
وحكم هذه ٠٠ إذا حنثتم فيها، أو أردتم الحنث فيها الكفارة، التى تستر هذا الخطأ وتمحو آثاره.
والكفارة ٠٠ لمن حنث، أو أراد الرجوع فيما حلف عليه ٠٠ ما يلى :
إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم إطعامهم كل واحد منهم طعام يوم كامل مما يطعم منه أهله فى المعتاد، بلا تقتير وإلا تبذير.
أو كسوتهم وأدنى الكسوة : ثوب يوارى العورة .
ونرى أنه : يكون مما يناسب حاله، ويقيه الحر والبرد.
أو تحرير رقبة أى : عتق رقبة، مؤمنة، أو غير مؤمنة على خلاف بين الأئمة.
هذا ٠٠
والحانث فى يمينه، أو الذى يريد الحنث فى يمينه : مخير بين واحدة من هذه الثلاث.
ويلاحظ : أن المولى بدأ فى هذه الثلاث بالأسهل، ثم ترقى إلى الأصعب منها، لمن يرجو الأجر من الله تعالى.
فإن لم يجد الحانث، أو لم يقدر على واحدة من هذه الثلاث.
ماذا يفعل ٠٠؟
يقول تعالى :
فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام متتابعات، أو غير متتابعات، على خلاف بين الأئمة.
ولكن النص القرآنى – كما هو واضح – لم يقيد لا بهذا ولا بذاك، وعلى هذا يجزئ التتابع فى الصيام، وعدمه كذلك.
هذا الكلام عن الكفارة، بل الكفارة ذاتها لا تكون إلا بعد الحنث فى اليمين.
يقول تعالى :
ذلك أى : ما ذكر عن الكفارة لليمين المنعقدة.
كفارة أيمانكم أى : هو كفارة الحنث فى أيمانكم التى حلفتموها، وحنثتم فيها.
والأفضل لكم ما يقوله المولى :
واحفظوا أيمانكم بعدم الحلف أصلاً.
أو بنفاذ اليمين ٠٠ إن كان الحلف على خير.
أو بالتكفير عن الحنث فيها ٠٠ إن كان فى الحنث فيها خير.
كذلك يبين الله لكم آياته وأحكامه لعلكم تشكرون على ذلك البيان ربكم سبحانه وتعالى.

*****

أيها المؤمنون الأفاضل ٠٠
لما نزل قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم٠٠.
وكذلك : قوله تعالى وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً .
وكانت الخمر والميسر ٠٠ مما يستطاب عندهم.

فقد بين رب العزة أنهما غير داخلين فى جملة الطيبات التى أحلها الله تعالى.
وذلك فى قوله تبارك وتعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }
[الآية ٩٠]

ومعنى الآية :
يا أيها الذين آمنوا هذه الأشياء الأربعة ٠٠ محرمة؛ لأنها من الأمور القبيحة التى يزينها الشيطان للإنسان.
وهى :
الخمر أى : كل مسكر يخامر العقل ويغطيه عن الوعى.
والميسر أى : القمار، وهو اللعب بما يلهى، وسمى القمار ميسراً؛ لأن فيه أخذ المال بيسر.
والأنصاب أى : الأصنام، التى تنصب وتقام، وتعبد.
والأزلام أى : القداح، التى كانوا يستفتحون بها أعمالهم وتجاراتهم وسفرياتهم، وكانوا يلتزمون بتوجيهها الأعمى.
وما دام ذلك رجس من عمل الشيطان ٠٠
وما دام محرماً ٠٠
فاجتنبوه لعلكم تفلحون فى الدنيا والآخرة.
ويلاحظ فى الآية الكريمة : أن الله عز وجل ٠٠ ضم فى التحريم إلى الخمر والميسر الأنصاب والأزلام، مع أن المؤمنين يعلمون حرمة ذلك جيداً، ولا يفعلونه؛ حيث إنه تعالى يؤكد بذلك حرمة الخمر والميسر، بطريق أشد وأوضح.

*****

يبين ربنا جل وعلا : ما فى الخمر والميسر من المفاسد الدنيوية والدينية.
بقوله تعالى :

{ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ }
[الآية ٩١]

فى هذه الآية : يبين المولى عز وجل بعضاً من حكمة التحريم للخمر والميسر، بعد أن حرمهما، وأكد هذا التحريم.
إذ يبين مراد الشيطان من دعوته لنا إلى الخمر والميسر.
وهو :

إيقاع العداوة والبغضاء بيننا أفراد أو جماعات.
وكذلك : الصد لنا عن ذكر الله وعن الصلاة.
ومن الطبيعى أنه :
حيثما وجد الخمر : كان العداء والشر.
وحينما وجد القمار : كانت الشحناء والبغضاء.
وإنما يريد الله لحزبه ٠٠ أن يكونوا متحابين؛ ولذلك ٠٠ حرم الخمر والميسر.
كما أنه :
حينما وجد الخمار والقمار : كانت الغفلة عن الله، والله يريد منا أن نكون من الذاكرين لا الغافلين؛ ولذلك حرم الخمر والميسر .
لكل هذا يحضنا رب العزة بعد أن أظهر لنا الحكمة من التحريم ٠٠ على الانتهاء، بقوله :
فهل أنتم منتهون عن أتيانها، أى : انتهوا.

* * *

{ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ }
[الآية ٩٢]

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله فيما أمر به ، وفيما نهى عنه، وأطيعوا الرسول فيما بلغه عن ربه، ولا تخالفوه واحذروا معصية الله، ومخالفة نبيه عليه الصلاة والسلام.
فإن توليتم أعرضتم، وعصيتم، وخالفتم، فجزاؤكم علينا، لا على الرسول.
ألا فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين فقط.

*****

يا أحباب رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠٠
لما نزل تحريم الخمر والميسر، فى قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر ٠٠ الآية .
قالت الصحابة : يا رسول الله ٠٠ فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر، ويأكلون مال الميسر، أى قبل تحريمهما.
فنزل قوله تعالى :

{ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }
[الآية ٩٣]

ومعنى الآية : ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح أى : إثم.

فيما طعموا أى : قبل نزول تحريم الخمر والميسر.

وذلك الرفع للإثم عنهم .. يكون :

إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات أى : تجنبوا الشرك، وآمنوا بالله، وعملوا الصالحات بعد هذا الإيمان؛ مرضاة لله تعالى.

وهذه درجة : تكون بينهم وبين أنفسهم.

ثم اتقوا وآمنوا أى : تجنبوا الشبهات، تحرزاً للنفس عن الوقوع فى الحرام، وازدادوا ثقة ويقيناً واطمئناناً، وظهر ذلك على سلوكهم وتعاملاتهم.

وهذه درجة : تكون بينهم وبين الناس.

ثم اتقوا وأحسنوا أى : تجنبوا بعض المباحات؛ تحفظاً للنفس، وترفعاً بها عن دنس الطبيعة، وعبدوا الله تعالى، كأنهم يرونه، أو كأنه يراهم.

وهذه درجة : تكون بينهم وبين الله تعالى.

والله يحب المحسنين اى : يثيبهم ويحسن إليهم.

*****

بعد أن قررت السورة فى أولها حرمة الصيد للمحرم بالحج أو العمرة، أو بهما ..

بينت من يلتزم بهذا الحكم ومن لا يلتزم به، وجزاء هذا وذاك.

بقوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ }

[الآية ٩٤]

ومعنى الآية :

يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله أى : ليختبركم وأنتم محرمون.

بشيء من الصيد الذى حرم عليكم صيده حال إحرامكم.

فيه الصغير تناله أيديكم دون مشقة.

وفيه الكبير تناله رماحكم بشيء من الجهد اليسير.

وكان هذا الاختبار ..

ليعلم الله أى : ليظهر للخلق.

من يخافه بالغيب أى من يخافه ويراقبه حتى فى خلوته، ممن لا يخافه ولا يلتزم بأحكامه، ويعتدى على شرعه.

فمن اعتدى على أحكام الله وشرعه.

بعد وضوح ذلك النهى عما حرم الله.
فله عذاب أليم.

* * *

ثم ينهى ربنا عز وجل عن قتل الصيد للمحرم، مع بيان الجزاء، الذى يزيل الاعتداء المؤدى إلى العذاب الأليم، كما أشارت إليه الآية السابقة.
يقول سبحانه :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ }
[الآية ٩٥]

ومعنى الآية :
يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم أى : لا تذبحوه محرمون بحجج أو عمرة، أو بهما معاً.
ومن قتله منكم متعمداً حتى ولو ذبحه، فهو ميتة؛ لأن المحرم ممنوع من صيده أولاً، ومن ذبحه ثانياً.
فهو : مخطئ، وعليه الجزاء، الذى يوضحه قوله تعالى فجزاء.
وهذا الجزاء.
مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة أى : عليه أن يهدى من النعم، أى الأنعام، وهى الإبل والبقر والغنم مثل ما قتل، يحكم بهذه المثلية ذوا عدل منكم، على أن يصل هذا الهدى إلى الحرم، فيذبح فيه، ويتصدق به على مساكين الحرم.
أو عليه كفارة من طعام مساكين .
أو عدل ذلك الطعام صياماً يصوم عن كل مسكين يوماً.
وهو مخير بين هذه الثلاثة.
وكان ذلك الجزاء.
ليذوق وبال أمره أى : ليذوق ضرر وعاقبة هتكه لحرمة الإحرام.
عفا الله عما سلف مما كنتم تصطادونه قبل هذا الحكم بالتحريم.
ومن عاد إلى الصيد حال الإحرام فينتقم الله منه لارتكابه هذا المحرم، ومخالفته للنهى الإلهى.
والله عزيز ذو انتقام ممن يتجاوز حدود الإسلام.

* * *

وبعد هذا البيان لقتل الصيد الإحرام، وحكم ذلك.
يأتى البيان لصيد البرح وصيد البر، وحكمهما ..
فى قوله تعالى :

{ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ }
[الآية ٩٦]

والمعنى : صيد البحر .. حلال لكم محرمين وغير محرمين، وكذلك طعام البحر الذى يقذفه من حيواناته، ولو ميتاً .. حلال، وهو متاع لكم وللسيارة أى المسافرين.

وأما صيد البر .. فهو حرام عليكم ما دمتم محرمين، وهو حلال لغير المحرم.

واتقوا الله فى صيد البحر أن تحرموه فى الإحرام، وهو حلال، وفى صيد البر أن تصطادوه فى الإحرام الذى إليه تحشرون فيجازيكم بما تستحقون.

*****

وبمناسبة الكلام عن المحرم والصيد وبعض أحكامهما ..

يذكر سبحانه وتعالى ويبين الحكمة فى جعل : الكعبة، والشهر الحرام، والهدى، والقلائد .. من شعائره عز وجل.

فيقول :

{ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }
[الآية ٩٧]

فى الآية الكريمة : بيان للحكمة من جعل هذه الأشياء الأربعة المذكورة .. من شعائر الله، وهى : أمران :

الأول : قياماً للناس أى : انتعاشاً لهم فى أمر دينهم، ونهوضهم إلى مصالح دنياهم.

الثانى : لتعلموا أن الله يعلم .. الآية .. أى : لتزدادوا علماً بالله، ومالكيته للسموات والأرض وما فيهما ومن فيهما، وعلماً بأنه بكل شيء عليم وذلك من خلال ممارسة شعائر الحج.

وعلى هذا .. فمعنى الآية :

أن الله خلق الكعبة، التى هى البيت الحرام، انتعاشاً للناس فى أمر دينهم ودنياهم، بما يتم لهم خلال حجهم وعمرتهم.

وكذلك : جعل الشهر الحرام .. وهو : ذو الحجة فقط؛ لاختصاصة بإقامة الحج فيه، أو أنه : جنس الأشهر الحرم، فيكون المراد : رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم.

وكذلك : الهدى أى ما يهدى إلى مكة.

ورابعاً : القلائد وهى البدن التى تعلَّم بقلادة أو غيرها، وهى وإن كانت من الهدى .. إلا أنها خص بالذكر؛ لأن الثواب فيها أكثر، والمهابة معها أظهر.

كل ذلك كان ..

لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم ولذلك : يحكم ويأمر ويمنع ويحلل ويحرم بعلم وحكمة.

* * *

{ اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[الآية ٩٨]

والمعنى :

اعلموا أيها الناس.

أن الله شديد العقاب لأعدائه، ولمن خالف أحكامه، وعاند رسله، وكذب بآياته.

واعلموا كذلك أن الله غفور رحيم أى : غفور لأوليائه، رحيم بهم.

وبالتالى :

فهو شديد العقاب .. لمن استخف بالحرم والإحرام وأحكامهما.

وهو غفور رحيم .. لمن عظم المشاعر الحرام.

* * *

أيها الناس ..

هذه هى الأحكام، و ...

{ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ }
[الآية ٩٩]

والمعنى : نحن الذين نشرع، ونحلل ونحرم، وما على الرسول إلا البلاغ فقط، ونحن نكافئ بعد ذلك كل إنسان بما يستحق.

والله يعلم ما تبدون وما تكتمون فلا يخفى عليه صدقكم من نفاقكم، وامتثالكم من امتناعكم.

وفى ذلك : تشديد لوجوب الامتثال لشرع الله، وتهديد من مخالفته.

* * *

هذا ٠٠ ولما ذكر سبحانه أنه يعلم ما يبدون وما يكتمون.
علم بالضرورة أنه لا يستوى عنده الخبيث والطيب.
ولذلك قال لحبيبه صلى الله عليه وسلم :

{ قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }
[الآية ١٠٠]

والمعنى :
قل يا محمد لكفار مكة وعصرك، وقل أنت وأتباعك من المؤمنين للدنيا كلها فى كل عصورها :
لا يستوى الخبيث والطيب عند الله ٠٠ فى الثواب والحب منه أبداً، بل يميز بينهما، فيعاقب الخبيث الكافر، ويثيب الطيب المسلم.
كما لا يستوى عنده كذلك : الحلال والحرام، ولا الصالح من العمل مع الطالح ٠٠ وهكذا .
حتى ولو أعجبك كثرة الخبيث مالاً، أو رجالاً، أو أعمالاً.
لذلك ٠٠
فاتقوا الله يا أولى الألباب فى ترك الخبيث، ولو أعجبكم، وسرتكم وبهرتكم كثرته، وإيثار الطيب عليه والفضيلة وإن قل.
لعلكم تفلحون تفوزون فى الدنيا والآخرة برضوان الله تعالى .

*****

ولأن الصحابة رضوان الله عليهم : كانوا يسألون النبى صلى الله عليه وسلم فى كل شيء ٠٠
ولأنه صلى الله عليه وسلم : كان يجيبهم بما يوحيه إليه ربه، ويعلمه إياه٠٠
فقد أكثروا عليه صلى الله عليه وسلم فى السؤال، حتى عن أمور لا تعنيهم، أو عن أمور يشق عليهم الالتزام بها لو فرضت عليهم.
ولما أكثروا ذلك :
نزل قوله تعالى تأديباً لهم ، ورحمة بهم :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ }
[الآية ١٠١]

والمعنى :

يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء لا تعنيكم، أو تشق عليكم، مثل : هل فرض الحج علينا فى كل عام ؟٠٠.

حيث إنها إن تبد لكم أى : تجابون عنها، وتكلفون بها ٠٠ تسؤكم أى : تغمكم؛ لما فيها من المشقة عليكم. خاصة وأنه :

إن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تؤمرون بتحملها، وقد يكون فيها من المشقة ما يجعلكم تفرطون فى القيام بها، وبذلك تعرضون أنفسكم لغضب الله تعالى.

وهى بالضرورة ، ونتيجة سؤالكم، ســتبد لكم ويبين الحكم فيها.

لذلك : فلا تسألوا عن هذه الأشياء التى لا تعنيكم، والتى يسيؤكم بيان الحكم فيها، والتكليف بها.

وأما أسئلتكم التى سبقت نزول هذه الآية : فقد ٠٠

عفا الله عنها فلا تعودوا لمثلها بعد ذلك.

والله غفور حليم لا يعاقب إلا بعد الإنذار، وعدم الاستجابة.

* * *

هذه التساؤلات :

{ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ }
[الآية ١٠٢]

والمعنى : أن هذه الأسئلة التى لا تعنى المرء الإجابة عليها، وقد يشق عليه التكليف بها : فقد سأل مثلها أناس غيركم عن أمم سابقة.

مثل : سؤال الناقة من قوم صالح، وسؤال المائدة من قوم عيسى، وسؤال رؤية الله جهرة من قوم موسى.

كما كان بنو إسرائيل يسألون أنبياءهم فى أشياء، فإذا كلفوها، وأمروا بها تركوها.

ثم أصبحوا أى : صاروا، بعدم الإيمان بعد إجابتهم، أو بترك العمل بعد تكليفهم به كافرين.

فلا تكونوا مثلهم.

*****

بعد ذلك : يبين الله عز وجل الصواب فى بعض الأمور التى ابتدعتها الجاهلية.

فيقول :

{ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَـكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ }

[الآية ١٠٣]

والمعنى : لم يشرِّع ربنا عز وجل هذه الأشياء المذكورة فى الآية، ولكن علماءهم الذين كفروا يفترون على الله الكذب حيث يشرعون هم، ويقولون : أمر الله بهذا، وحرم الله هذا.

وأكثرهم أى : عوامهم، وأراذلهم، الذين يتبعونهم من معاصرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠٠ يتبعونهم، ويقلدونهم، دون محاولة للاهتداء إلى الحق، وذلك لأنهم لا يعقلون لا عقل عندهم لغبائهم، أو لا يستعملون عقولهم لمعرفة الصواب من الخطأ.

وهذه الأشياء، التى شرعوها هم، ولم يشرعها رب العزة ٠٠ هى :

البحيرة ٠٠ وهى : الناقة، التى تلد خمسة بطون، فى آخرها ذكر ٠٠ وحكم هذه عند أهل الجاهلية : أنها ٠٠ تشق أذنها، وتترك، فلا تركب، ولا تحلب، ولا تطرد عن مرعى ولا ماء، وإذا لقيها الضعيف لم يركبها.

والسائبة ٠٠ وهى : البعير الذى يسيبه الرجل إذا قدم من سفر، أو شفى من مرض ويتركه حراً ، لا يركب، ولا ٠٠٠، ولا ٠٠٠ مثل البحيرة.

والوصيلة ٠٠ وهى : الشاة، التى تلد سبعة بطون، فإذا قيل : وصلت أخاها، فجرت مجرى السائبة.

والحام ٠٠ هو : الفحل، إذا نتج من صلبه عشرة بطون، قالوا : قد حمى ظهره، فلا يركب ، ولا يحمل عليه، ولا يمنع من ماء، ولا مرعى.

* * *

هؤلاء الجاهليون ٠٠

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ }
[الآية ١٠٤]

والمعنى : هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب ٠٠

إذا قيل لهم : هلموا إلى حكم الله ورسوله، من تحليل ما حرمتم من هذه الأشياء.

قالوا يكفينا ما وجدنا عليه آباءنا من الدين، والشريعة، والعادة.

يرد الله عليهم بقوله :

أيكفيهم هذا، وينفعهم، حتى ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاًعن الحلال والحرام ولا يهتدون إلى الحق بأنفسهم، من غير وحى السماء، أصلاً ٠٠؟ وذلك: من باب الإنكار عليهم موقفهم.

*****

وحتى لا يتأثر أحد بهؤلاء الكفار الجاهليين، الذين لا يقبلون شرع الله، بل يفترون على الله الكذب : يطالب ربنا أولياءه ٠٠ بالاهتمام الشديد بإصلاح أنفسهم، وعدم التأثر بالفاسدين من حولهم.

قائلاً :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [الآية ١٠٥]

يروى في سبب نزول هذه الآية، أنه :

كما كان المؤمنون يتحسرون على عدم إيمان الكفرة، وكانوا يتمنون إيمانهم، وهم على ما هم عليه من الضلال، والتقليد والعناد .

فنزلت الآية ٠٠

ومعناها :

يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم أى : احفظوها، وقوموا بإصلاحها، وتزكيتها.

لا يضركم من ضل ممن أمرتموه بالمعروف، ونهيتموه عن المنكر، فلم يستجب لكم.

وذلك :

إذا اهتديتم أنتم.

ولا تبتئسوا من أجلهم، حيث إنه :

إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون جميعاً، فيجازى كل فريق منكم بما يستحق من العقاب للعاصى، والثواب للمطيع.

ويلاحظ : أن هذه الآية ليست نازلة للرخصة فى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، بل جاء عن أبى بكر رضى الله عنه، أنه قال : تعدونها رخصة ٠٠؟ والله ما نزلت آية أشد منها، وإنما المراد : لا يضركم من ضل إذا اهتديتم.

ولذلك : لا ينبغى أن يتوهم متوهم ٠٠ أن هذه الآية ، رخصة فى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، مع استطاعتهما.

فقد روى أن الصديق رضى الله عنه، قال يوماً على المنبر : يا أيها الناس ٠٠ إنكم تقرءون هذه الآية وتضعونها فى غير موضعها، ولا تدرون ما هى ٠٠؟!!

وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول : إن الناس إذا رأوا منكراً، فلم يغيروه : عمهم الله بعقاب ، فأمروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، ولا تغتروا بقول الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم فيقول أحدكم : علىّ نفسى.

والله : لتأمُرنَّ بالمعروف، وتنهونَّ عن المنكر، أو ليستعملنَّ الله عليكم شراركم، فيسومونكم سوء العذاب، ثم ليدعون خيارُكم فلا يستجاب لهم.

*****

هذا ٠٠

ومن الأحكام الإسلامية الرائعة، التى تنفرد بها سورة المائدة ، ما ورد فى الآية التالية :

{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الآثِمِينَ }

[الآية ١٠٦]

أيها الأخ الكريم :

قال العلماء : هذه الآية ، والآيتان بعدها : من أصعب وأشكل آى القرآن ٠٠ حكماً، وإعراباً، وتفسيراً.

ولذلك : نسأل الله تعالى العون فى توضيحها والآيتين بعدها، ومنه العون والتوفيق.

ونقول :

هذه الآية : فى وصية المرء، حال الاحتضار بالموت، خلال السفر ٠٠

أولاً : عليه أن يُشهد على هذه الوصية.

ثانياً : أن يكون الشهود عليها اثنين من المسلمين العدول، فإن لم يوجد من المسلمين فاثنان آخران من الموجودين ساعة الاحتضار، وحين الوصية، ولو كانا من غير المسلمين.

ثالثاً : كيفية الشهادة.

تقبل شهادتهما على هذه الوصية إذا لم يوجد شك، أو طعن من الورثة المستحقين للتركة فى شهادتهما .

فإذا حدث شك أو طعن.

فما العمل الذى ترشد إليه الآية ٠٠؟

تحبسونهما أى : توقفونهما بعد الصلاة – العصر، أو الظهر، أو أى صلاة، على خلاف فى ذلك –.

فيقسمان بالله على صحة هذه الوصية، وأنهما – فى الوقت ذاته، وبنفس القسم – لا يشتريان بشهادتهما هذه، أى : لا يأخذان فى مقابلها عوضاً من متاع الدنيا الفانى الزائل، من أى أحد له مصلحة فى ذلك.

كما أنهما : لا يحابيان قريباً بهذه الشهادة، ممن له مصلحة فى ذلك.

كما أنهما : لا يكتمان الشهادة.

وأنهما – أخيراً – إن فعلا ذلك كله، أو شيئاً من ذلك، كأخذ عوض، أو محاباة قريب، أو كتمان شهادة : فهما من الآثمين، المستحقين لعقاب الله.

وبهذا بيان حكم وصية الميت خلال السفر والشهادة عليها.

* * *

{ فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يِقُومَانُ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ }

[الآية ١٠٧]

ومعنى الآية :

أنه بعد تمام الوصية، والشهادة عليه، كما فى الآية السابقة : تنتهى الأمور على خير وجه ٠٠

لكن : إن ظهر وتأكد أنهما أى الشاهدين، ارتكبا مخالفة، واستحقا إثماً بأن : أخذا عوضاً على شهادتهما، أو كانت هناك محاباة لقريب، أو كتمان للشهادة، أو لشيء منها.

فآخران أى : فاثنان غيرهما، يكونان من الورثة.

يقومان للشهادة مقامهما .

ويكونان – كذلك – من الذين استحق عليهما أى أصابهم ضرر الإثم، الذى ارتكبه الشاهدان الأوليان .

ولكن : كيف يشهدان ٠٠؟

يجيب رب العزة بقوله :

يقسمان بالله أن شهادتهما عليهما، بأنهما أخذا عوضاً، أو جاملا قريبهما، أو كتما الشهادة أحق وأصدق من شهادتهما السابقة، التى أدياها أولاً، وأننا ما اعتدينا عليهما ولا على غيرهما فى هذه الشهادة.

ولو كان ذلك ، أو شيئاً منه :

إنا إذاً لمن الظالمين فينتقم الله منا، بسبب ظلمنا لو كان، ولكن لم نظلم أحداً.

وهذا الحكم، الذى رسخته هذه الآية : له حكمة بليغة ٠٠ توضحها الآية التالية.

* * *

{ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }

[الآية ١٠٨]

ومعنى الآية :

أن ذلك الحكم السابق، وهو رد شهادة من حضر وصية الميت خلال السفر، وكانت غير حقيقية.

أدنى أى : أقرب طريق، وأيسر حيلة.

أن يأتوا بالشهادة على وجهها أى : أن يؤدى الناس الشهادة على وجهها الصحيح ابتداء من غير تحريف ولا خيانة.

أو يخافوا حين يعلمون هذا الحكم، ويتوقعون حدوث ذلك لهم.

أن ترد أيمان أى : يطلب من الورثة المدعين، حين الشك والارتياب، أن يحلفوا على كذب هؤلاء الشهود وخيانتهم، فيحلفون، ويظهر صدقهم.

وبذلك : يفتضح أمر الشهود الأول.

بعد أيمانهم التى حلفوها كذباً وزوراً.

يقول تعالى للجميع :

واتقوا الله بترك الخيانة والكذب.

واسمعوا ما تؤمرون به، سماع قبول وامتثال.

والله لا يهدى القوم الفاسقين الخارجين عن طاعته.

***** أيها الأخ الغالي :

وصلنا إلى خاتمة سورة المائدة .

وفيها : يطوى الزمن، ويعرض المولى علينا فيها؛ كيف أنه سيجمع الرسل عليهم السلام، ويسألهم عن إجابات أقوامهم لهم.

وكان ذلك يشير إلى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بلغ، وأن على الناس أن يستجيبوا، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم شهيد على هذا الموقف، الذى سيجمع الله فيه الرسل.

فيقول :

{ يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ }

[الآية ١٠٩]

والمعنى : تذكروا يا مؤمنون، واحذروا، إذّ يجمع الله الرسل يوم القيامة.

فيقول لهم توبيخاً لمن لم يؤمن بهم، ويتبعهم من أقوامهم .

ماذا أى : ما الذى أجبتم حين دعوتم أقوامكم إلى التوحيد، وعبادة الله٠٠؟

قالوا رادّين الأمر إلى علمه سبحانه لا علم لنا.

إنك أنت علام الغيوب كل ما غاب عن العباد، وما غاب عنا من باطن الأمور، وأما نحن فلا نعلم إلا ما نشاهد.

وقد قالوا ذلك : لشدة هول يوم القيامة، وفزعهم.

ولكن ٠٠ حينما يسكن حالهم، ويهدأ بالهم : يشهدون على أممهم.

* * *

ومن بين الرسل جميعاً : يخص الله عيسى عليه السلام، بكلام يتقرر فيه صحة ما قال رسول الله صلى الله عليه فى شأن عيسى ٠٠

حيث يقول تعالى :

{ إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ }

[الآية ١١٠]

والمعنى : ومن هذه الأمور الغيبية، التى أشار إليها الرسل، ولا يعلمها إلا الله تعالى، وتحدث فى يوم القيامة : ما يقوله ربنا تبارك وتعالى لعيسى عليه السلام.

إذّ قال الله يعنى : يقول.

يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك حيث أنبتها الله نباتاً حسناً، وطهرها، واصطفاها على نساء العالمين.

ثم عدد ربنا على عيسى من نعمه عليه سبعاً :

الأولى : إذّ أيدتك بروح القدس أى : قويتك بروح القدس وهو جبريل عليه السلام، فكان يسير معه حيث سار، يعينه على الحوادث التى تقع، ويلهمه المعارف والعلوم، وكنت تكلم الناس فى المهد طفلاً، وتكلمهم كذلك بالدعوة كهلاً ويقول لهم : إنى عبد الله ورسوله .

الثانية : وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل والمراد بـــالكتاب الكتابة، وهى الخط، ووالحكمة الفهم والاطلاع.

الثالثة : وإذّ تخلق أى تصور من الطين كهيئة الطير بإذنى أى : بموافقتى لك على ذلك فتنفخ فيها فتدب فيها الحياة فتكون طيراً حقيقياً بإذنى.

الرابعة : وتبرئ أى : تشفى الأكمه الأعمى المطموس البصر بإذنى، وتشفى كذلك الأبرص بإذنى.

الخامسة : وإذ تخرج الموتى من قبورهم أحياء بإذنى.

السادسة : وإذّ كففت بنى إسرائيل عنك أى : صرفت عنك اليهود، ومنعتك منهم، حين أرادوا قتلك إذ جئتهم بالبينات الدالات الواضحات، والمعجزات الباهرات، على وحدانيتى ونبوتك.

فقال الذين كفروا منهم تبريراً لمحاولاتهم قتلك إن هذا أى : ما هذا إلا سحر مبين.

السابعة : فى الآية التالية :

{ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ }
[الآية ١١١]

والمعنى : اذّكر – كذلك – من نعمى عليك.

وقت أن أوحيت أى ألهمت إلى الحواريين وهم الخواص، أو الأصفياء.

أوحيت إليهم أن آمنوا بى وبرسولى تأييداً لك بهم، ونصرة على من كفر من بنى إسرائيل.

قالوا أى : الحواريون آمنا بالله وبرسوله، واشهد بأننا مسلمون أى : مخلصون فى إسلام وجوهنا لله، وسائرون على درب كل المسلمين، من رسل الله تعالى وأنبيائه، وأتباعهم الصالحين المسلمين.

*****

وبعد هذا التعداد لنعم الله على عيسى عليه السلام : يبين ربنا عز وجل ٠٠ بعض ما جرى بين عيسى عليه السلام وقومه .

فيقول :

{ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }

[الآية ١١٢]

والمعنى : اذكر عندما قال الحواريون المؤمنون الصادقون فى إسلامهم، المخلصون لله تعالى ٠٠ قالوا لعيسى :

هل يستطيع ربك أى : يطيعك ربك، وينزل علينا مائدة من السماء، إذا سألته ذلك ٠٠؟

قال عيسى لهم اتقوا الله ولا تقترحوا الآيات، بعد ظهور المعجزات، وكثرة الدلالات.

إن كنتم مؤمنين بكمال قدرة الله، وبصحة نبوتى.

وقال الإمام أبو السعود : أمرهم بالتقوى؛ ليصير ذلك وسيلة لتحقق المطلوب، كما فى قوله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجاً * ويرزقه من حيث لا يحتسب [الطلاق : ٢ ، ٣] .

يعنى : اتقوا الله ؛ ليتحقق لكم نزول المائدة .

* * *

وهنا أجابوه قائلين :

{ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ }

[الآية ١١٣]

والمعنى : ليس سؤالنا عن شك فى قدرة الله، ولا اقتراح الآيات، ولا التعنت فى طلب المعجزات؛ لأننا مؤمنون بقدرة الله عليها، ومؤمنون كذلك برسالتك.

ولكن سؤالنا له أهداف أربعة :

الأول : أن نأكل منها تبركاً.

الثانى : وتطمئن قلوبنا بزيادة اليقين والمشاهدة.

الثالث : ونعلم أن صدقتنا عياناً، كما علمناه استدلالاً .

الرابع : ونكون عليها من الشاهدين أى : نشهد عليها عند الذين لم يحضروها ويشاهدوها من بنى إسرائيل، فيزداد المؤمنون منهم بشهادتنا إيماناً ويقيناً، ويؤمن بها الكافرون منهم.

ولما ظهر أن سؤالهم للعلم، وليس للتعنت ٠٠

كان جوابه عليه السلام ٠٠ هكذا ٠٠

قام، واغتسل، وصلى، وطأطأ رأسه، وغض بصره ٠٠ وسأل ربه المائدة.

{ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ }

[الآية ١١٤]

ومعنى الآية : أن عيسى عليه السلام ٠٠ توجه إلى ربه وسأله نزول المائدة ، قائلاً :

اللهم ربنا أنزل علينا كما طلبوا مائدة وهى : الخوان إذا كان عليه الطعام من السماء.

تكون لنا أى : نتخذ يوم نزولها عيداً لأولنا وآخرنا أى : لمن فى زماننا ولمن يأتى بعدنا من أهل ديننا.

وتكون آية منك على رسالتى، وصحة نبوتى.

وارزقنا بها ومنها رزقاً حسناً طيباً، وأنت خير الرازقين المعطين للخلق ما سألوا من الأرزاق.

* * *

وكان الجواب، كما تصوره الآية التالية :

{ قَالَ اللّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ }

[الآية ١١٥]

والمعنى : قال الله تعالى لهم بعد سؤال عيسى : إنى منزلها عليكم كما طلبتم، لتزدادوا بها يقيناً وإيماناً.

فمن يكفر بعد أى بعد إنزالها منكم فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين.

يقول عبد الله بن عمر رضى الله عنه : أشد الناس عذاباً يوم القيامة ٠٠ المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون.

فنزلت الملائكة بالمائدة من السماء، كما يرى جمهور الأئمة والعلماء، ويقول الإمام ابن كثير : وهو الصواب.

وتقول الروايات : إنهم – أى بنى إسرائيل – أمروا ألا يخونوا، وألا يدخروا منها.

ولكن كثيراً منهم : خانوا، وداخروا، وخالفوا، وكفروا، فعذبهم الله تعالى عذاباً لم يعذبه أحداً من عالمى زمانهم ولا غير زمانهم ٠٠ حيث مسخهم خنازير.

*****

كان الحوار السابق بين عيسى عليهم السلام والحواريين فى الدنيا ..
والحوار الآتى بين الله تعالى وعيسى عليه السلام فى الآخرة.
يقول تعالى :

{ وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ }
[الآية ١١٦]

ومعنى الآية : اذكر وقت أن يقول الله يوم القيامة لعيسى ابن مريم : ءأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟
أجاب عيسى عليه السلام ربه ، قائلاً :
سبحانك أنت منزه عما لا يليق بك من الشريك وغيره.
ثم قال عليه السلام :
ما يكون لى أى : ما ينبغى أبداً لى ولا لغيرى.
أن أقول ما ليس لى بحق قولاً ليس أن أقوله، فضلاً عن أنه ليس حقاً، ولا صدقاً فى ذاته.
ثم .. وهذا هو الأهم.
إن كنت قلته وحاشا لله فقد علمته حيث إنك :
تعلم ما أخفيه فى نفسى أى : معلومي، ولا أعلم ما فى نفسك أى : معلومك.
إنك أنت علام الغيوب كلها، ومن ذلك : ما انطوت عليه النفوس، ومن كان كذلك : لا يصل إلى علم علمه أحد.

* * *

ثم قال متبرئاً من دعاواهم.

{ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }
[الآية ١١٧]

والمعنى : قال عيسى عليه السلام لربه ..

ما قلت لهم أى لبنى إسرائيل إلا ما أمرتنى به يعنى : ما أمرتهم ، إلا بما أمرتنى أنت به.
وفسر عيسى ما أمره به ربه، وما بلغه هو به لبنى إسرائيل، بقوله :
أن اعبدو الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم أى : رقيباً، مدة إقامتى فيهم وبينهم، أمنعهم مما يقولون.
فلما توفيتنى قبضتنى بالرفع إلى السماء.
كنت أنت الرقيب عليهم أى : المراقب والحافظ لأعمالهم وأقوالهم.
خاصة :
وأنت على كل شيء من قولى لهم، وموقفى معهم، وقولهم وموقفهم من بعدى شهيد مطلع عالم به.

* * *

وبعد ذلك : فوض الأمر إلى ربه ٠٠ قائلاً :

{ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }
[الآية ١١٨]

والمعنى : الأمر إليك يا رب.
إن تعذبهم من كفر منهم، وعاند : فإنهم عبادك لك فيهم الأمر والنهى والتصرف، لا اعتراض عليك.
وإن تغفر لمن آمن منهم : فإنك أنت العزيز الغالب على أمره، الذى يعفو من قدرة الحكيم فى صنعه، وأمره، وعفوه وعذابه.

*****

ثم يختم ربنا الكلام عن حكاية ما يقع يوم القيامة مع الرسل حين يجمعهم بقوله :

{ قَالَ اللّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }
[الآية ١١٩]

والمعنى : هذا يوم القيامة ينفع فيه الصادقين فى الدنيا صدقهم لأنه يوم الجزاء.
حيث : يكون لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار يقيمون فيها خالدين فيها لا يخرجون منها، ولا يموتون فيها، إنما هم فيها أبداً إلى ما لا نهاية.
وأفضل ما فى ذلك :

رضى الله عنهم بالسعى المشكور، والعمل المقبول.
ورضوا عنه بالجزاء الموفور، والنعيم والسرور.
حقيقة ٠٠ ذلك الفوز العظيم لأنه باق، بخلاف الفوز فى الدنيا: فإنه لا يدوم.

* * *

وفى نهاية السورة : يحق الله الحق، وينبه على كذب النصارى، وفساد ما زعموا فى حق المسيح وأمه عليهما السلام.
حيث يوضح بجلاء ٠٠ ملكيته للسموات والأرض، وما فيهما ومن فيهما، وتصرفه فى الجميع كيف يشاء.
وذلك بقوله :

{ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }
[الآية ١٢٠]

ومعنى الآية : التعظيم لله، والتنزيه لله تعالى من أن يكون معه إله آخر؛ حيث إنه : مالك كل شيء.
كما أنه على كل شيء من المنع والإعطاء، والإيجاد والإفناء قدير.
ومن ذلك : إثابة الصادق، وتعذيب الكاذب.

*****

التوبة

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم

{ بَرَاءةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ }
[الآية ١]

نعم ..
القارئ .. لم يبدأ بالبسملة هنا ..!!
هل نسى .. ؟
لا .. لقد ترك البسملة عامدا ..
لماذا ؟..
لأن "بسم الله الرحمن الرحيم" أمان ، وبراءة : نزلت لرفع هذا الأمان .. كما يقول سيدنا على رضى الله عنه .
أو لأن سيدنا عثمان رضى الله عنه .. هو الذي ترك "البسملة" بينهما ، عندما كان يجمع القرآن ؛ لأنه وجد أن قصة هذه السورة "التوبة" تشبه قصة الأنفال .. حيث إن الأنفال فيها ذكر العهود ، وهذه فيها قطع العهود .
إضافة إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم .. كان إذا نزلت عليه سورة أو آية.. قال : اجعلوها فى الموضع الذي يذكر فيه كذا ، وكذا .. وقد توفى عليه الصلاة والسلام ، ولم يبين لنا – كما يقول عثمان – أين نضعها .. ؟
وقد ترك الصحابة .. كتابتها وتلاوتها فى أول هذه السورة ، دون أن ينكر أحدهم هذا أو يعترض عليه .
ونحن بهم – إن شاء الله تعالى – نهتدي ، ونقتدي .

* * *

وتعالوا بنا الآن إلى التفسير ..
هذه السورة الكريمة : من أواخر ما نزل من القرآن الكريم .
وفي هذه الآية الأولى منها : يعلن الله تعالى البراءة من المشركين وقطع العهود المبرمة ، إلى أجل غير محدود ، أو إلى مدة هي أقل من أربعة أشهر ، بين المسلمين وبينهم.

* * *

وهؤلاء وهؤلاء .. يعطيهم الله مهلة ، بعدها : يُقْتَلون أو يُسْلِمون ..

هذه المدة ..
هي المذكورة في قوله تعالى :

{ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الكَافِرِينَ }
[الآية ٢]

يعني : سيروا أيها المشركون – بموجب هذه المهلة – في الأرض أربعة أشهر لكم فيها مطلق الأمان .
وبعدها : تنتهي المعاهدات التي بينكم وبين المسلمين ، بسبب هذه البراءة ، التي فرضها الله تعالى ، ولا أمان لكم بعد هذه المدة .
واعلموا أنكم يا مشركون ، بالرغم من هذه المهلة غير معجزي الله أي: غير ناجين من عذابه .. فلا تغتروا بهذا العقد المؤقت لكم بالأمان .
واعلموا أيضا أن الله مخزي الكافرين الذين يصرون على كفرهم وعنادهم ، وحربهم لله ولرسوله وللمؤمنين ، وذلك الخزي لهم .. يكون بالقتل في الدنيا ، وعذاب النار في الآخرة .

* * *

وهذه البراءة من عهود المشركين ، ومهلتها .. تتم عبر إعلان عام ، وفي مناسبة هامة .
يقول تعالى :

{ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ المُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }
[الآية ٣]

يعني : وأذان وإعلان عام من الله ورسوله إلى الناس جميعا يتم ويعلن يوم الحج الأكبر وهو يوم عرفة .
وهذا الإعلان العام .. يتكون من عدة مواد :
المادة الأولى .. هي أن الله برىء من المشركين وعهودهم ورسوله برىء منهم – أيضا – ومن عهودهم .
المادة الثانية .. هي فإن تبتم أيها المشركون من الكفر ، وآمنتم فهو خير لكم مما أنتم فيه .
المادة الثالثة .. هي وإن توليتم عن الإيمان ، وبقيتم على الكفر والعناد فاعلموا أنكم مع هذا الكفر والعناد غير معجزي الله أي : غير ناجين من عذابه .. فلا تغتروا بما أنتم فيه من أمور الدنيا .
المادة الرابعة .. هي وبشر الذين كفروا بصفة عامة ، وأصروا على كفرهم ، ولم يتوبوا حتى موتهم بعذاب أليم .

وقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم عليا رضى الله عنه ، حين نزلت هذه الآيات ، من أول السورة إلى نهاية قوله تعالى هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون [التوبة ٣٣] .

وكلفه صلى الله عليه وسلم أن يؤذن بها ، ويعلم الناس جميعا في موسم الحج من العام التاسع الهجري .

وأضاف النبي صلى الله عليه وسلم إلى مواد هذا الإعلان الإلهي ٠٠ مادتين هما٠٠

المادة الخامسة ٠٠ هي : أن لا يحج بعد هذا العام مشرك .

المادة السادسة ٠٠ هي : أن لا يطوف بالبيت أحد عاريا ، حيث كانوا يطوفون عرايا من ملابسهم ، ويقولون : لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها .

* * *

هذا ٠٠ ويستثنى من هذه البراءة العامة من المشركين ٠٠ ما تفيده الآية التالية ٠٠

{ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ }

[الآية ٤]

يعني : إلا الذين عاهدتم من المشركين قبل ذلك بعهود أمان بينكم وبينهم، ثم وفوا بعهودهم و لم ينقصوكم شيئا من شروط العهود ، ويخلوا بها ، و كذلك لم يظاهروا أي : يعاونوا ويساعدوا في حرب عليكم أحدا.

هؤلاء ٠٠ لا تقطعوا عهودهم ، بل أتموا إليهم عهدهم الذي عاهدتموهم عليه إلى انتهاء مدتهم التي تنص عليها شروط العقد .

إن الله يحب من المتقين الوفاء بالعهود .

* * *

أما الذين قطعت معهم العهود ، من المشركين ، وأعطوا مهلة وهى أربعة أشهر.. فيقول الله تعالى بالنسبة لهم :

{ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }

[الآية ٥]

أي : فإذا انسلخ انتهى زمن الأشهر الحرم التي كانت هي مدة مهلتهم ، قبل قطع العهود معهم ٠٠

وكذلك : إذا انتهت مدة عهود المشركين ، الذين قال الله عنهم فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم لأنهم لم ينقصوا من عهودهم شيئا ، ولم يساعدوا أحدا على حرب المسلمين ..

إذا انتهت مدة هؤلاء وهؤلاء : فتقطع العهود فورا معهم .. ولا يكون أمامهم إلا أحد أمرين .. إما الدخول في الإسلام ، أو القتال ..

فإن أسلموا بعد انتهاء المهلة ، أو المدة : فهو خير لهم .

وإن تولوا وأعرضوا عن الإيمان : فالله عز وجل يقول فاقتلوا المشركين الذين أعرضوا عن الإيمان حيث وجدتموهم في حل أو في حرم وخذوهم أسرى واحصروهم قيدوهم عن الحركة ، واحبسوهم ، وامنعوهم من التصرف في البلاد .

و لتحقيق ذلك اقعدوا لهم كل مرصد أي : تربصوا لهم في كل مكان تستطيعون رصدهم منه ، والإمساك بهم فيه .

فإن تابوا وأسلموا ، بعد أسرهم ، والإمساك بهم ، وحسن إسلامهم ، بأن أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فقد صاروا إخوانكم .

وعلى هذا فخلوا سبيلهم وأطلقوا سراحهم .

إن الله غفور لما حدث منهم قبلا رحيم بهم ؛ حيث هداهم للإسلام .

* * *

هذا ..

{ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ }
[الآية ٦]

يعني : وإن أحد من المشركين الذين تبرأ الله منهم ، وقطعت العهود معهم ، أو من غيرهم استجارك أي : طلب الأمان من القتل ، وأن تحفظه في جوارك مما يخاف ..

فلا تقتله .. بل أجره وأعطه الأمان ، واجعله في جوارك ؛ حتى يسمع منك كلام الله وهو القرآن ، الذي كانوا يمتنعون عن سماعه ، ويتناهون عنه ، كما في قولهم لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون [فصلت ٢٦] .

فقد يهده الله ويؤمن .

ثم أبلغه حتى وإن لم يؤمن مأمنه أي : مكان أمنه ، في داره ، أو دار قومه ؛ لأنه لا إقامة له بيننا ولينظر في أمر نفسه بعد هذا التصرف من المسلمين معه ، وبعد سماعه القرآن ؛ فقد يهده الله ويؤمن .

ذلك الحكم .. مناسب لدعوتهم ، بـــ سبب أنهم قوم لا يعلمون دين الله ، وما فيه صالحهم .

* * *

فإن قال قائل ٠٠ لم تقطع هذه العهود مع المشركين ٠٠ ؟
أجيب بقوله تعالى :

{ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ }
[الآية ٧]

أي : لم لا تقطع هذه العهود معهم ، وكيف يكون لهم عهد وأمان ، وهم مشركون بالله ، كافرون به وبرسوله ، غادرون في أمانهم ، ناقضون لعهودهم .
ومع ذلك : فقد استثنى الله من هؤلاء الناكثين للوعود ، الناقضين للعهود الذين عاهدتم عند المسجد الحرام يوم الحديبية فى العام السادس ، وهم قريش .
ثم وضع شرطا لاستمرار هذا العهد ، حيث قال فما استقاموا لكم ووفوا بالعهد ، ولم ينقضوه فاستقيموا لهم على الوفاء به .
فماذا تم ٠٠ ؟
استقام النبي صلى الله عليه وسلم ٠٠ ووفَّى بشروط العقد .
أما هم ٠٠ فنقضوا العهد .
وهذه هي : طبيعة الشرك وأهله ٠٠ التي تدفع إلى إلغاء العهود معهم ، ونبذ عقودهم ؛ لغدرهم .
إن الله يحب المتقين الذين يوفون ، ولا يغدرون .

* * *

ثم ٠٠

{ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ }
[الآية ٨]

يعني : كيف يكون للمشركين أمان منكم ، وهم – في ذات الوقت – إن يظهروا عليكم يظفروا بكم ، ويجدون فرصة لقتلكم أو إيذائكم لا يرقبوا فيكم لا يراعون لكم ويحترمون إلا قرابة ولا ذمة ولا عهدا ، بل يقتلونكم أو يؤذونكم.
هم : يبغضونكم ، ويحقدون عليكم ، ويتربصون بكم الدوائر .
ولكن مراعاة لصالحهم يرضونكم بكلام حسن ، يقولونه بأفواههم فقط يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم [آل عمران ١٦٧] بل تأبى قلوبهم الخير لكم ، والوفاء بالعهود معكم .
هؤلاء أكثرهم فاسقون غالبيتهم ٠٠ ناقضون للعهود ، لا مروءة عندهم ، ولا وفاء لديهم .

* * *

هؤلاء ..

{ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }
[الآية ٩]

أي: هؤلاء الذين تقطع معهم العهود .. اشتروا استبدلوا بآيات الله وهي القرآن ثمنا قليلا من متاع الدنيا الزائل ، وشهواتها الخبيثة الفانية .

ولما فعلوا ذلك .. واتبعوا الهوى ، وخضعوا للشهوات صدوا عن سبيله أنفسهم وصرفوها عن الهداية ، وصدوا غيرهم أيضا .

إنهم بفعلهم هذا ساء ما كانوا يعملون .

* * *

إنهم ..

{ لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ }
[الآية ١٠]

يعني : هؤلاء لا يرقبون لا يراعون ، ولا يحترمون في مؤمن بصفة عامة إلا ولا ذمة قرابة ، ولا عهدا ، بل يقطعون الرحم ، ويخونون العهود .

وأولئك هم المعتدون المجاوزون كل الحدود .

فكيف يكون إذن معهم عهود .. ؟

بل كيف لا تقطع معهم العهود .. ؟

* * *

ومع ذلك .

{فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ }

[الآية ١١]

أي : فإن تاب هؤلاء المعتدون عما هم فيه ، وآمنوا بالله ورسوله وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فقد صاروا إخوانكم في الدين لهم ما لكم وعليهم ما عليكم .
و هكذا نفصل الآيات ونبين الأحكام لقوم يعلمون فيعملون .

* * *

ثم يعود الحديث مرة أخرى عن المشركين الذين أعطوا مهلة أربعة أشهر ، والمشركين الذين أعطوا مهلة إلى نهاية تمام مدة عهودهم .
ولكن ٠٠ من زاوية أخرى غير ما سبق .
حيث قال تعالى :

{ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ }
[الآية ١٢]

يعني : وإن نكث هؤلاء في أيمانهم التى حلفوها عند عهودهم التي قطعوها على أنفسهم ، وذلك قبل انتهاء مدة هذه العهود وطعنوا في دينكم أي : في الإسلام ومبادئه ، وعابوه ، أو انتقصوا منه : فقد غدروا .
وعلى ذلك : فقاتلوا أئمة الكفر فيهم ، أي : رؤساءهم ، وزعماءهم ؛ حيث إنهم لا أيمان حقيقية ، أو صادقة لهم بل هي مخادعة منهم .
وهذا القتال لعلهم ينتهون عن الفساد ؛ إذّ لا طريق يردعهم عن فسادهم إلا القتال.

* * *

ثم يعاتب ربنا المسلمين على عدم قتالهم ٠٠ فيقول موبخا :

{ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }
[الآية ١٣]

أي : لم لا تقاتلون قوما اجتمعت فيهم هذه السيئات ٠٠
أولا : نكثوا أيمانهم ونقضوا عهودهم .
ثانيا : هموا بإخراج الرسول من مكة ، أو قتله .

ثالثا : وهم الذين بدءوكم بالقتالأول مرة والبادئ أظلم .
إذن ٠٠ ما الذي يمنعكم من قتالهم ٠٠ ؟
أتخشونهم وتخافون منهم ٠٠ ؟
إذا كان الأمر كذلك : فالله أحق أن تخشوه وتخافوه ، وتقاتلون وتقتلون من أجله ومن أجل دينه إن كنتم مؤمنين حقا .

* * *

وبعد هذا العتاب والتوبيخ ٠٠ يكون التحريض الصريح على قتالهم .
حيث يقول عز وجل :

{ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }
[الآيتان ١٤ ، ١٥]

يعني : قاتلوهم أيها المسلمون ٠٠
ففي ذلك : فوائد خمس :
أولا : يعذبهم الله بأيديكم بعد أن كانوا يعذبونكم .
ثانيا : يخزهم بالهزيمة ، والقهر ، وذل الأسر .
ثالثا : ينصركم عليهم حيث إن النصر من عنده وحده .
رابعا : ويشف صدور قوم مؤمنين طالما عانت وتعبت ومرضت من أذيتهم .
خامسا : ويذهب غيظ قلوبهم أي قلوب المؤمنين ، بسبب ما كانوا يرونه من علو الكفر وطغيان أهله .
ومع كل ذلك يتوب الله على من يشاء من هؤلاء الكافرين ، إذا آمنوا ، وفي هذا إخبار بأن بعضهم سيؤمن قبل موته ٠٠ وقد كان .
والله عليم بما سيكون من هؤلاء حكيم في قبول توبة من يؤمن .

* * *

ثم يقول ربنا تبارك وتعالى للمسلمين :

{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }
[الآية ١٦]

أي : هل حسبتم يا مسلمون أن تتركوا دون اختبار وابتلاء يميز الله به الصادق في إيمانه من غيره ٠٠ ؟

وكان هذا الاختبار ٠٠ بفرضية الجهاد ؛ ليكشف الله الذين جاهدوا منكم في سبيل الله ولم يتخذوا في ذات الوقت من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين لأنفسهم وليجة يعني : بطانة وأصدقاء ومستشارين وأهل مودة من هؤلاء الكفار.

يعني : يكشف هؤلاء المخلصين ، ويميزهم عن غيرهم .

والله خبير بما تعملون يعرف المخلص في جهاده من غيره ، ويجازي كل فريق بما يستحق .

* * *

ثم يسوق لنا ربنا – سبحانه وتعالى – حكما جديدا بالنسبة للمشركين .

حيث يقول :

{ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ }

[الآية ١٧]

يعني : ما ينبغي وما يصح للمشركين أن يجمعوا بين أمرين متناقضين ، عمارة المسجد الحرام ، والإشراف على شئونه ، والكفر الذي يشهدون به على أنفسهم .

أولئك مهما فعلوا ، فقد حبطت أعمالهم ولا يؤجرون عليها .

وفي النار مصيرهم ، و هم خالدون مقيمون أبدا .

وفي هذا : نزع لولايتهم عن المسجد الحرام ، ومنع لهم من شرف القيام بخدماته ، وخدمات زواره وعماره .

* * *

ثم بين المولى عز وجل المستحقين لشرف عمارته ٠٠ فقال :

{ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ فَعَسَى أُوْلَـئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ}

[الآية ١٨]

أي : الذي يستحق أن يعمر مساجد الله عمارة معنوية ٠٠ بالذكر ، والصلاة والطواف ٠٠ إلى غير ذلك ، وعمارة مادية ٠٠ من تنظيف ، وتنوير ، وصيانة إلى غير ذلك ٠٠ فهو كل من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة أي : اجتمع له الإيمان ، والعمل بالأركان .

وكذلك لم يخش إلا الله أي : لا يخاف إلا من الله ، ولا يرضى أحدا سواه.

يقول ربنا : فعسى أولئك الذين ذكروا أن يكونوا من المهتدين وهم مهتدون بإذن الله ؛ لأنهم يقولون "كل كلمة عسى في القرآن ٠٠ إذا كانت من الله : فما بعدها محقق ".

وبالتالي : فغيرهم ، وبالذات من المشركين : غير مهتدين .

* * *

وحتى يبطل الله ادعاءات بعض المشركين أنهم على خير وأنهم يحسنون صنعا ٠٠ ببعض صور الخير التى يفعلونها ٠٠ !!

وحتى لا يخدع المسلمون ببعض الأعمال الخيرية التي يفعلها المشركون فيظنون أنهم بذلك ٠٠ على خير ٠٠ !!

* * *

يبين الله عز وجل أنه لا يستوى أهل الإيمان بالله تعالى ورسوله أهل الجهاد بأهل سقاية الحجاج ، وسكن المسجد الحرام ، مع بقائهم على الشرك ٠٠

فيقول سبحانه :

{ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }

[الآية ١٩]

يعني : لا يستوى عند الله تعالى ٠٠ من يفعل هذا مع من يفعل ذاك في القبول .

والله لا يهدي القوم الظالمين المشركين ، ولا يقبل أعمالهم مهما كانت .

والآية : تلفت نظرنا إلى موضوع هام يقع فيه كثير من المسلمين ٠٠

وهي : قضية تقديم الفضول على الفاضل ٠٠ حيث إنه أحيانا ما تعطل فرائض لصالح نوافل ، وأحيانا ما يكون التمسك بالأقل قيمة والتفريط في الأعلى أهمية ، وأحيانا ما يكون الاستنكار لما هو أكبر جرما عند الله : أقل من الاستنكار لما هو أخف جرما .

وهذا موضوع هام : ينبغي الانتباه إليه ، وعدم الوقوع فيه .

* * *

ثم يوضح الله – إتماما لعدم المساواة – أن المؤمنين المجاهدين هم الفائزون.
فيقول :

{ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ }
[الآية ٢٠]

أي : أن الذين اتصفوا بهذه الصفات الثلاث : آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله .
هؤلاء :
أولا : أعظم درجة وأعلى منزلة ، عند الله من الذين يقومون بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ، مع بقائهم على الشرك .
وثانيا : هم الفائزون بالخير كله .

* * *

ومن هذا الخير ..
أن الله تعالى :

{ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ }
[الآية ٢١]

يعني : لما اتصفوا بثلاث صفات .. وهي : الإيمان ، والهجرة ، والجهاد بالنفس والمال ..
بشرهم ببشارات ثلاث .. وهي : الرحمة ، والرضوان ، والجنات ، التي فيها النعيم المقيم .

* * *

ومن هذا النعيم المقيم : أنهم ..

{ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ }
[الآية ٢٢]

وأي أجر أعظم من هذا .. أيها الأحبة الكرام .. ؟

إنه لا أعظم من هذا أبدا ٠٠ رزقنا الله وإياكم هذا الفضل العظيم ٠٠

***

وأما من ترك الهجرة في سبيل الله ٠٠ من أجل أهله ، وخوفا على تجارته: فقد أنزل الله تعالى فيه قوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ }
[الآية ٢٣]

لما أمر الله تعالى بالتبرؤ وقطع العلاقات مع المشركين : قال بعض الناس٠٠ كيف يقاطع الرجل ابنه وأباه وأخاه ٠٠ ؟

فذكر الله تعالى : أن مقاطعة الرجل أهله وأقاربه المشركين من أجل الدين واجبة .

وعلى هذا : فالمؤمن لا يوالى ، ولا يطيع الكافر ٠٠ حتى وإن كان ابنه أو أباه أو أخاه ؛ لأنهم استحبوا واختاروا الكفر بالله تعالى ورسوله وفضوا ذلك على الإيمان .

ومن يتولهم منكم أي : من يتخذهم أحبابا وأولياء ، أو يختار الإقامة معهم في دار الكفر ، ويفضل ذلك على الهجرة والجهاد فأولئك هم الظالمون لأنفسهم وللمؤمنين ولدين الله ؛ بمخالفتهم أمر الله ، واختيار الكفار على المؤمنين .

* * *

لما نزلت هذه الآية قال الذين أسلموا ولم يهاجروا : إذا نحن هاجرنا من مكة إلى المدينة ٠٠ ضاعت أموالنا ، وذهبت تجارتنا ، وخربت ديارنا ، وقطعت أرحامنا ٠٠

فأنزل الله تعالى :

{ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }
[الآية ٢٤]

أي : قل يا محمد لهؤلاء الذين قالوا "إذا نحن هاجرنا حدث كذا" إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها أي اكتسبتموها وتجارة تخشون كسادها بسبب مقاطعة الكفار لها ومساكن ترضونها وتفضلونها .

أي : إن كانت هذه الأشياء الثمانية ٠٠ حبها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فقعدتم بسبب هذا الحب عن الهجرة والجهاد : فتربصوا أي انتظروا حتى يأتي الله بأمره أي : بعقابه .

وفي هذا تهديد لمن آثر وفضل لذات الدنيا على الآخرة .

كما أن الله تعالى يقول تهديدا والله لا يهدي القوم الفاسقين.

مما يدل على أن من لم يكن الله ورسوله أحب إليه مما ذكر ، ومن لم يكن الجهاد في سبيل الله أحب إليه مما ذكر ٠٠ فهو فاسق ولا يستحق الهداية .

* * *

وبمناسبة الجهاد في سبيل الله وقتال المشركين : ينبه ربنا عز وجل على أن النصر من عنده ، قل عدد المسلمين أو كثر ٠٠ !!

وبذلك : تبرز قضية هامة جدا ، وهي : ضرورة التوكل على الله تعالى ، والاعتماد عليه وحده .

يقول سبحانه :

{ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ }

[الآية ٢٥]

يعني : لقد نصركم الله بتأييده لكم على أعدائكم في مواطن كثيرة من مواطن ومواقع القتال ، وكنتم حينها قليلوا العدد ٠٠ كيوم بدر ، ويوم الأحزاب ، وخلافه .

وأما يوم حنين وهي موقعة كانت في واد بين مكة والطائف ، وكان عدد المسلمين اثنا عشر ألفا وأعداؤهم أربعة آلاف من المشركين .

يقول تعالى : اذكروا يا مسلمون إذ أعجبتكم يومها وغرتكم كثرتكم وقال قائلكم "لن نغلب اليوم من قلة" وتخلى عنكم الله – امتحانا لكم – بنصره ، فلم تغن عنكم كثرتكم وترد عنكم من الهزيمة شيئا ووصل الحال إلى أن ضاقت عليكم الأرض بما رحبت يعني على سعتها لم تجدوا مكانا تهربون إليه من عدوكم ، وتطمئنون فيه على أنفسكم ثم وليتم وانصرفتم مدبرين منهزمين، بالرغم من كثرة عددكم ، وقلة عدوكم .

وما ذاك : إلا لعدم التوكل على الله ، والاعتماد عليه ، والاغترار بالكثرة والجنود والعتاد ، والغفلة عن أن الله عز وجل هو الناصر وحده .

* * *

وكان هذا درسا للمؤمنين عظيمًا ..

{ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ }
[الآية ٢٦]

يعني : ثم أي بعد هذا الدرس لم يتخل الله عن أوليائه ؛ حيث أنزل الله سكينته طمأنينته على رسوله وعلى المؤمنين وأمنهم بها من خوفهم ، ورحمهم بها من فزعهم .
كما أنه عز وجل أنزل جنودا تحارب الكفار معكم وهي : الملائكة ، التي لم تروها بعيونكم ، ونصركم على أعدائكم بعد هزيمتكم ، وبالرغم من قلة عددكم .
وكذلك عذب الذين كفروا بأيديكم ؛ حيث قتلتم منهم ما قتلتم ، وأسرتم منهم ما أسرتم وذلك القتل والأسر جزاء الكافرين في الدنيا .

* * *

وبعد هذا : يفتح الله بابه أمام المشركين الذين عذبهم بأيدي جنوده .
إذ يقول الغفور الرحيم :

{ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاء وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[الآية ٢٧]

أي : ثم يفتح الله باب رحمته وتوبته من بعد ذلك العذاب على من يشاء من هؤلاء الكفار ؛ حيث يلهمهم الدخول في الإسلام ، فيدخلون ، فيتوب عليهم ، ويغفر لهم ما سبق منهم ، ويرحمهم فيما هم قادمون عليه .
والله غفور يستر بالإسلام ما سبق من الكفر وأعماله رحيم بمن هداه إلى الإيمان .

* * *

ثم يقرر الله تعالى أن المشركين نجس ..
ويبني عليه عز وجل حكما واضحا .. وهو : أن على المسلمين منع المشركين من القرب – مجرد القرب – من المسجد الحرام .
فيقول :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }
[الآية ٢٨]

أي : يا أيها الذين آمنوا في كل الأزمان والبلدان ٠٠ اعلموا إنما المشركون نجس باطنا لكفرهم ، وظاهرا لأنهم لا يتطهرون من الجنابات ، ولا يجتنبون النجاسات ٠٠ والحرم مكان طاهر ، مقدس .

وبناء عليه فلا يقربوا المسجد الحرام مجرد اقتراب ، فضلا عن الدخول فيه ٠٠ فهو : ممنوع ممنوع ، وحرام حرام ، فلا تمكنوهم من ذلك ، بل امنعوهم منه منعا باتا .

وكانت بداية هذا المنع في العام التاسع الهجري .

ولما صدر الأمر بمنع هؤلاء المشركين من دخول منطقة الحرم : خاف أهل مكة من وقف حالهم ، وقطع تجاراتهم ، وما يسببه ذلك ٠٠ من فقر وجوع .

فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ٠٠!!

فأنزل الله تعالى وإن خفتم عليه أي فقرافسوف يغنيكم الله من فضله ٠٠

وقد أنجز الله وعده ٠٠ حيث أرسل المطر عليهم مدرارا ؛ فكثر خيرهم ، واطمأنوا على أنفسهم وأهليهم وأحوالهم وما يزالون حتى اليوم في غنى وفير ، وخير عميم ، تظللهم دعوة إبراهيم عليه السلام وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون[إبراهيم ٣٧].

وحتى تظل قلوبهم معلقة بالله تعالى : فقد قيد ربنا هذا الغنى بمشيئته حيث قال إن شاء ويظل كذلك التنبيه الدائم إلى أنه سبحانه المتفضل في ذلك وغيره .

إن الله عليم بمصالح العباد حكيم في تحقيق الآمال .

* * *

وبهذا – أيها الأحبة الكرام – أصبحت أحكام الشرك والمشركين ، من البراءة منهم ، وقطع العهود معهم ، ووجوب قتالهم ، ومنعهم من دخول الحرم٠٠

أصبحت واضحة لا خفاء فيها ، ولا لبس حولها .

ولذلك : تنتقل الآيات إلى الحديث عن أهل الكتاب وأحكامهم .

إذ يقول تعالى :

{ قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ }
[الآية ٢٩]

بعد أن انتشر الإسلام ، وعلت كلمته ، وقوى المسلمون ، وصارت لهم دولة وشوكة : كلفهم الله تعالى برد الناس إلى دين الله الحق ، وإنقاذهم من الباطل الذي يستعبدهم ، ويعيشون فيه ، ويرضون به .

ولما كان الموقف – بهذا الخصوص – مع الكفار ٠٠ ينتهي إلى واحد من أمرين ؛ وهما : دخولهم في الإسلام حتى يهتدوا بنوره ، وينتفعوا بخيره ، أو قتالهم ، حتى لا يكونوا حربا على الإسلام وأهله ٠٠

فإن الموقف – بهذا الخصوص ذاته – مع أهل الكتاب ، أي اليهود والنصارى ، أوسع بعض الشيء ٠٠ حيث ينتهي إلى واحد من ثلاثة أمور ، وهي: دخولهم في الإسلام حتى يهتدوا بنوره ، وينتفعوا بخيره ، أو يدفعون للدولة أموالا ، نظير ما يستفيدون به من خدمات ، وهم راضون، ودون تمنع أو اعتراض ، أو إن لم يحدث الأول أو الثاني يكون قتالهم ؛ حتى لا يكونوا حربا على الإسلام وأهله ٠٠

وعلى هذا : يكون معنى الآية الكريمة ٠٠ يا أيها الذين آمنوا : قاتلوا الذين يتصفون بهذه الصفات ٠٠ من أهل الكتاب .

١- لا يؤمنون باللهأي : لا يعرفونه حق المعرفة ولا باليوم الآخر.

٢- ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله في الكتاب والسنة .

٣- ولا يدينون دين الحق أي : لم يدخلوا في الإسلام ، بعد أن عرفتموهم ودعوتموهم إليه .

قاتلوهم حتى يعطوا الجزية أي : يقبلوا دفعها عن يد وغير امتناع وهم صاغرون أي : راضون بسريان أحكام الإسلام عليهم .

* * *

أهل الكتاب ٠٠ هؤلاء : يذكر الله تعالى من مقالاتهم ، وأوصافهم ، وأحوالهم ، ما يلي :

يقول سبحانه :

{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ }

[الآية ٣٠]

أي : قالت بعض فرق اليهود واشتهر في الجميع عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح عيسى ابن الله .

ذلك أي : قول هؤلاء وهؤلاء قولهم بأفواههم أي : يتفوهون به دون دليل على ما يقولون ٠٠ لا هؤلاء ، ولا هؤلاء .

يضاهئون أي : يشابهون به ، ويسايرون قول الذين كفروا بالله من قبل هؤلاء .

قاتلهم لعنهم الله أنى يؤفكون كيف يصرفون عن الحق ويضلون عنه مع قيام الدليل الواضح عليه ، وهو وحدانية الله .

* * *

أهل الكتاب هؤلاء ..

{ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَـهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }
[الآية ٣١]

يعني : اتخذ أهل الكتاب هؤلاء أحبارهم علماءهم ورهبانهم عبادهم ونساكهم أربابا يطيعونهم في التحليل والتحريم من دون الله .

واتخذوا كذلك المسيح ابن مريم إلها ؛ حيث جعلوه ابن الله .

وما أمروا في التوراة ، أو في الإنجيل إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو المستحق للعبادة سبحانه أي : تنزه وتعالى عما يشركون معه من هذه الآلهة المزعومة أو من غيرها .

* * *

هؤلاء ..

{ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ }
[الآية ٣٢]

أي : يريد هؤلاء ، ويرغبون ، ويحاولون أن يطفئوا نور دين الله وشريعته .

وذلك بأفواههم أي : بأقوالهم فيه ، وأكاذيبهم عليه .

والملاحظ : أنهم يريدون ويحاولون ويفعلون ويأبى الله إلا أن يتم ما يريد.. من خذلانهم ، ونشر دينه ، وانتصار دعوته .

وهكذا : يتم الله نوره ويعلى كلمته ولو كره الكافرون ذلك .

* * *

أيها الأحبة الكرام ..

إن الذي يبطل كيدهم ، ويخيب سعيهم ، ويتم نشر نور الإسلام .

{ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ }
[الآية ٣٣]

أي : هو الله الذي أرسل رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم بالهدى للدنيا كلها ودين الحق أي : الإسلام .
وذلك ليظهره أي الإسلام على الدين كله ويعلى أهله على أهل الدنيا كلها ، حتى ينشروا العدل والسلام .
وسوف يتحقق ذلك دائما بإذن الله ولو كره ذلك المشركون.

* * *

بعد هذا ..
أخذ المولى يوضح فساد كثير من الأحبار والرهبان هؤلاء ..
كما أخذ يهدد الذين يكنزون الذهب والفضة من هؤلاء وأمثالهم ..
بقوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }
[الآية ٣٤]

هذا ..
خطاب من الله تعالى للذين آمنوا فيه التحذير من التشبه بـــالأحبار وهم علماء اليهود ، والتشبه بـــالرهبان وهم عباد النصارى .
حيث إنهم كانوا يأكلون يعني : يأخذون أموال الناس بالباطل عن غير طريق ما أحل الله ، كالرشوة في الحكم وغير ذلك .
لما كانوا يصدون الناس، ويمنعونهم عن سلوك سبيل الله واتباع دينه.
يقول سفيان الثوري – عليه رحمة الله – : من فسد من علماء المسلمين .. كان فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عباد المسلمين .. كان فيه شبه من النصارى.
ثم يقول ربنا عز وجل والذين يكنزون الذهب والفضة من هؤلاء الكثيرين من الأحبار والرهبان وكذلك من شابههم من المسلمين ولا ينفقونها في سبيل الله حسب ما أمر ، وَوفّق ما شرَّع ..!!
هؤلاء وهؤلاء بشرهم بعذاب أليم أي : أخبرهم بأن لهم من الله عذابًا مؤلمًا شديدًا .

* * *

ولكن ..
متى وأين يكون هذا العذاب .. ؟

{ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ }
[الآية ٣٥]

يعني : يكون هذا العذاب يوم يوقد في نار جهنم على هذه الكنوز ، وتشتد النار ، وتحمى عليها .

وساعتها تكوى أي : تحرق بهذه الكنوز – التي حميت عليها نار جهنم – جباههم وجنوبهم وظهورهم يعني : من كل جهاتهم .

ويقال لهم هذا العذاب : جزاء ما كنزتم لأنفسكم من الأموال ، ومنعتم خيره عن غيركم من أصحاب الحقوق فيه .

فذوقوا يا من كنزتم ، جزاء ما كنتم تكنزون وتمنعون .

* * *

ثم يعود الحديث عن المشركين، الذين يتلاعبون في الأشهر الحرم بالتقديم والتأخير ٠٠ فيقرر المولى عز وجل الأشهر الحرم ويحدِّدُها ٠٠

قائلا :

{ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ }
[الآية ٣٦]

يعني : عدة الشهور المعتد بها عند الله للسنة اثنا عشر شهرا قمريا في كتاب الله ثابتة في اللوح المحفوظ ، منذ خلق الله السموات والأرض والأزمنة .

منها أي : من هذه الشهور أربعة حرم وهي : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب والتى كان العرب قديما يحرمون القتال فيها ، فلما جاء الإسلام: زادها حرمة وتعظيما ، فلا يجوز انتهاكها ، كما أن الحسنات والسيئات تتضاعف فيها ذلك التحريم هو الدين القيم المستقيم ، الذي كان عليه إبراهيم وإسماعيل ، عليهما السلام ، والذي أقره الإسلام ، وليس ما كانت العرب تفعله من تقديم هذه الأشهر وتأخيرها .

فلا تظلموا فيهن في الأشهر الحرم ، ولا في غيرها من الشهور أنفسكم بارتكاب المعاصي ، وانتهاك الحرمات ؛ حيث إنها أعظم وزرا .

هذا ٠٠

وقاتلوا يا مسلمون المشركين كافة يعني : كلهم في أي وقت كما يقاتلونكم كافة يعني : كلكم ، في أي وقت .

واعلموا أن الله مع المتقين الذين يتبعون تحديده لهذه الأشهر ، وينفذون تعاليمه في قتال أعداء الأمة .

* * *

هذا شرع الله ٠٠

{ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }
[الآية ٣٧]

يعني إنما هذا النسيء الذي كان يفعل في الجاهلية ، من تغيير هذه الأشهر الحرم بالتقديم والتأخير ، حسب رغبتهم في القتال ٠٠ هو زيادة منهم في الكفر حيث خالفوا به تحديد الله لهذه الأشهر ، كما أن هذا النسيء يضل به الذين كفروا فيقعون في الضلال والمخالفة وارتكاب الحرام ؛ حيث يحلونه عاما ويحرمونه عاما أي القتال في هذا الوقت أو ذاك ليواطئوا عدة ما حرم الله إذ المهم أن تكون الأشهر أربعة ، وليس المهم ما هي هذه الأشهر ، وبذلك يحلوا بأنفسهم ما حرم الله .

وهكذا زين لهم سوء أعمالهم وحسبوها صحيحة حسنة .

و لكن الله لا يهدي القوم الكافرين المخدوعين بأفعالهم ، ومخالفاتهم لشرع الله تعالى .

* * *

أخي المسلم ٠٠

أختي المسلمة ٠٠

بعد أن كانت الآيات السابقة من السورة الكريمة تأمر المسلمين بقتال غير المسلمين ، ردا لعدوانهم ، وكفا لبغيهم ٠٠

تبدأ الآيات التالية في حث المسلمين على هذا القتال ووجوب المسارعة إلى الجهاد٠٠ إذا دعا الداعي ، وطلبت النصرة ٠٠

حيث يقول سبحانه وتعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ }
[الآية ٣٨]

نزلت هذه الآية الكريمة : حينما دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى غزوة "تبوك" ٠٠ وشق على الناس الخروج ، وتثاقلوا ٠٠

لأن المسافة بعيدة بين المدينة وتبوك ٠٠!!

ولأن الزمان زمان عسرة ومشقة وفقر ٠٠!!

ولأن الجو كان حارا ٠٠ بل شديد الحرارة ٠٠!!

فعاتب الله المسلمين ٠٠ قائلا :

ما لكم وما الذي حدث إذا دعيتم من رسول الله وقيل لكم انفروا أي اخرجوا للقتال معه في سبيل الله ٠٠ اثاقلتم إلى الأرض تباطأتم وتكاسلتم كأنكم مربوطون في الأرض .

هل رضيتم بالحياة الدنيا ومتاعها ، بدلا من الآخرة ٠٠؟

اعلموا أنه ليس متاع الحياة الدنيا في الآخرة أي بالنسبة لها إلا قليل لا يساوي شيئا ، حتى تركنوا إليه ، وتتركوا الجهاد .

* * *

يا أيها الذين آمنوا ٠٠

{ إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }
[الآية ٣٩]

هذا تهديد للمتثاقلين عن الجهاد في سبيل الله ، الذين رضوا بالحياة الدنيا ، وشغلوا بمتاعها وزينتها ٠٠ فلم يلبوا الدعوة ، ولم ينفروا ولم يخرجوا في سبيل الله ؛ دفاعا عن الدين ، والعرض ، والأرض .

إلا تنفروا إلى الجهاد يعذبكم بالهزيمة ، والذلة والهوان في الدنيا ، أو بعذاب جهنم في الآخرة عذابا أليما شديد الإيلام .

أيضا ويستبدل بكم قوما غيركم لنصرة دينه ولا تضروه شيئا في هذه الحالة ؛ لأنه لا قيمة لكم ، إذ لا قيمة لمن لا يدافع عن دينه ، ولا يدافع عن قيمه ومبادئه ، بل لا قيمة لمن لا مبادئ له .

والله على كل شيء قدير ينصر دينه بغيركم في هذه الحال .

* * *

يا من تثاقلتم عن الخروج مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى الجهاد ٠٠ !!

{ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }
[الآية ٤٠]

يعني : يا مسلمون إلا تنصروه أي : إن تثاقلتم عن نصرة النبي صلى الله عليه وسلم ٠٠ فالله حافظه ، وناصره .

فقد نصره الله سابقا إذّ أخرجه الذين كفروا من مكة حينما هموا بقتله ، وكان ثاني اثنين فقط .

اذكروا إذّ هما في الغار مختبئين من الأعداء ، وهو يقول لصاحبه أبى بكر لا تحزن من أجلي إن الله معنا بنصره وتأييده وحفظه .

فأنزل الله من بشائر النصر سكينته عليه فاطمأن وهدأت نفسه وأيد الله ، حبيبــ(ــه) محمدا صلى الله عليه وسلم بجنود من جنده لم تروها .

وتحقق النصر للدعوة ، حيث جعل الله كلمة الذين كفروا السفلى فلا وزن لها ولا قيمة ولا بقاء ٠٠ وصارت كلمة الله ودينه ، ودعوته ، كما هي دائما العليا فلا تعلوها دعوة .

والله عزيز غالب ينصر أولياءه حكيم يذل أعداء دعوته .

* * *

لاحظوا أيها الأحبة الكرام ٠٠

بعد أن عاب الله على بعض المسلمين كسلهم وتثاقلهم عن الجهاد ٠٠

وبعد أن هيأ النفوس لنوال نصر الله ٠٠

يأمر بالنفير العام للجهاد ٠٠ فيقول عز من قائل :

{ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ }
[الآية ٤١]

أي : اخرجوا جميعا للجهاد في سبيل الله خفافا وثقالا أي : من يملك سلاحا ومن لا يملك ، أو شبابا وشيوخا ، أو ناشطين ومتثاقلين ٠٠

وجاهدوا لنصرة الدين ، وإعلاء كلمة الله بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله.

ذلكم الخروج والجهاد خير لكم من ترك الجهاد إن كنتم تعلمون فضل الجهاد ، وثوابه ، وضرورة المسارعة إليه .

* * *

ولما كان هذا الأمر عاما ٠٠ والخروج للجهاد : أصبح حتما : لم يتخلف عنه إلا المنافقين ٠٠ الذين قال الله عنهم :

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَـكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾
[الآية ٤٢]

يعني : لو كان ما دعوتهم إليه ،وطلبت منهم الخروج معك بسببه عرضا من متاع الدنيا قريبا سهل الحصول عليه ، بدون أية مشقة أو صعوبة، والطريق إليه سفرا قاصدا أي قريبا ٠٠!!
لاتبعوك وذهبوا معك في هذه الحالة ؛ بسبب ما فيها من مكاسب دنيوية.
ولكن ما دعوتهم إليه من الجهاد بعدت عليهم الشقة أي : المسافة ، فوق أنها شاقة عليهم ، ومتعبة لهم .
ولذلك : ما ذهبوا معك ، ولا اتبعوك .
وعندما تعود من ساحة الجهاد سيحلفون بالله لك معتذرين عن تخلفهم عن الذهاب معك ، قائلين لو استطعنا الخروج لخرجنا معكم للقتال.
يهلكون أنفسهم بهذا الاعتذار الكاذب .
والله يعلم إنهم فيه لكاذبون .
وهذا وعيد لهم وتهديد .

* * *

ولأنهم كانوا قد استأذنوا من النبى صلى الله عليه وسلم في التخلف عن الغزوة ٠٠ وأذن لهم ٠٠
فقد عاتبه الله على ذلك بأرق أنواع العتاب ٠٠
حيث صدر هذا العتاب بالعفو الإلهي ٠٠ قائلا لحبيبه عليه الصلاة والسلام:

﴿ عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾
[الآية ٤٣]

أي : عفا الله عنك إذْأذنت لهم في التخلف عن الغزوة ، وكان الأولى : ألا تأذن لهم حتى يتبين ويظهرلك الذين صدقوا منهم في أعذارهم التي ساقوها وتعلم كذلك الكاذبين .

***

ثم بين ربنا أن المؤمن لا يستأذن ليتخلف عن الجهاد ، بل هو يسارع إلى ساحته بماله ونفسه .
حيث يقول تعالى :

﴿ لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾

[الآية ٤٤]

يعني : الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر لا يتخلفون عن الجهاد ، ولا يستأذنونك – في أن لا يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، بل هم يسارعون إلى الجهاد .

والله عليم بالمتقين الذين يجاهدون ، ولا يعتذرون .

* * *

{ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ }
[الآية ٤٥]

يعني : إنما يستأذنك في التخلف عن الجهاد ، هم الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم في هذه الأمور ، وتشككت فيها .

وبسبب ذلك فهم في ريبهم شكهم يترددون يتحيرون ، فلا ثبات لهم على مبدأ ، ولا اطمئنان لنفوسهم في شيء .

* * *

هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم قد رغبوا في التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والقعود عن الجهاد من أول الأمر.

{ وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَـكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ }
[الآية ٤٦]

يعني : هؤلاء الذين تخلفوا لو أرادوا بصدق الخروج للجهاد معك ، لظهر عليهم ولأعدوا له عدة من آلة الحرب والزاد .

ولكن لم يفعلوا ذلك .

كما أن الله تعالى كره ، ولم يرد انبعاثهم أي خروجهم ..

فثبطهم أي : ضعف رغبتهم ، وكسلهم عن الخروج .

وقيل من بعضهم لبعض اقعدوا مع القاعدين عن الجهاد من النساء والصبيان .

وهذا: ذم شديد لهم ، وسخرية لاذعة من حالهم .

في الوقت الذي فيه تقوية للمسلمين ..

حيث إنهم ، كما يقول رب العزة :

{ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ }
[الآية ٤٧]

يعني : لو خرج هؤلاء المنافقون معكم للقتال وصاروا في صفوفــكم وبين جموعكم مازادوكم إلا خبالا أي فسادا وشرا ؛ لأنهم جبناء ولأوضعوا خلالكم بالنميمة يبغونكم يريدون لكم الفتنة بإلقاء العداوة بينكم .

خاصة : وأن فيكم سماعون لهم ما يقولون سماع قبول وتأثر ؛ لضعف إيمانهم .

والله عليم بالظالمين المنافقين هؤلاء .

* * *

{ لَقَدِ ابْتَغَوُاْ الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاء الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ }
[الآية ٤٨]

أي : ليست هذه أول مرة يريدون فيها الفتنة والشر لكم ٠٠

لقد ابتغوا الفتنة والهلاك لكم من قبل هذا اليوم .

وذلك : يوم قدمتم المدينة مهاجرين إليها ، ويوم أحد حيث رجعوا عنكم ولم يقاتلوا معكم ، وصدوا الناس عن ذلك ، إلى غير هذا من صور كيدهم للإسلام ، وأفعالهم القبيحة .

وقلبوا لك الأمور أي : دبروا الحيل ، وأشاعوا قالة السوء ؛ ابطالا للدين، وحربا للدعوة .

وظلوا على ذلك ٠٠ حتى جاء الحق والنصر للإسلام وظهر أمر الله أي : دينه ، وعلت رايته ٠٠ وهم لذلك كارهون .

* * *

هذا ٠٠ موقف المنافقين من الجهاد عامة ، ومن الدعوة ، ومن صاحبها عليه الصلاة والسلام ٠٠ وهم – فوق ذلك – نماذج وفرق .

ويسوق الله عز وجل بيان بعض فرقهم هذه ٠٠ فيقول :

{ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ }
[الآية ٤٩]

يعني : ومن هؤلاء المنافقين من يقول لك يا محمد ائذن لي في التخلف عن الجهاد ولا تفتني وتوقعني في الإثم والفتنة إن لم تأذن لي ، أو : لا تفتني بهلاك مالي وعيالي ·· إن خرجت معك ، أو غير ذلك من صور الفتنة ، التى زعموها وتعللوا بها لعدم الخروج .

ألا إنهم في الفتنة وهي التخلف سقطوا في الإثم والهلاك .

وإن جهنم لمحيطة بالكافرين المنافقين ، لا نجاة لهم منها .

* * *

هؤلاء يا محمد ··

{ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ }
[الآية ٥٠]

أي : إن تصبك في بعض غزواتك حسنة من نصر وغنيمة ·· تسؤهم وتغمهم ؛ لأنهم لا يحبون المؤمنين .

وإن تصبك في بعض غزواتك الأخرى مصيبة من شدة وقتل لبعض أصحابك من المسلمين : يقولوا شماتة ، وافتخارا ببعدهم عن مواطن هذا القتال معك قد أخذنا أمرنا واحتياطنا من قبل هذه المصيبة ، ويتولوا عنك ويبتعدوا وهم فرحون مسرورون بما حدث لك ، مما لم يحدث لهم .

* * *

يا محمد ·· ويا أيها المؤمن في كل زمان ، وفي أي مكان ··

{ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}
[الآية ٥١]

يعني : قل لهم لن يصيبنا ويحدث لنا من خير أو شر إلا ما كتب الله لنا وقدر علينا .

هو مولانا الذي يتولى أمورنا ، ويرعى أحوالنا ، ونؤمن بقضائه وقدره سبحانه .

وعلى الله فليتوكل المؤمنون ونحن مؤمنون به ، وأما أنتم فلا تشعرون بحلاوة هذا الإيمان ، ولا بلذة هذا التوكل على الله .

* * *

يا محمد ٠٠ ويا أيها المؤمن ٠٠ في كل زمان ، وفي أي مكان ٠٠

{قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ }
[الآية ٥٢]

يعني : قل لهؤلاء المنافقين هل تربصون بنا أي : هل تنتظرون لنا إلا ما نراه نحن إحدى الحسنين النصر عليكم ، أو الشهادة في سبيل الله ، و أما نحن المؤمنون بالله ، المتوكلون عليه ، المجاهدون في سبيله نتربص بكم وننتظر لكم ما نراه إحدى السوأتين ٠٠ الأولى أن يصيبكم الله بعذاب من عنده كما عذب من قبلكم من الكافرين في الأمم السابقة ، الثانية : أو يصيبكم بعذاب يتم لكم بأيدينا حيث نقتلكم ونبيدكم .
فتربصوا بنا كما تحبونإنا معكم متربصون بكم ٠٠ وسنرى نحن وأنتم لمن تكون العاقبة ٠٠ والتي هي حتما : للمتقين .

* * *

يا محمد ٠٠ ويا أيها المؤمن ٠٠ في كل زمان ، وفي كل مكان ٠٠

{ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ }
[الآية ٥٣]

يعني: قل لهم ثالثا أنفقوا أموالكم طوعا أو كرها مهما أنفقتم لن يتقبل منكم لأنه لم يقصد به وجه الله ؛ حيث إنكم كنتم قوما فاسقين والله لا يتقبل إلا من المتقين .

* * *

{ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ }
[الآية ٥٤]

أي : أن الذي منع هؤلاء المنافقين من قبول الله تعالى نفقاتهم هو هذه الأسباب :

أولا : أنهم كفروا بالله وبرسوله.
ثانيا: أنهم لا يأتون الصلاة لأدائها إلا وهم كسالى.
ثالثا : أنهم لا ينفقون أية أموال إلا وهم كارهون لدفعها .

* * *

وبعد أن أمر الله النبي صلى الله عليه وسلم ، وكل مؤمن ٠٠ أن يقول لهؤلاء المنافقين : ما قرأناه منذ قليل ٠٠
نهاه ، صلى الله عليه وسلم ، وكل مؤمن ٠٠ عن الإعجاب بما هم فيه من أمور الدنيا ٠٠
حيث قال :

{ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ }
[الآية ٥٥]

أي: يا أيها النبي ٠٠ يا أيها المؤمن لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم أي: لا تنبهر بها ، ولا تفتن بسببها .
حيث إن ما أوتوه من أموال وأولاد إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ضياعا لها ، أو حرصا عليها ، وبخلا بها ، وقلقا نفسيا بسببها .
و فوق ذلك تزهق أنفسهم تخرج ساعة سكرات الموت بصعوبة بالغة وهم في ذات الوقت كافرون .
يقول سبحانه: {ولو ترى إذّ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون } [الأنعام ٩٣].

* * *

نعم هؤلاء كافرون ٠٠

{ وَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ }
[الآية ٥٦]

يعني : ويحلفون بالله كذبا ونفاقا إنهم لمنكم يا مسلمون ٠٠ وما هم في الحقيقة منكم لأن عواطفهم ومصالحهم مع الكافرين .
ولكنهم مع ذلك قوم يفرقون يخافون ، ولذلك فهم يتظاهرون بأنهم منكم حتى لا تقتلونهم لكفرهم الحقيقي.

* * *

هؤلاء ..

{ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ }
[الآية ٥٧]

أي : أن هؤلاء المنافقين لو يجدون لأنفسهم ملجأ يلتجئون إليه، ويتحصنون فيه .. مثل : قلعة ، أو جزيرة ، أو لو يجدون لأنفسهم مغارات جمع غار ، وهو سرداب في الجبل أو مدخلا أو : أي مكان يدخلون فيه ، ويختبئون منكم ، ويبتعدون عنكم ..

لو يجدون ذلك ، أو شيئا منه لولوا إليه لذهبوا إليه ، وهم يجمحون أي يسرعون في دخوله ، والهروب منكم .

* * *

وهذا نموذج آخر من هؤلاء المنافقين ..

{ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ }
[الآية ٥٨]

يعني : هذا فريق آخر منهم وهم من يلمزك أي يعيبك ويطعن عليك في قسمة الصدقات أي : الزكاة ، أو الغنائم .

فإن أعطوا منها ما يأملون لأنفسهم رضوا .

وإن لم يعطوا منها ما ينتظرون إذا هم فجأة يسخطون عليك ، وينتقدون قسمتك وتوزيعك .

* * *

{ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ }
[الآية ٥٩]

أي : لو أن هؤلاء رضوا وقنعوا ، بـــما آتاهم الله ورسوله وطابت أنفسهم به .

و كذلك قالوا بكل يقين حسبنا الله أي : كفانا فضل الله سيؤتينا الله من فضله أي : سيرزقنا من عنده ، وسيؤتينا رسوله كذلك من قسمه للصدقات والغنائم .

ثم قالوا ثالثا إنا إلى الله وفضله وخيره راغبون في عطائه .

لو أنهم : رضوا ، وقالوا ذلك ٠٠ لكان خيرا لهم مما هم فيه .

* * *

أيها القارئ الكريم ٠٠

بعد أن ذكر الله غمز المنافقين ولمزهم على النبي صلى الله عليه وسلم ٠٠ في قسمته للصدقات ٠٠

أتبع ذلك – سبحانه – ببيان أنه : هو الذي قسمها – وليس رسوله – وهو الذي حددها – وليس رسوله – وهو الذي بين مصارفها ، ولمن تدفع ، وليس رسوله ٠٠

فقال :

{ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }

[الآية ٦٠]

يعني : إنما الصدقات وهي زكاة المال ٠٠ تدفع لهذه الأصناف الثمانية الآتية ، أو لواحد منها .

وهي :

١– الفقراء : والفقير ٠٠ هو الذي لا يسأل الناس ؛ لأن عنده ما يكفيه لوقته فقط .

٢– والمساكين : والمسكين ٠٠ هو الذي يسأل ؛ لأنه لا يجد شيئا .

٣– والعاملين عليها : وهم الذين يقومون بجمعها من أصحابها وتوصيلها إلى الإمام أو نائبه .

٤– والمؤلفة قلوبهم : وهم الذين يؤلف الإمام قلوبهم على الإسلام والمسلمين ، ومنهم من أسلم ومنهم من ظل على حاله .

وقد أوقف الصحابة هذا السهم في صدر خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، حينما قوى المسلمون .

وهذا السهم اليوم : مرهون بحال المسلمين قوة وضعفا .

٥– وفي الرقاب : وهم العبيد الذين يريدون الحرية .

٦– والغارمين : وهم الذين تجمعت عليهم الديون ، ولا يستطيعون لها سدادا بأنفسهم .

٧– وفي سبيل الله : وهم المجاهدون للأعداء ، المدافعون عن الدين ، والديار ، والأعراض .

٨– وابن السبيل : وهو المسافر البعيد عن دياره ونفذ ماله .

هذه الأنصبة ، وتوزيعها على أصحابها المذكورين فريضة من الله.

والله عليم بالمصلحة لعباده حكيم في هذا التوزيع ، كما هو حكيم في كل شيء سبحانه .

* * *

وبعد هذا التوضيح لتوزيع الصدقات .. الذي اقتضاه الرد على صنف من المنافقين ، كانوا يعيبون على النبي صلى الله عليه وسلم توزيعه للصدقات.

يقدم الله تبارك وتعالى بيانه الحكيم لصنف ثالث من هؤلاء المنافقين ..

حيث يقول :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾
[الآية ٦١]

أي : ومنهم أى : من المنافقين .. صنف آخر ، وهم الذين يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم بالكلام ويقولون عليه هو أذن أي يفتح أذنه لكل أحد ، ويصدق كل ما يقال ، صدقا أو كذبا .

قل أيها العاقل .. ردا عليهم ، وإبطالا لكلامهم :

أذن خير لكم يعني : سلمنا أنه أذن يستمع ، ولكنه نعم الأذن ؛ حيث يستمع الخير فقط ، وليس الشر كما تدعون .

وكان – صلى الله عليه وسلم – أذن خير ؛ لأنه :

يؤمن بالله وآياته ، ويصدق بهما .

ويؤمن للمؤمنين فيسمع منهم ؛ لأنهم صادقون .

كما أنه صلى الله عليه وسلم رحمة للذين آمنوا منكم حيث انقذهم من الكفر والضلال .

على كل حال .. والذين يؤذون رسول الله بالقول أو بالفعل : لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة .

* * *

أيها القارئ الكريم ..

هؤلاء الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾
[الآية ٦٢]

يعني : يا أيها الذين آمنوا .. هؤلاء يحلفون بالله لكم أنهم ما قالوا ذلك ليرضوكم نفاقا منهم ، وكذبا عليكم ، وخداعا لكم .

والله ورسوله أحق وأولى أن يرضوه بالطاعة لتعاليمه ودينه وأوامره من يطع الرسول فقد أطاع الله[النساء ٨٠] .

وذلك إن كانوا مؤمنين حقا .

* * *

{ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ }
[الآية ٦٣]

يعني : ألم يعلموا أي : هؤلاء المنافقون أنه فعلا وصدقا من يحادد يعاند ويحارب الله ورسوله أي : شرع الله ، وذات رسوله ، أو سنة رسوله فأن له جزاء على فعله هذا نار جهنم يعذب ويقيم خالدا فيها.

حقا ٠٠ ذلك الخزي العظيم لهم ولأمثالهم .

* * *

العجيب أيها المؤمن الكريم ، والقارئ العزيز ٠٠

أن هؤلاء يخشون الفضيحة ٠٠

يقول تعالى :

{ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ }
[الآية ٦٤]

أي : يحذر ويخاف المنافقون من أن تنزل من الله عليهم أي : في شأنهم سورة تنبئهم وتخبرهم بما في قلوبهم من النفاق والكفر .

وبذلك : ينكشف سرهم ، ويفتضح أمرهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين .

قل يا محمد ٠٠ ويا أيها المؤمن لهم تهديدا وتخويفا استهزئوا ما شئتم بالإسلام وأهله ٠٠ إن الله مخرج وكاشف ما كنتم تحذرون أن يظهر من نفاقكم وكفركم وعداوتكم للمسلمين .

* * *

على كل حال ٠٠

هؤلاء من طبيعتهم ٠٠ أنهم : يستهزئون بالإسلام وأهله ، ويستهزئون بالله وآياته ٠٠ فإذا ما واجهتهم بأقوالهم ومواقفهم واستهزائهم ؛ جبنوا وقالوا : إنما كنا نمزح ونلعب ٠٠

اقرأ هذه الآيات الكريمة :

{ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ }
[الآية ٦٥]

يقول المفسرون : إن المنافقين الذين خرجوا مع المسلمين في غزوة تبوك٠٠ قالوا فيما بينهم وبين أنفسهم على المسلمين "إنهم جبناء" وليسوا أهل حرب ٠٠

فأنزل الله هذه الآية والتى بعدها ٠٠ وفيها : أنهم سيقولون عندما يواجهون بما قالوه إنما كنا نخوض ونلعب .

وسبحانه الله ٠٠ لما واجههم النبي صلى الله عليه وسلم ، بعد أن نزل عليه القرآن : قالوا : ما كنا جادين فيما نقول إنما كنا نخوض ونلعب أي نتسلى فى الطريق بما يتسلى به الناس من الكلام .

قال رب العزة لحبيبه : قل لهم : هذا استهزاء ، ثم وبخهم عليه وقل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ٠٠ ؟

* * *

فإذا اعتذروا ٠٠

قل لهم :

{ لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ }
[الآية ٦٦]

يعني : لا تعتذروا حيث لا محل لاعتذاركم ولا قبول له ؛ لأنكم تجرأتم بما لا يليق ولا ينبغي أبدا على مقام الله عز وجل وعلى مقام رسوله صلى الله عليه وسلم ، و قد كفرتم بعد إيمانكم الذي ادعيتموه ، وأظهرتموه ، باستهزائكم هذا .

ومع ذلك :

إن نعف عن طائفة منكم تتوب إلى الله ، وتخلص في إيمانها ، وتتخلص من هذا النفاق نعذب طائفة أخرى عدلا منا بأنهم كانوا مجرمين بإصرارهم على الكفر والنفاق والاستهزاء .

* * *

وبعد هذا البيان لنماذج من المنافقين ٠٠

يبين المولى صفات هؤلاء المنافقين بشكل عام ٠٠

فيقول :

{ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }
[الآية ٦٧
]

يعني : المنافقون والمنافقات كتلة واحدة وهم يتصفون بشكل عام ٠٠ بست صفات ، هي :

الأولى : بعضهم من بعض متشابهون تماما في كل شيء باطل .
الثانية : يأمرون بالمنكر من الكفر والمعاصي .
الثالثة : وينهون عن المعروف كل معروف يأمر به الشارع .
الرابعة : بخلاء يقبضون أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله .
الخامسة : غافلون عن ذكر الله نسوا الله فنسيهم فهم في ضلال ، حيث نسوه بترك طاعته ٠٠ فنسيهم بحرمانهم من لطفه وعفوه .
السادسة : بعيدون عن الهداية ، خارجون عن طريق الحق إن المنافقين هم الفاسقون.

* * *

وعلى هذا ٠٠
فما جزاؤهم ٠٠ ؟

{ وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ }
[الآية ٦٨]

نعم ٠٠ هذا جزاؤهم ٠٠
أعد الله لهم والكفار معهم نار جهنم خالدين فيها لا يخرجون منها ٠٠ فيهربون ، ولا يموتون فيها ٠٠ فيستريحون .
هي حسبهم جزاؤهم وعقابهم ولعنهم الله أي : طردهم بهذا من رحمته فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون.
وفوق كل هذا لهم من الله عذاب لا يعرف حجمه ولا نوعه ولا مقداره أحد وهو مقيم بهم ومعهم وعليهم دائما .

* * *

أنتم أيها المنافقون الكافرون ٠٠

{ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ }
[الآية ٦٩]

أي : أنتم مثل الذين كفروا من قبلكم ٠٠ في الفعل ، وفي الجزاء .
فهم كانوا أشد منكم قوة في الجسم ، وفي الصحة ، وفي البطش .
وهم كانوا أيضا أكثر منكم أموالا وأولادا .
فاستمتعوا وتلذذوا بخلاقهم أي : نصيبهم من هذه الأشياء ، بالطول وبالعرض ، دون مراعاة لمرضاة الله تعالى ، واتباع رسله ، والانتفاع بآياته سبحانه .
وأنتم استمتعتم بنصيبكم من هذه الأشياء مثلهم ، على نحو شيء كما فعلوا هم .
وكذلك خضتم وساهمتم وشاركتم في الباطل من الاستهزاء بالله وآياته ورسله كالذي خاضوه .
أولئك الذين من قبلكم حبطت أعمالهم ضاعت في الدنيا وضاع ثوابها في الآخرة .
وأولئك حقيقة هم الخاسرون لأنهم حرموا من الثواب .
وأنتم مثلهم سواء بسواء .

* * *

ثم يذكرهم المولى – فضلا منه – بما أصاب الأمم السابقة – عدلا منه – حتى يحذروا أن يصيبهم مثل ما أصابهم ٠٠!!
فإذا ما انتفعوا بهذا التذكير ، واتعظوا من مصائر السابقين : آمنوا .
يقول تبارك وتعالى :

{ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وِأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }
[الآية ٧٠]

يعني : ألم يأتهم ويعلموا نبأ خبر الذين من قبلهم من المكذبين أمثالهم، ويعرفوا ماذا حدث لهم ٠٠ فيتعظوا ، فيؤمنوا ٠٠ ؟
قوم نوح أهلكهم الله لتكذيبهم وكفرهم بالطوفان ٠٠ فغرقوا .
وعاد قوم هود ٠٠ أهلكهم الله بالريح العقيم .
وثمود قوم صالح ٠٠ أهلكهم الله بالزلزال .
وقوم إبراهيم عليه السلام ٠٠ أهلكهم الله بسلب نعمة عنهم .

وأصحاب مدين أهلكهم الله بالظلة .

والمؤتفكات وهي قرى قوم لوط ٠٠ أهلك الله أصحابها بأن قلب بلادهم ، وجعل عاليها سافلها .

وما ذلك العذاب ٠٠ إلا لأنهم :

أتتهم رسلهم بالبينات الدلائل الواضحات على صدقهم ٠٠ فكذبوها وما آمنوا بها ٠٠ ففعل الله بهم ما فعل .

فما كان الله ليظلمهم فيما فعل .

ولكنهم كانوا أنفسهم يظلمون باختيارهم الكفر على الإيمان .

* * *

أيها الأخ الكريم ٠٠

أيتها الأخت الفاضلة ٠٠

بعد أن بين الله تعالى لنا صفات المنافقين لنتجنبها ، وجزاءهم لنفر منه ، ونبغضه ٠٠

يبين لنا تبارك وتعالى صفات المؤمنين لنتحلى بها ، كما يبين جزاءهم لنعمل على نواله والوصول إليه ٠٠ حيث يقول :

{ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }

[الآية ٧١]

يعني : والمؤمنون والمؤمنات كتلة واحدة مترابطة متماسكة .

وهم يتصفون بشكل عام ٠٠ بهذه الصفات الست :

الأولى : بعضهم أولياء بعض تربطهم الولاية للحق ، والتناصر في الخير، والتعاون على البر والتقوى .

الثانية : يأمرون بالمعروف جنس المعروف وهو ما أقره الشرع وحسنه، ويحبونه ، ويؤدونه ايضا .

الثالثة : وينهون عن المنكرجنس المنكر ، وهو ما نهى عنه الشرع وقبحه، ويبغضونه ، ويبتعدون عن الوقوع فيه .

الرابعة : ويقيمون الصلاة فيذكرون الله تعالى في كل آن وحال .

الخامسة : ويؤتون الزكاة ليسوا بخلاء بمال الله على خلق الله .

السادسة : ويطيعون الله ورسوله في كل أمر ونهي .

أولئك المؤمنون والمؤمنات ، الموصوفون بهذه الصفات والموصوفات سيرحمهم الله بواسع رحمته .

إن الله عزيز قادر لا يعجزه شيء ، عن مكافأة المطيع ، وعقاب العاصي حكيم يضع كل شيء في محله .

* * *

هل بعد هذه الرحمة الواسعة ·· لهم عند الله شيء آخر ·· ؟

طبعا ··

اقرأ معي :

{ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }

[الآية ٧٢]

نعم ·· هذا جزاؤهم :

أعد الله لهم جنات أي : بساتين تجري من تحتها الأنهار في منظر بديع، وجو رائع خالدين فيها هي لهم ، لا يُخرَجون منها ، ولا تسلب منهم .

وأعد لهم أيضا مساكن طيبة أي : منازل تستريح فيها النفس وتطيب فيها الروح .

وهذه المساكن ·· في جنات عدن أي : إقامة لا يعتريها الفناء ، ولا يعتورها تحول ، فوق أنها موصوفة ·· بجريان الأنهار من تحتها ، وأيضا موصوف أهلها بالخلود .

ولهم – فوق كل هذا – رضوان من الله تعالى أكبر وأعظم وأفضل من كل هذا ··

حقا ·· ذلك هو الفوز العظيم.

وبعد أن ميزت الآيات بين المؤمنين والمنافقين ··

وبعد أن وضحت تماما صفات المنافقين ··

أيضا : بعد أن أمرت آيات السورة – فيما سبق – بقتال المشركين وأهل الكتاب ··

تأمر الآيات هنا ·· بقتال الكفار والمنافقين .

حيث يقول ربنا عز وجل :

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ }

[الآية ٧٣]

يعني : جاهد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان والحجة ، وليس بالسيف لنطقهم بالشهادتين وكل من كان كذلك فمثلهم .

واغلظ عليهم أي : كن شديدا معهم ، هؤلاء بالسيف ، وهؤلاء بالغلظة في القول .

وهم يستحقون ذلك .

ومأواهم أي : مسكنهم ومصيرهم جهنم وبئس المصير مصيرهم .

* * *

المنافقون هؤلاء : أمرهم عجيب ؛ حيث :

{ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ }
[الآية ٧٤]

وهذه الآية : توضح الحكمة في الأمر بقتالهم ٠٠

والمعني : جاهد المنافقين واغلظ عليهم ؛ لأنهم :

يحلفون بالله ما قالوا أي : يستهزئون بالله وآياته ورسوله ، وعندما يواجهون ٠٠ يكذبون ، ويحلفون بالله ما قالوا شيئا .

ولقد قالوا ٠٠ وما قالوه : هو كلمة الكفر وهو هذا الاستهزاء ، و لقد كفروا بهذا بعد أن أظهروا إسلامهم .

كما أنهم هموا بالكيد للإسلام وأهله بما لم ينالوه ، حيث فوت الله عليهم ذلك ، وأبطل كيدهم .

وما نقموا وما عابوا وأنكروا وكادوا للإسلام وأهله إلا بعد أن أغناهم الله ورسوله من فضله حيث أخذوا من الغنائم فاغتنوا بعد فقرهم الذي كانوا فيه .

فإن يتوبوا عن النفاق يك خيرا لهم في الدنيا والآخرة .

وإن يتولوا عن الإيمان والتوبة من النفاق يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة .

وما لهم في الأرض كلها ولا في السماء من ولي ولا نصير ينجيهم من هذا العذاب .

* * *

وبعد أن كلّفنا الله المسلمين بجهاد المنافقين هؤلاء ٠٠

وبعد أن بين الحكيم الخبير ٠٠ سبب هذا الجهاد لهم ٠٠

يزيدنا الحق تبارك وتعالى تعريفا بصفاتهم ونماذجهم أكثر وأكثر ٠٠ فيقول :

{ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ }
[الآية ٧٥]

أي : ومن المنافقين من عاهد الله قائلا لئن آتانا الله من فضله المال لنصدقن منه وندفع زكاته ولنكونن بسبب هذا الغنى من الصالحين حيث نشكره بالإيمان ، والعمل الصالح ، ودفع الزكاة .

* * *

{ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ }
[الآية ٧٦]

يعني : حينما آتاهم الله المال من فضله ونالوا ما يتمنونه ، وأصبحوا أغنياء قادرين على الصدقة والبذل والعطاء بخلوا به أي بهذا المال عن التصدق منه وتولوا وهم معرضون وانصرفوا إلى أموالهم وأعمالهم ، وهم معرضون عن طاعة الله ، مصرون على هذا البخل ، مرتدين عن الإسلام ، ممتنعين عن دفع الزكاة .

* * *

أتحب أيها القارئ الكريم أن تعرف ماذا حدث لهؤلاء ٠٠ ؟
إن كنت تريد ٠٠ اقرأ معي :

{ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ }
[الآية ٧٧]

أي : فأعقبهم الله وأورثهم نفاقا في قلوبهم لا يتخلصون منه ، عقابا لهم، بـــ سبب ما أخلفوا الله ما وعدوه بالتصدق من المال إذا آتاهم ، وقد آتاهم الله المال ، ولكنهم أخلفوا الوعد ، وهذه من آيات المنافق .
يقول صلى الله عليه وسلم أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر .
وفي رواية أخرى وإذا أؤتمن خان .
وكذلك : بـــسبب ما كانوا يكذبون فيه ، من هذا الوعد .

* * *

{ أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ }
[الآية ٧٨]

يعني : ألم يعلم هؤلاء أن الله عز وجل يعلم سرهم الذي بيتوه في أنفسهم من العزم على عدم دفع الصدقات ٠٠ ؟

ألم يعلموا أيضا أن الله عز وجل : يعلم نجواهم التى يتناجونها فيما بينهم من الطعن على الإسلام ، ومبادئه ، وأهله ٠٠؟

ألم يعلموا كذلك أن الله عز وجل علام الغيوب فلا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء .

هؤلاء ٠٠ اجتمع فيهم من الصفات السيئة : منع الزكاة ، وانعدام الصلاح، وخلف الوعد ، والكذب .

* * *

كما يضاف إلى هذه الصفات : أنهم يعيبون المؤمنين ، الذين يتصدقون .

يقول تعالى :

{ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }

[الآية ٧٩]

أي : أن هؤلاء المنافقين ٠٠ هم الذين يلمزون يعيبون المطوعين المتبرعين بأموالهم من المؤمنين الصادقين ، والذين يدفعونها في الصدقات زيادة على زكاة أموالهم ٠٠ بالرغم من أنهم لا يجدون عندهم من المال ، إلا جهدهم أي : إلا القليل .

هؤلاء المنافقون يسخرون من هؤلاء المؤمنين الصادقين .

وبذلك : فهم يعيبون المكثرين في الصدقات ، ويسخرون من المقلين فيها .

سخر الله منهم جزاء على سخريتهم هذه .

ولهم عنده سبحانه عذاب أليم مؤلم يناسبهم وأفعالهم .

* * *

اعلم أيها القارئ الكريم ٠٠ أنه لما نزلت هذه الآيات ، وانكشف أمر المنافقين ، وعرفهم المؤمنون : جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يعتذرون– من باب تغطية الفضيحة ، وليس من باب التوبة – ويقولون : استغفر لنا يا محمد.

وهنا : هم النبي صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لهم ٠٠

فأنزل الله قوله تعالى :

{ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }

[الآية ٨٠]

وفي هذه الآية : يخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ، بأن هؤلاء المنافقين ٠٠ ليسوا أهلا للاستغفار ، وأنه لو استغفر لهم ولو سبعين مرة ، فإن الله لا يغفر لهم ؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله وصاروا فاسقين خارجين عن حظيرة الإيمان والله لا يهدي القوم الفاسقين.

أيها الأحبة الكرام ٠٠

انظروا إلى شفقة النبي صلى الله عليه وسلم بأمته ، ورغبته في هداية الضالين منهم ٠٠ إذ يروى عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما نزلت هذه الآية ٠٠ قال : أسمع ربى قد رخص لي فيهم ، فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة ؛ لعل الله أن يغفر لهم .

فأنزل الله من شدة غضبه عليهم قوله تعالى سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين [المنافقون ٦].

* * *

ثم يذم الله عز وجل المنافقين المتخلفين عن صحبة رسول الله في غزوة تبوك ٠٠ قائلا :

{ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَالُوا لاَ تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ }

[الآية ٨١]

أي : فرح هؤلاء المنافقون المخلفون عن الذهاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته إلى غزوة تبوك بمقعدهم وتخلفهم بعد خروجه صلى الله عليه وسلم خلاف رسول الله أي : مخالفين له .

ولأنهم ليسوا كالمؤمنين الذين يسارعون إلى الجهاد في سبيل الله فقد كرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله .

وليس هذا فقط ٠٠ بل قالوا لبعضهم البعض ، وللمؤمنين أيضا لا تنفروا في الحر لأن القحط شديد ، والحر أشد ، والغزو لا يناسب في هذا الظرف .

قل لهم نار جهنم التي ستصيرون إليها بسبب كفركم أشد حرا من أيام الدنيا ، التى تمتنعون فيها عن الجهاد لو كانوا يفقهون ذلك .

* * *

{ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاء بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }

[الآية ٨٢]

يعني : فليضحكوا بسبب فرحهم هذا ‥ ضحكا قليلا في الدنيا .

وليبكوا بسبب ما يلاقونه من عذاب ‥ بكاء كثيرا في الآخرة جزاء وفاقا بما كانوا يكسبون ويقترفون من أعمال سيئة .

* * *

واذهب أنت ومن معك من أصحابك إلى الغزو والجهاد في سبيل الله .

{ فَإِن رَّجَعَكَ اللّهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ }

[الآية ٨٣]

أي : فإن عدت بسلامة الله من غزوتك إلى طائفة منهم أي : من هؤلاء المنافقين ، لم تتب من نفاقها ، ولم ينصلح بالإيمان حالها ، وجاءت غزوة أخرى فاستأذنوك أي : الذين لم يتوبوا للخروج معك للغزو فعاقبهم بعدة أمور :

الأول : فقل لهم ‥ ستحرمون من هذا الشرف ؛ حيث لن تخرجوا معي أبدا للجهاد في سبيل الله ولن تقاتلوا معي عدوا لأنه لا أمان لكم ، ولا وفاء لعهد عندكم ، ولا صدق في قول لديكم .

والدليل على ذلك : أنكم رضيتم بالقعود والتخلف عن الجهاد أول مرة وقت الحاجة إليكم .

إذن : فاقعدوا مع الخالفين المتخلفين عن الغزو والجهاد من النساء والصبيان ، والعاجزين عن الجهاد .

هذا عقاب ‥

* * *

والعقاب الثاني لهم ‥

{ وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ }

[الآية ٨٤]

لما مات رأس النفاق عبد الله بن أبى ، وكان له ولد مسلم صالح ، دعا النبي صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه ؛ رجاء أن يغفر الله له ‥

فصلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم ترضية لولده .

فنزلت هذه الآية ‥ التي تفيد :

منع النبي من صلاة الجنازة عليهم ، ومنعه كذلك من الدعاء لهم بالمغفرة ؛ لأنهم ليسوا بأهل كذلك ٠٠ حيث كفروا بالله ورسوله ، وماتوا على ذلك .

* * *

والعقاب الثالث : احتقار ما هم فيه من متاع الدنيا .
حيث يقول ربنا :

{ وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ } [الآية ٨٥]

أي : لا تفتن بما هم فيه من متاع زائل ، فهو عذاب لهم في الدنيا والآخرة.

* * *

ثم يزيدنا الله تبارك وتعالى بيانا عنهم وعن مواقفهم ٠٠
فيقول :

{ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ } [الآية ٨٦]

يعني : هؤلاء المنافقون ٠٠ لا يتخلفون عن الجهاد إذا دعوتهم أنت فقط للجهاد٠٠
بل إنه إذا أنزلت سورة من عند الله تعالى في القرآن ٠٠ يأمرهم فيها قائلا أن آمنوا بالله وثقوا في نصره ، وأخلصوا له وجاهدوا في سبيله مع رسوله٠٠ استأذنك في القعود وعدم الخروج معك أولوا الطول أي : الأغنياء منهم يعني : من هؤلاء المنافقين وقالوا لك ذرنا اتركنا نكن مع القاعدين الذين لهم أعذار ، في التخلف عن الجهاد .

* * *

وهكذا ٠٠

{ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ }
[الآية ٨٧]

أي : رضوا لأنفسهم بأن يكونوا من المتخلفين مع الخوالف من النساء.
وذلك : لأنه طبع على قلوبهم لاختيارهم الكفر والنفاق بدلا من الإسلام فهم لا يفقهون ما في الجهاد من الفوز ، وما في التخلف من الشقاء .

* * *

أيها القارئ الكريم ٠٠
إذا كان هؤلاء المنافقون قد تخلفوا عن الجهاد في سبيل الله ٠٠!!

{ لَـكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }
[الآية ٨٨]

نعم ٠٠ إن تخلف المنافقون عن الجهاد : فقد نهض للغزو من هو خير منهم ، وهم الرسول والذين آمنوا معه حيث جاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وبذلك : نالوا شرف الدنيا ، ونعيم الآخرة .
وأولئك لهم الخيرات في الدنيا ٠٠ بالنصر والغنيمة ، وفي الآخرة ٠٠ بالجنة والكرامة .
وأولئك أيضا هم المفلحون الفائزون .

* * *

حيث ٠٠

{ أَعَدَّ اللّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }
[الآية ٨٩]

جعلنا الله تعالى معهم ٠٠ من أهل هذا الفوز العظيم ٠٠ آمين يا رب العالمين .

* * *

أيها الأحبة الكرام ٠٠

البيان الذي سبق عرضه في الآيات الكريمة : كان عن المنافقين من أهل المدينة .
وهناك منافقون غيرهم ٠٠ وهم منافقو الأعراب ، أهل البادية .
يقول عنهم كذلك رب العزة :

{ وَجَاء الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }
[الآية ٩٠]

يعني : و عند غزوة تبوك جاء المعذرون أي : المعتذرون بأعذار كاذبة من الأعراب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليؤذن لهم في التخلف عن الجهاد .

و فريق آخر من منافقي الأعراب قعد عن الجهاد وتخلف ، ولم يعتذر عن هذا التخلف مثل الفريق السابق ٠٠ وهؤلاء هم الذين كذبوا الله ورسوله أي: كفروا بالله وبرسوله مثل من سبقهم .

على كل حال سيصيب الذين كفروا منهم أي المنافقين ، سواء من اعتذروا كاذبين ، ومن لم يعتذروا أصلا ٠٠ يعني : سيصيب هؤلاء وهؤلاء عذاب أليم مؤلم لهم في الدنيا والآخرة .

* * *

وإذا كان هؤلاء المنافقون المتخلفون عن الجهاد ٠٠ من اعتذر منهم كذبا ومن لم يعتذر لهم عذاب أليم.
فإنه من رحمة الله تعالى :

{ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[الآية ٩١]

هؤلاء هم المتخلفون بحق ، المعذورون عند الله ، بل المأجورون على نياتهم ٠٠

وهم : الضعفاء ٠٠ من كبار السن ، والمرضى ، والفقراء الذين لا يجدون ما يجهزون به أنفسهم ، ولا ينفقونه خلال رحلة الجهاد .

هؤلاء : ليس عليهم حرج إثم وذنب إذا نصحوا لله ورسوله آمنوا ، وأخلصوا ، وأطاعوا ، في السر والعلانية .

حيث إنه ما على المحسنين الصادقين من سبيل للعتاب والمؤاخذة .
والله غفور لمن يتخلف بعذر حقيقى ، صادق فيه رحيم بهم .

* * *

كذلك .. أيضا :

{ وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ }
[الآية ٩٢]

أي : ولا حرج ولا إثم ولا ذنب كذلك على الذين إذا ما أتوك قبل الخروج للغزو لتحملهم أي : تعطيهم ما يشاركون به في الجهاد معك ؛ لأنهم لا يملكون شيئا قلت لهم لا أجد ما أحملكم عليه يعني : ليس عندي ما يمكنكم من الجهاد معي .. فأنتم معذورون حقيقة .

فإذا قلت لهم ذلك ، وعرفوا أنهم لن يتمكنوا من شرف الجهاد معك : تولوا انصرفوا وأعينهم تفيض أي : تسيل من الدمع حزنا بسبب أنهم لا يجدوا ما ينفقون للجهاد ، وفي الجهاد .

وهؤلاء : هم المؤمنون الصادقون ، أصحاب الأعذار الصادقة ، المقبولة ، وليس عليهم من سبيل للعقاب أو العتاب .

* * *

وهكذا عرفنا حديث القرآن الكريم عن المنافقين أصحاب الأعذار، الذين يتخلفون عن ساحات الجهاد.

وقد ظهر لنا : أن من هؤلاء .. من تكون أعذارهم غير مقبولة.

ومنهم : من تكون أعذارهم مقبولة، فهى : إما بسبب الضعف أو المرض، أو الفقر.

وهؤلاء .. أصحاب الأعذار المقبولة : لا حرج عليهم، ولا مؤاخذة لهم إذا نصحوا لله ورسوله بل ليس عليهم من سبيل حتى لمجرد العقاب على تخلفهم هذا.

{ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ }
[الآية ٩٣]

يعنى : إنما السبيل للمؤاخذة والعقاب، فى الدنيا وفى الآخرة على المنافقين الذين يستأذنونك فى التخلف عن الجهاد وهم أغنياء فى الصحة .. فلا مرض يمنعهم ، وفى المال .. فلا فقر يقعدهم.

ولكنهم رضوا وأحبوا أن يكونوا بقعودهم وتخلفهم هذا مع النساء الخوالف أى : المتخلفات.

وهكذا طبع الله على قلوبهم بالكفر فهم لا يعلمون النافع لهم من الضار بهم.

* * *

هؤلاء ..

{ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }

[الآية ٩٤]

يعنى : هؤلاء يعتذرون إليكم عن التخلف الذى كان منهم إذا رجعتم وعدتم إليهم من الغزو والجهاد فى سبيل الله.

قل لهم لا تعتذروا بالباطل كذباً، فنحن لن نؤمن لكم أى : لن نصدقكم فيما تعتذرون به.

حيث قد نبأنا الله بأن أوحى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بالخفى والمستور من أخباركم وأحوالكم وأكاذيبكم.

وليس هذا فقط ..

بل سيرى الله عملكم ورسوله هل تتوبون .. أو تثبتون على كفركم ..؟

ثم بعد هذا، أو ذاك تردون بالموت، ثم بالبعث إلى عالم الغيب والشهادة وهو الله عز وجل ..!!

فينبئكم ويخبركم بما كنتم تعملون ويجازيكم عليه.

* * *

ولأنهم كاذبون فى اعتذاراتهم إليكم إذا رجعتم من الغزو إليهم ..!!

فإنهم :

{ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }

[الآية ٩٥]

نعم .. يؤكدون أعذارهم الكاذبة بالأيمان الكاذبة أيضاً، بعد عودتكم إليهم..

وذلك لتعرضوا عنهم أى : تتركوهم بلا توبيخ أو عتاب أو ملامة.

يقول تعالى : إذا حدث منهم ذلك ..

فأعرضوا عنهم أى : اتركوهم، وأهملوهم.

حيث إنهم رجس أنجاس الباطن والظاهر، لا تنفعهم موعظة، ولا يصلحهم شيء.

و أيضاً مأواهم أى : مصيرهم إلى جهنم وبئس المصير جزاءً بما كانوا يكسبون.

* * *

إن هؤلاء أيها المسلمون ..

{ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ }
[الآية ٩٦]

يعنى : سيحلفون لكم أولاً .. ضماناً لعدم أذيتكم لهم، وعتابكم لتخلفهم.
والآن : يحلفون لكم كى لا تعرضوا عنهم، وتقاطعوهم، بل لترضوا عنهم حتى لا تتعطل مصالحهم، وتتضرر بعضكم منكم دنياهم.
فإن فعلوا ذلك ..
فلا ترضوا عنهم .. فإن ترضوا عنهم فلا فائدة من رضاكم هذا لهم .. لأنه لا ينفع رضاكم مع سخط الله عليهم.
إن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين الخارجين عن طاعته .. ومنهم هؤلاء المنافقين الأعراب، فلا تكونوا مثلهم.

* * *

ثم يبين الله عز وجل طبيعة الأعراب الذين لم يهذبهم الإيمان.
بقوله :

{ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }
[الآية ٩٧]

الأعراب : وهم سكان البادية والصحراء.
وهؤلاء : ليسوا جميعاً على نقاء وصفاء، مثل جو حياتهم.
بل إن أكثرهم أشد كفراً بالله ورسوله ونفاقاً للمؤمنين ؛ لجفائهم وقوتهم، وبعدهم عن مجالس العلم.
وأجدر أى : أحق من غيرهم ألا يعلموا حدود وأحكام ما أنزل الله من الدين والشرائع على رسوله صلى الله عليه وسلم.
والله عليم بما هم فيه حكيم فيما يختاره لهم من الهداية، أو عدمها.

* * *

هؤلاء هم الأعراب : بصفة عامة.

{ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }
[الآية ٩٨]

يعنى : ومن هؤلاء الأعراب فريق كافر منافق يتخذ ما ينفق أى : يعد ما يدفعه من مال الزكاة مغرماً خسارة وغرامة؛ حيث يدفعه فقط خوفاً من المسلمين.

كما أن هذا الفريق يتربص بكم الدوائر ينتظر أن يدور الزمان عليكم. وتذهب ريحكم ، وتسقط دولتكم ٠٠ فيتخلص من هذا الإنفاق.

عليهم دائرة السوء تدرو بإذن الله؛ فيكون الهلاك لهم، لا لكم أيها المسلمون.

والله سميع لأقوال عباده ومنهم هؤلاء عليم بأفعال عباده، ومنهم هؤلاء.

* * *

وإذا كان هؤلاء الأعراب – كما رأينا – شديدو العداوة للمسلمين ٠٠!!

فإن منهم صالحين ٠٠

يقول تعالى :

{ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[الآية ٩٩]

أى : ومن هؤلاء الأعراب فريق يؤمن ويصدق بالله واليوم الآخر مثله مثل مؤمنى الحضر سواء بسواء.

وأيضاً يتخذ يعد ما ينفق من مال فى الزكاة والجهاد قربات أى : تقرباً عند الله تعالى، و وسيلة لنوال صلوات دعوات الرسول حيث كان صلى الله عليه وسلم ٠٠ يدعو للمتصدقين.

هؤلاء ٠٠

سيدخلهم الله فى رحمته فى جنته ورضوانه.

إن الله غفور لسيئاتهم رحيم بهم.

* * *

أيها الأحبة الكرام ٠٠

فيما سبق تحدثنا عن آيات من كتاب الله تعالى ٠٠ تتحدث عن أصناف من الناس وأصناف.

والآن انظروا إلى ما يقوله رب العزة عن أشراف الناس.

حيث يقول :

{ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }
[الآية ١٠٠]

يعنى : وأشراف الناس ٠٠
هم السابقون الأولون إلى الإسلام من المهاجرين.
وكذلك : السابقون الأولون إلى الإسلام من الأنصار.
ومعهم كل الذين اتبعوهم على درب الإسلام بإحسان إلى يوم القيامة.
هؤلاء، وهؤلاء، وهؤلاء :
رضى الله عنهم بطاعتهم له ورضوا عنه بإنعامه عليهم.
وأعد لهم مع هذا الرضى عنهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً.
ذلك الرضى عنهم ٠٠ وإعداد الجنات لهم : هو الفوز العظيم.

* * *

وبعد بيان جزاء السابقين الأولين فى الإسلام، الذين لم يتخلفوا عن الجهاد، ولم يعتذروا عنه .
يبين الله تبارك وتعالى : جزاء المنافقين من الأعراب ٠٠ أهل البادية، والمنافقين من المدينة ٠٠ أهل الحضر، الذين تخلفوا عن الجهاد.
فيقول :

{ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ }
[الآية ١٠١]

وهذا : هو القسم الأول من المتخلفين عن الجهاد ٠٠ وهم المنافقون الذين تمردوا فى النفاق واستمروا عليه.
والمعنى : وممن حولكم من الأعراب يوجد فيهم منافقون.
ومن أهل المدينة أيضاً : يوجد منافقون.
هؤلاء، وهؤلاء : مردوا على النفاق تمرنوا عليه، وتفوقوا فيه لا تعلمهم من فرط خبثهم، ومع شدة ذكائك وفطنتك، ولكن نحن نعلمهم ونعرف سرهم وعلانيتهم.
هؤلاء، وهؤلاء : سنعذبهم مرتين مرة بالفضيحة فى الدنيا ، ومرة بالعذاب فى القبر ٠٠ ثم بعد عذابهم مرتين يردون فى الآخرة إلى عذاب عظيم.

* * *

وهناك – من المتخلفين عن الجهاد – غيرهم.
يقول عنهم ربنا سبحانه وتعالى :

{ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[الآية ١٠٢]

وهذا : هو القسم الثانى من المتخلفين عن الجهاد ٠٠ وهم المؤمنون الذين ارتكبوا المعصية، بتخلفهم هذا، ولكنهم اعتذروا ٠٠ وهم أبو لبابة وطائفته الذين ربطوا أنفسهم بسارية المسجد، حتى يتوب الله عليهم.

والمعنى : وهناك ٠٠ قوم آخرون تخلفوا عن الجهاد، ولكنهم لم يعتذروا بمعاذير كاذبة، بل كان اعتذارهم : أنهم اعترفوا بذنوبهم وسوء فعلهم فى التخلف.

هؤلاء خلطوا فيما فعلوه عملاً صالحاً وهو الجهاد مرة وعملاً سيئاً وهو التخلف عنه دون عذر، مرة أخرى.

هؤلاء أيضاً عسى الله أن يتوب عليهم حيث اعترفوا بذنوبهم، والاعتراف بالذنب : توبة، كما يقولون إن الله غفور لذنوبهم رحيم بهم.

ويلاحظ : أن ذكر التوبة هنا ٠٠ تطميع لهم أن يتوبوا إلى الله تعالى، لعل الله أن يقبل توبتهم.

* * *

ومن باب التطميع فى قبول التوبة أيضاً ٠٠
أمر الله تعالى لرسوله – بخصوصهم – قائلاً :

{ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }
[الآية ١٠٣]

يعنى : خذ من أموالهم أى : من أموال هذا الفريق صدقة تكون كفارة لذنوبهم تطهرهم بها من الذنوب وتزكيهم بها أى : تنمى مالهم، وتزكى أخلاقهم تهذيباً وتحسيناً.

وكذلك صل عليهم أى : ادع لهم، حيث إن صلاتك سكن لهم وطمأنينة لقلوبهم، ورحمة؛ لقبول توبتهم.

والله سميع لاعترافهم بالذنب، ودعائك لهم عليم بما فى نفوسهم.

* * *

هذا ..

ومن باب الدعوة إلى التوبة، والحث عليها .. يقول ربنا :

{ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }
[الآية ١٠٤]

يعنى : ألم يعلم هؤلاء التائبون .. قبل توبتهم أن الله هو يقبل التوبة الصادقة، ويتجاوز بسببها عن عباده إذا أخطئوا ..؟

ألم يعلم هؤلاء التائبون .. قبل دفع صدقاتهم، أن الله هو يأخذ الصدقات ويقبلها، ويعطيها الفقراء.

ألم يعلم هؤلاء التائبون .. أن الله هو التواب الرحيم فلا يتسرب إلى نفوسهم يأس وقنوط ..؟

* * *

ومن باب الأخذ بالأسباب .. وصولاً إلى القبول :

يوحى ربنا إلى حبيبه بهذه الآية الكريمة التى يأمره بإعلانها وتبليغها .. وهى :

{ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }
[الآية ١٠٥]

يعنى : قل يا محمد .. لهؤلاء التائبين اعملوا عملاً صالحاً فسيرى الله عملكم حيث لا يخفى عليه شيء، وسيطلع عليه رسوله وسيعرفه المؤمنون

كما أنكم ستردون يوم القيامة إلى عالم الغيب والشهادة وهو الله تعالى فينبئكم ساعتها بما كنتم تعملون ويجازيكم عليه.

* * *

وبعد أن حدثنا ربنا عن هذا الفريق التائب من المتخلفين عن الجهاد ، يقول عن غيرهم :

{ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }
[الآية ١٠٦]

وهذا : هو القسم الثالث من المتخلفين عن الجهاد ٠٠ وهم المؤمنون الذين لم يعتذروا للرسول صراحة، ولكنهم ندموا أشد الندم، وحزنوا – لفعلهم – غاية الحزن.

والمعنى : وغير هؤلاء وهؤلاء ٠٠ قوم آخرون تخلفوا عن الجهاد، وهؤلاء مرجون أى : مؤخرون موقوفون لأمر اللهوقضائه ، إما أن لا يقبل توبتهم، فـــ يعذبهم، وإما أن يتوب عليهم فلا يعذبهم.

والله عليم بصدقهم وكذبهم حكيم فيما يفعله معهم.

* * *

أيها الأحبة الكرام ٠٠

فى الآيات التى تحدثنا عنها : عرفنا الكثير عن المنافقين، وصفاتهم.

وفيما يلى يقص الله عز وجل علينا نموذجاً من تصرفاتهم لشق الصف الإسلامى، والعمل على زعزعة وحدتهم، وإضعاف قوتهم.

حيث يقول سبحانه :

{ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ }

[الآية ١٠٧]

أى : و هؤلاء المنافقون الذين اتخذوا يعنى : بنوا مسجداً قرب مسجد قباء ضراراً للمسلمين وكفراً بالله، وتقوية الكفر الذين يضمرونه، والنفاق الذى يخفونه وتفريقاً بين المؤمنين حيث يصلى بعضهم بهذا المسجد، وبعضهم بمسجد قباء، فيضعف تجمعهم.

وإرصاداً أى : انتظاراً لمن يعرفون، ممن حارب الله ورسوله من قبل بناء هذا المسجد ٠٠ وفيه يتجمعون، وفيه يكيدون للإسلام والمسلمين.

وهم يخفون هذه الأغراض ٠٠ وليحلفن للمسلمين، قائلين : إن أردنا أى: ما أردنا ببنائه إلا الحسنى من الصلاة، وذكر الله، والتوسعة على المسلمين.

والله يشهد إنهم لكاذبون فيما ادعوه.

* * *

أيها القارئ الكريم ٠٠

قصة مسجد الضرار هذا ٠٠ أنه كان هناك رجل اسمه "عامر الراهب" قد ترهب فى الجاهلية، ولبس المسوح، وتنصر، واجتمع الناس حوله، فلما ظهر الإسلام، وجاء محمد صلى الله عليه وسلم، وآمن الناس به ٠٠ حقد عليه هذا الرجل ومن تبعه ٠٠

ثم بنى أتباعه مسجداً، قرب مسجد قباء؛ للأسباب التى ذكرتها الآية السابقة، وقبل خروج النبى صلى الله عليه وسلم لتبوك ٠٠ طلبوا منه عليه الصلاة والسلام أن يأتى إليهم، وأن يصلى فى هذا المسجد، ويدعو لهم بالبركة ٠٠

فوعدهم – صلى الله عليه وسلم – بذلك ٠٠ بعد أن يعود من الغزو.

وهنا ٠٠

نزل قوله تعالى للنبى صلى الله عليه وسلم :

{ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ }

[الآية ١٠٨]

يعنى : يا محمد لا تقم فيه أى : فى هذا المسجد الذى بنوه للضرار ولا تصل لهم فيه أبداً.

ثم قال له : لمسجد أسس على التقوى أى : بنى على التقوىفيه وهو مسجد قباء، الذى أسسته من أول يوم ذهبت فيه إلى المدينة أحق وأولى أن تقوم للصلاة فيه.

وهذا المسجد، وهو مسجد قباء فيه رجال يحبون أن يتطهروا من النجاسات كلها، وأولها الشرك.

والله يحب المطهرين ويرضى عنهم، ويحسن إليهم.

* * *

ثم بين ربنا الفرق بين المسجدين قائلاً :

{ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }

[الآية ١٠٩]

يعنى : هل يستوى من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان مع من أسس بنيانه على شفا جرف على حرف واد هار مائل للسقوط، ضعيف الأساس فانهار به وسقط ؟

وهل هذا فى الخيرية مثل هذا ؟

أبداً : الذى أسس على التقوى ٠٠ ثابت، والذى أسس على الباطل ٠٠ ينهار بصاحبه فى نار جهنم.

والله لا يهدى القوم الظالمين فى أفعالهم وفى أقوالهم.

* * *

حيث ٠٠

{ لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }
[الآية ١١٠]

أى : سيظل بنيانهم الذين بنوا وهو مسجدهم هذا، أو كل ما يفعله المنافقون كيداً للإسلام ريبة وشكاً، وضعف إيمان فى قلوبهم ما داموا أحياء.

إلا أن تقطع قلوبهم بأن يموتوا، أو تقطع قلوبهم من هذا الشك؛ فيتوبوا.

والله عليم بهم، وما يصير إليه أمرهم حكيم فيما يفعله معهم.

* * *

أيها القارئ الكريم ٠٠

بعد أن بين المولى سبحانه وتعالى حال المتخلفين عن الجهاد فيما قلناه منذ قليل ٠٠!!

يأخذ عز وجل فى ترغيب المؤمنين فى هذا الجهاد ٠٠ على نحو مزيد على الفضل فيه أبداً.

حيث يقول :

{ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }
[الآية ١١١]

والمعنى : إن الله اشترى من المؤمنين أغلى شيء عندهم أنفسم وأموالهم وجعل ثمن هذا الغالى : ما هو أغلى منه أن لهم الجنة.

ولكن : متى يكون ذلك ٠٠؟

عندما يقاتلون فى سبيل الله فيقتُلون تارة ويُقتَلون أخرى.

وكان ذلك وعداً عليه حقاً ثابتاً مؤكداً.

وهذا الوعد للمؤمنين ٠٠ مذكور فى التوراة والإنجيل والقرآن.

وقد وُعِدَ به المؤمنون من كل أمة ٠٠ حين أمرت بقتال أعداء الله.

وهو وعد من الله سبحانه وتعالى : لا يتخلف أبداً؛ إذّ لا يوجد من هو أوفى بعهده من الله عز وجل.

فاستبشروا يا مجاهدون فى سبيل ٠٠ البشرى الحسنة ببيعكم هذا الذى بايعتم الله به.

واعلموا أن ذلك هو الفوز العظيم ٠٠ حيث لا ربح أعظم من الجنة.

* * *

ولكن ٠٠ من هؤلاء المؤهلون لهذا البيع العظيم ٠٠؟
إنـهم ٠٠

{ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ }
[الآية ١١٢]

أى : التائبون عن الشرك والنفاق، غير المصرين على المعصية.
العابدون لله، المخلصون له.
الحامدون لله على نعمة الإسلام، وعلى كل حال، وكل نعمة.
السائحون الصائمون، الذين يسيرون فى الأرض طلباً للعلم، أو للاعتبار.
الراكعون الساجدون أى : المصلون لله تعالى، المحافظون على الصلاة.
الآمرون بالمعروف وهو : طلب فعل كل ما يأمر به الشرع ويرتضيه.
والناهون عن المنكر وهو : طلب الامتناع عن كل ما نهى عنه الشرع وقبحه.
والحافظون لحدود الله لأحكامه وتعاليمه المتعلقة بالخالق والمخلوق .
وبشر المؤمنين المتصفين بهذه الصفات ٠٠ أنهم الفائزون برضوان الله تعالى.
ويلاحظ : أن الآية قد وصفت هذا الفريق من المؤمنين بتسع صفات ؛ الست الأولى منها ٠٠ تتعلق بالخالق سبحانه، والسابعة والثامنة ٠٠ تتعلق بالمخلوق، وهو الإنسان، والتاسعة ٠٠ تتعلق بالخالق والمخلوق.
وأننا إذا فتشنا فى أنفسنا على هذه الصفات ٠٠ سنعرف : لم لا نرى جهاداً فى سبيل الله، ولا مسارعة إليه.
ولذلك : فعلى الدعاة إلى الله والمربين فى هذه الأمة ٠٠ أن يركزوا فى تربية الناس على هذه الصفات؛ لإيجاد جيل يحب الجهاد فى سبيل الله ويسارع إليه.

* * *

كما نلاحظ : أن أول وصف لهؤلاء المجاهدين ٠٠ هو التوبة.
ولذلك ٠٠ من لا توبة له – وبالذات ٠٠ من الشرك – لا غفران له، بل لا استغفار له، بمعنى لا تطلب له المغفرة، حتى ولو كان من الأقربين.
ولذلك يقول رب العزة :

{ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ }
[الآية ١١٣]

يعنى : ما كان ينبغى للنبى صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الذين ماتوا مصرين على الكفر حتى ولو كانوا أولى قربى.

وذلك من بعد ما تبين لهم وعرفوا وتأكدوا أنهم أى هؤلاء المشركين أصحاب الجحيم لإصرارهم على الكفر، وموتهم عليه.

وقد نزلت هذه الآية : بسبب استغفار النبى صلى الله عليه وسلم لعمه أبى طالب الذى أصر على الكفر ومات عليه، وكذلك استغفار بعض الصحابة لأبويه المشركين.

* * *

أيها القارئ الكريم ..

قد يجول بخاطرك .. أن إبراهيم عليه السلام، قد استغفر لأبيه وهو على الشرك، كما فى قوله تعالى: { واغفر لأبى إنه كان من الضالين } [الشعراء : ٨٦].

فكيف يباح هناك .. ويمنع هذا ..؟

والجواب فى قوله تعالى :

{ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ }

[الآية ١١٤]

أى : ما كان استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه إلا وهو حى، يرجو إيمانه وهدايته، وأيضاً .. كان هذا الاستغفار : بسبب موعدة وعدها إياه أن يستغفر له ربه، ويطلب له الهداية منه، وذلك فى قوله له سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفياً [مريم : ٤٧].

ولا يصح أن يخلف وعده، خاصة وأنه حى، والأمل فى هدايته قائم.

وأما عم النبى صلى الله عليه وسلم : فإنه قد مات، ومات الأمل فى هدايته.

ومع ذلك ..

فلما تبين له أى : لإبراهيم عليه السلام، من جهة الوحى إليه أنه أى : والده عدو الله ولا أمل فى إيمانه، وأنه سيموت كافراً تبرأ منه وتنصل من صلته به.

إن إبراهيم لأواه كثير التأوه والتألم والشفقة والرحمة حليم ومن حلمه .. أنه كان يترفق بأبيه، ويدعو له، بالرغم من التهديد والأذية التى كانت له من أبيه.

ولكن ..

ومع هذه الصفات التى كانت فيه : فقد تبرأ من أبيه، حينما تبين له انقطاع الأمل فى إيمانه، وكف عن الاستغفار له.

* * *

أيها الأحبة الكرام ٠٠

لما نزل منع المسلمين من الاستغفار لذويهم المشركين : خاف الذين استغفروا منهم من عقاب الله تعالى لهم على ذلك، خاصة وأنه قد مات جماعة من هؤلاء الذين كانوا قد استغفروا لأقاربهم من المشركين ٠٠

فأنزل الله قوله تعالى :

{ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }
[الآية ١١٥]

والمعنى: وما كان الله ليضل قوماً أى : ليقضى عليهم بالضلال والعقاب بسبب استغفارهم لموتاهم المشركين بعد إذ هداهم للإيمان، ووفقهم للهداية، حتى يبين لهم من العمل ما يتقون ويبتعدون عنه.

إن الله بكل شيء عليم فلا يؤاخذكم على استغفاركم لهم السابق على بيان الحكم لكم بهذا الخصوص.

* * *

ويعود السياق للمؤمنين المجاهدين مرة أخرى ٠٠

حيث يحضهم الله على التقوى والجهاد ٠٠ ببيان أنه وليهم وناصرهم.

فيقول :

{ إِنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ }
[الآية ١١٦]

أى : ثقوا فيه، واعتمدوا عليه، واطلبوا نصرته وحده لكم.

* * *

أيها المسلم ٠٠

قبول التوبة : نعمة كبرى، وهدية من الله عظمى ٠٠!!

ندعو الله تعالى ٠٠ أن يرزقنا التوبة، وأن ينعم علينا بقبولها.

اقرأ معى إنعام الله على أهل غزوة تبوك.

حيث يقول :

{ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ }
[الآية ١١٧]

يعنى : لقد تاب الله أى : عاد بفضله ورحمته وعقده وتثبيته على قلب النبى صلى الله عليه وسلم وقلوب المهاجرين والأنصار وغيرهم من سائر القبائل، ما بين راكب وماشيء، وهم الذين اتبعوه إلى غزو الروم بتبوك فى ساعة العسرة من قلة المال والعتاد، وبعد الطريق، وشدة الحر، وكثرة العدو، وقوته.

وذلك من بعد ما كاد يزيغ عن الثبات على الإيمان قلوب فريق منهم بسبب هذه الشدائد ..

ولكن الله ثبتهم ثم تاب عليهم من آثام هذه الخواطر، وقوى عزائمهم، وربط على قلوبهم.

إنه بهم رءوف رحيم.

* * *

كذلك ..

{ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }
[الآية ١١٨]

أى : و تاب على الثلاثة من الصحابة وهم : كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، بدون عذر، وندموا ندماً شديداً، ولم يختلقوا أعذاراً كاذبة لتبرير تخلفهم هذا، كما فعل المنافقون، وهم الذين خلفوا أى : أرجئوا فى قبول توبة الله عليهم، كما فى قوله وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم .. [التوبة : ١٠٦] ، واشتد ندمهم، وطال انتظارهم حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت يعنى على سعتها وضاقت عليهم أنفسهم من خوفها وظنوا وتيقنوا أن لا ملجأ من سخط الله وغضبه إلا بالرجوع والاستغفار إليه.

ثم بعد خمسين يوماً من الانتظار والقلق والترقب تاب عليهم وقبل منهم توبتهم ليتوبوا ويصبحوا من جملة التائبين.

إن الله هو التواب الذى يقبل التوبة الرحيم بأهلها.

* * *

وهكذا ..

اتضحت لنا ٠٠ ضرورة الجهاد فى سبيل الله، ووصف المتخلفين عنه، وبيان جزائهم، ووصف المسارعين إليه، وبيان جزائهم ٠٠

ثم يأمر الله المؤمنين ٠٠ بتقوى الله، وضرورة انضمامهم للمجاهدين المخلصين، والعلماء العاملين.

حيث يقول :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ }

[الآية ١١٩]

يعنى : اتقوا الله بإقامة شرعه، والعمل بأحكامه، والالتزام بتعاليمه، وترك معصيته.

وكونوا مع الصادقين فى إيمانهم، وهم الذين قال الله عنهم إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون [الحجرات : ١٥].

* * *

ثم يعاقب ربنا – تبارك وتعالى – من يتخلف عن الغزو فى سبيل الله مع النبى صلى الله عليه وسلم ٠٠ قائلاً :

{ مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلاَ يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ }

[الآية ١٢٠]

أى : ما كان ينبغى، وما كان يصح لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب الذين تخلفوا عن الغزو فى سبيل الله، يوم تبوك أن يتخلفوا عن الغزو والخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يرغبوا بأنفسهم أى يصونوها عن الذى رضيه رسول الله، لـــ نفسه مع الشدائد ، والبذل فى سبيل الله.

وهو : أدب ينبغى أن يلتزمه المسلم مع قيادته الراشدة، التى تجود بنفسها فى سبيل الله.

وذلك النهى عن التخلف المذكور ٠٠ بسبب أنهم أى : الجنود المجاهدون لا يصبهم ظمأ يعنى عطش لقلة الماء .

ولا نصب يعنى : تعب ومشقة ولا مخمصة يعنى مجاعة لقلة الزاد ٠٠ فى سبيل الله الجهاد، طاعة الله، ونصرة لدينه.

كما أن هؤلاء المجاهدين ٠٠

لا يطئون موطئاً ينزلون منزلاً، ويدوسون مكاناً، بأنفسهم، أو بخيولهم ، أو بجيوشهم، أو بمعداتهم يغيظ الكفار يغضبهم ويؤدى إلى هزيمتهم النفسية ٠٠

ولا ينالون من عدو نيلاً أى : ولا يصيبونهم أية إصابة، أو يحدثون بهم أية هزيمة ينالونها منهم.

لا يفعلون شيئاً من هذا إلا كتب لهم به ثواب عمل صالح مقبول.
حيث إن الله لا يضيع أجر المحسنين فى جهاد، أو غيره.

* * *

أيضاً :

{ وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }
[الآية ١٢١]

والمعنى : أن هؤلاء المجاهدين لا ينفقون فى سبيل الله نفقة من مال أو غيره صغيرة قليلة ولا كبيرة كثيرة.
وكذلك لا يقطعون فى سيرهم للجهاد، ذهاباً أو عودة وادياً .
إلا كتب لهم ما ينفقونه، وما يقطعونه ٠٠ فى صحائف أعمالهم.
وذلك ليجزيهم الله عليه جزاءً أحسن مـمـا كانوا يعملون به، من أعمال صالحة.
أيها المؤمن ٠٠ إذا كان الأمر والثواب بهذا الشكل ٠٠ فكيف يحدث التخلف ٠٠؟

* * *

هذا ٠٠ عن موضوع التخلف عن الجهاد فى سبيل الله ٠٠ وما للناس من ثواب إذا لم يتخلفوا ، بل جاهدوا ٠٠
وهناك مجال آخر ٠٠ لا ينبغى التخلف عنه : ألا وهو طلب العلم ونشره بين الناس.
يقول عنه رب العزة :

{ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ }
[الآية ١٢٢]

نزلت هذه الآية ٠٠ بعد أن فضح الله المنافقين لتخلفهم عن الجهاد، وعاد المسلمون من الغزوة، وخافوا من هذا التخلف ٠٠ صمموا على أن ينفروا جميعاً فى كل غزوة مع النبى صلى الله عليه وسلم، بل لما بعث النبى السرايا للجهاد : نفروا جميعاً، وتركوه وحده بالمدينة.
والمعنى : ما كان ينبغى أن ينفر المؤمنون للجهاد كافة أى : كلهم، ويتركوا النبى وحده، خاصة : إذا كان الجهاد فرض كفاية، يقوم به بعضهم نيابة عن الجميع.

فلولا أى : فهلا نفر أى : خرج من كل فريق من المجاهدين طائفة عدد، يبقى مع النبى صلى الله عليه وسلم ليتفقهوا فى الدين تحصيلاً، وفهماً، وعملاً ولينذروا بهذا العلم الذى حصلوه وتفقهوا فيه قومهم الذين خرجوا للجهاد، وفاتهم هذا العلم بسبب غيابهم عن مجلس النبى صلى الله عليه وسلم ودروسه ، وذلك إذا رجعوا إليهم من ساحات الجهاد لعلهم يحذرون ما يجب اجتنابه والتوقى منهم.

* * *

وهكذا ٠٠ حدثتنا آيات السورة الكريمة : عن وجوب قتال المشركين، وأهل الكتاب، والمنافقين إذا أظهروا نفاقهم.

كما حدثتنا عن نوعين من النفير ، يحتاجهما الإسلام، وهما : النفير للجهاد، والنفير لطلب العلم.

والآن ٠٠ تضع آيات السورة : دستور الحركة الجهادية فى الإسلام.

وهى الاستراتيجية التى لا يجوز للمسلمين إغفالها، أو التهاون فيها.

حيث تأمر هذه الآيات المؤمنين : بأن يقاتلوا الكفار، الأقرب منهم إلى المسلمين وبلادهم، فالأقرب، وأن يشتدوا عليهم، ويغلظوا إليهم.

إذّ يقول العزيز الحكيم :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ }
[الآية ١٢٣]

يعنى : قاتلوا كل الكفار ٠٠ وهذا واجب، وقاتلوا الذين يلونكم من الكفار أى القريبين منكم داراً، أو بلاداً، أو نسباً ٠٠ وهذا أوجب.

وليجدوا فيكم حال قتالكم لهم، بل دائماً غلظة قسوة عليهم، مثل قسوتهم عليكم، ولا تتهاونوا معهم، ولا تنخدعوا بالشعارات الزائفة، التى يطلقونها ٠٠ مثل : دعوى الإنسانية، ومراعاة الرأى العام ٠٠ إلخ.

واعلموا وأنتم تجاهدونهم أن الله مع المتقين بعونه، وتأييده ونصره، وأنه إذا اتقيتموه : ينصركم عليهم.

* * *

ثم تبين الآيات موقف المؤمنين والمنافقين من القرآن ٠٠ فتقول :

{ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ }
[الآية ١٢٤]

يعنى : وإذا ما أنزلت على محمد صلى الله عليه وسلم سورة من القرآن فى غيبة المنافقين ساعة نزول الوحى بها ٠٠

فمنهم أى : من المنافقين من يقول لأصحابه ولضعاف الإيمان ٠٠ إذا عرف أيكم زادته هذه السورة بما فيها إيماناً ؟

وذلك : من باب الاستهزاء بالمؤمنين ، والإنكار للقرآن ٠٠!!

ولا يكون منهم جواب ٠٠

إنما يجيب الحق سبحانه وتعالى بما هو الحق ٠٠ حيث يقول :

فأما الذين آمنوا وصدقوا بالله وآياته، واتبعوا رسوله فزادتهم هذه السورة، كما هو الحال فى كل سورة إيماناً لتصديقهم بما جاء فيها وهم يستبشرون بكل تكليف يشرفهم به ربهم.

وهذا عن المؤمنين ٠٠ حينما تنزل السورة ٠٠

* * *

{ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ }
[الآية ١٢٥]

أى : وأما المنافقون الذين فى قلوبهم مرض وشك، وضعف اعتقاد ويقين فزادتهم السورة بعد نزولها، ومعرفة ما فيها رجساً إلى رجسهم كفراً جديداً إلى كفرهم السابق.

وماتوا وهم كافرون مصرون عليه، لم يتوبوا منه.

* * *

يا سبحان الله ٠٠!!

{ أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ }
[الآية ١٢٦]

يعنى : أ لا يعقل هؤلاء المنافقون أ ولا يرون فيعتبرون؟

بماذا يعتبرون ٠٠؟

أنهم يفتنون ويختبرون فى كل عام بالابتلاء والنوازل مرة أو مرتين عسى أن ينصلح حالهم، ويتوبوا إلى الله تعالى من نفاقهم.

ثم بعد كل هذا لا يتوبون مما هم فيه.

ولا هم أيضاً يذكرون فيعتبرون، فيتوبون.

* * *

{ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ }
[الآية ١٢٧]

يعنى : وإذا ما أنزلت على محمد صلى الله عليه وسلم سورة من القرآن، فى حضور المنافقين ٠٠
نظر بعضهم إلى بعض وتغامزوا بالعيون، استهزاءً بما جاء فيها، وسخرية من المصدقين بها، وتدبيراً لهروبهم من هذا المجلس، وتساءلوا بعيونهم أيضاً، وكأنهم يقولون هل يراكم من أحد من المؤمنين، إذا قمتم ٠٠؟
ثم انصرفوا من المجلس، وهم على كفرهم.
صرف الله قلوبهم عن الهدى وفهم القرآن.
وذلك : بسبب أنهم قوم لا يفقهون الحق لعدم تدبرهم له، واعتبارهم به.

* * *

وبما أن السورة ٠٠ تحث على القتال ٠٠
وحتى لا يفهم أحد ٠٠ أن هذا الحث على القتال للأعداء فى سبيل الله؛ تفريط بالمؤمنين ٠٠
يبين ربنا تبارك وتعالى : أن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، وما فيها من الأمر بقتال الأعداء : هو الخير كل الخير للمؤمنين.
إذ يقول مذكراً لهم بهذه النعمة ٠٠

{ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ }
[الآية ١٢٨]

يعنى : لقد جاءكم أيها الناس جميعاً، ويا أيها العرب خاصة رسول من أنفسكم من جنسكم، لا من الجن، ولا من الملائكة، عزيز شديداً عليه ومؤلم لنفسه ما عنتم أى : ما يشق عليكم، ويتعبكم حريص عليكم أن تهتدوا، وتؤمنوا.
وهو صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين خصوصا رءوف رحيم حيث يريد لهم الخير.

* * *

وإذا كان محمد صلى الله عليه وسلم ·· على هذا الحال ··
فإن الله يقول له :

{ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ }
[الآية ١٢٩]

يعنى : فإن لم يستجيبوا لك وتولوا عن الإيمان بك، واتباع ما جئت به، والجهاد فى سبيل الله ··
فقل حسبى الله يكفينى، ومنه أستمد العون وبه استنصر.
عليه توكلت وإليه فوضت أمرى، وبه وثقت، لا بغيره.
وهو رب العرش العظيم ومن كان رب أعظم المخلوقات على هذا النحو: فإن التوكل عليه ·· يغنى عن جميع المخلوقات.

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر